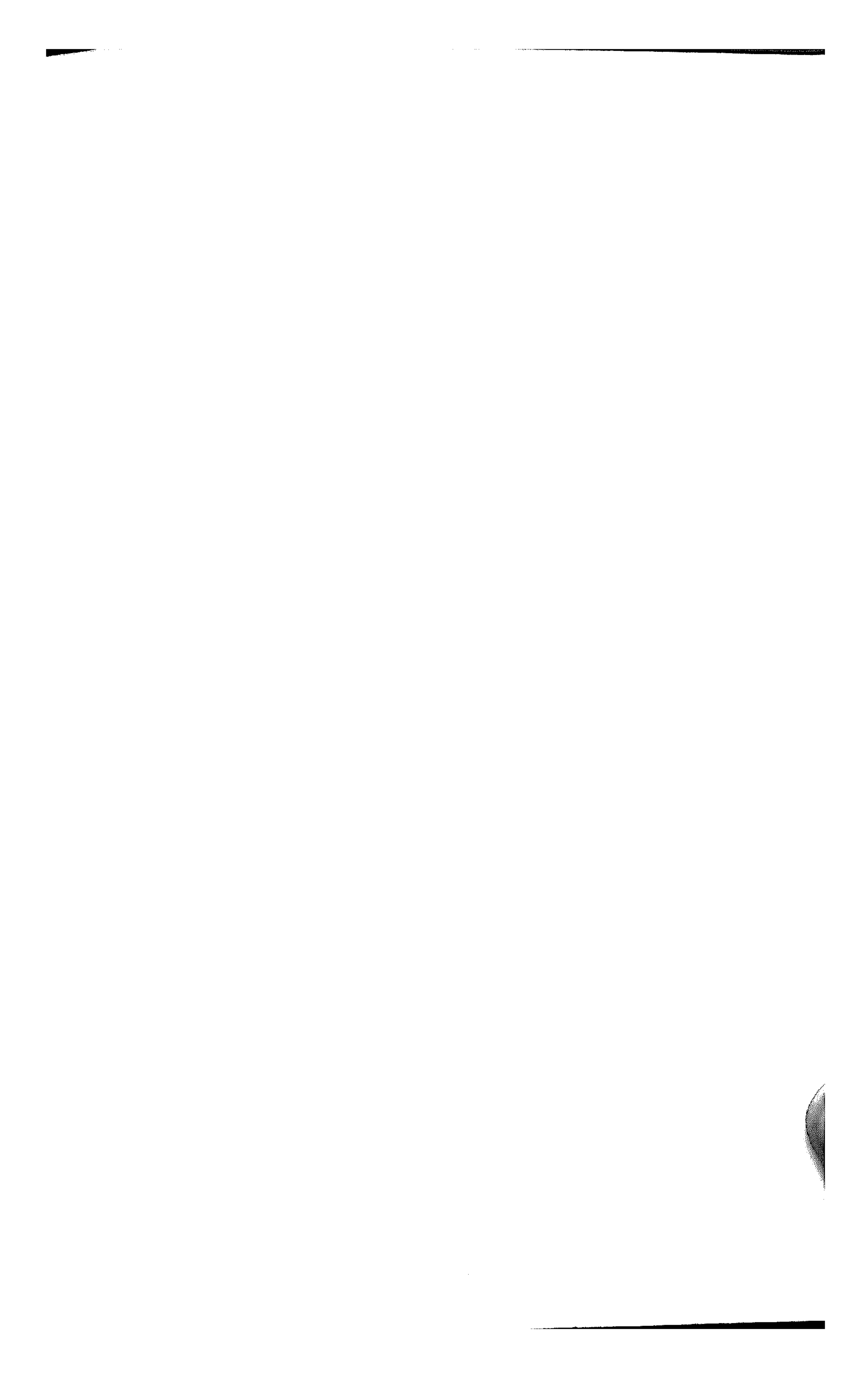
تاريخ الإسلام

في الأندلس

من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة

دكتور علي حسين الشطشاط





تاريخ الإسلام في الأندلس

تاريخ الإسلام في الأندلس

من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة

دكتــــور / علي حسين الشطشاط

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية الآداب ــ جامعة قاريونس

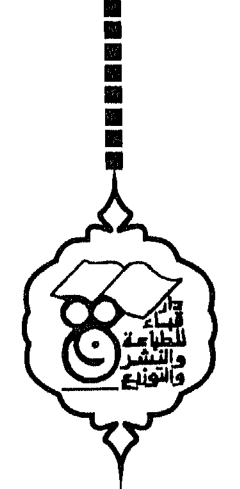
الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

الكتـــاب : تاريخ الإسلام في الأندلس
المؤلـــف : د. علي حسين الشطشاط
رقـم الإيداع : 2001/7504م
الترقيم الدولى : ISBN
977 – 303 – 346 - 5
تـاريخ النشـر : 2001

للمؤلف : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع



الإدارة :
58 شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة 6
☎6362562 – فاكس/ 6374038

المكتبـــة :
10 شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)
☎ 5917532 / ✉ 122 (الفجالة)

المطابـــع :
مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)
☎ 015/362727

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

- أ -

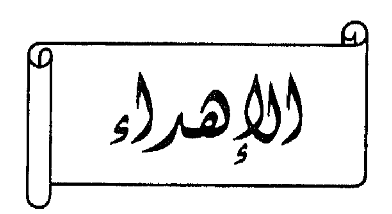
ما قيل في مدح الأندلس

قال أبو اسحق بن خفاجة في الأندلس :

يـــا أهـــلَ أندلـــسٍ لله درّكُــمُ
مـــاءٌ وظـــلٌ وأنهـــارٌ وأشـــجارُ
مـــا جَـــنّةُ الخُـــلْدِ إلاّ في ديـــاركمْ
وهـــذه كـــنتُ لـــو خُيِّـــرتُ أخـــتارُ
لا تـــتقوا بعدهـــا أن تدخـــلوا ســـقراً
فـــليس تُدْخـــل بعـــد الجـــنَّة النَّارُ [1].

---

(1) ابن الخطيب التلمساني ذو الوزارتين لسان الدين : تاريخ أسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام – تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال – دار المكشوف (بيروت – 1956) ص5.



الإهداء

إلى أستاذيّ الدكتور إبراهيم حركات(*)، والدكتور محمد بنسودة(**) عرفاناً لهما بالجميل.. داعياً الله – عزّ وجلّ – أن يكلأهما برعايته وحفظه.

المؤلف

(*) هو أستاذ جامعي مغربي مبرّز. شغل مناصب إدارية وأكاديمية عديدة بالمغرب الشقيق، وله مؤلفات جمّة، وكان المشرف الأول في إعدادي لرسالة الدكتوراه.

(**) هو أستاذ جامعي مغربي مبرّز في علم التشريح والجراحة، وله مصنفات كثيرة، وهو يشغل الآن رئيس قسم التشريح بكلية الطب والصيدلة بجامعة محمد الخامس بالرباط، وكان المشرف الثاني في إعدادي لرسالة الدكتوراه.

شكر وتقدير

يسعدني أن أتقدم بالشكـــر الجزيل
إلى العاملين بالمكتبة المركزية
فـــي جامعـــة قاريونس ببنغـــازي
لما قدموه لي من خدمات جليلة،
من أجل الحصول على العديد
من المؤلفات التي ساعدت
على إنجاز هذا الكتاب

◈◈◈

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على المجتبي من أنبيائه وعلى آله وصحبه وأوليائه وبعد.

إن دراسة التاريخ لها أهداف ومقاصد مهمة؛ في محاولة لاستذكار الماضي واستنباط العظات والعبر منه بقصد فهم الحاضر، واستثارة الهمم، وشحذ العزائم استعداداً للمستقبل.

لقد حكم المسلمون بلاد الأندلس أكثر من ثمانية قرون، وتركوا فيها آثاراً إسلامية عظيمة وقيِّمة؛ مادية وروحية وخلقية واضحة المعاني، ولا سيما في المناطق الجنوبية التي استقر فيها المسلمون حتى آخر أيامهم في الأندلس. فكانت الأندلس بحق جنة على وجه الأرض، ومنهلاً عذباً للعلم والمعرفة، يتقاطر عليها طلاب العلم والثقافة والباحثون من كل فجّ عميق لينهلوا من مناهلها العذبة، ويرتووا من منابعها التي لا تنضب.

إن دراسة تاريخ الإسلام في الأندلس من الأمور المهمة والمشوقة لدارس التاريخ الإسلامي، ولكن في نفس الوقت تجعل الباحث يتردد كثيراً ، للإقدام على هذه الدراسة، وذلك لتشعب واتساع هذا الموضوع. وإذ أُقدم هذا الكتاب للباحثين والقراء اعترف بأنني لم أستطع أن أغطي كل جوانب تاريخ الإسلام في الأندلس، وإنما ركزت على دراسة الفترة الزمنية المنوه عنها في عنوان هذا البحث، ورغم ذلك فرجائي كبير في أن يجد القارئ ضالته في أبحاث هذا الكتاب، وأن يكون حافزاً له نحو الاطلاع وزيادة المعرفة والتعمق في البحث العلمي الناقد للوصول إلى تكوين صورة واضحة وجلية لتاريخ المسلمين في الأندلس خلال هذه الحقبة التاريخية المهمة.

والكتاب الذي بين أيدينا محاولة متواضعة لبيان الخطوط الأساسية لتاريخ المسلمين في الأندلس خلال العصور الوسطى.

هذا وقد ضّمنت الكتاب خمسة فصول ومقدمة وخاتمة، سأخصص الفصل الأول منه للحديث عن "الفتح العربي لبلاد الأندلس" ومن خلال ذلك سأوضح الأسباب التي دفعت العرب لفتح الأندلس، ومقدمات ذلك الفتح ومراحله ونتائجه.

وفي الفصل الثاني يجرنا البحث للحديث عن "عصر الولاة" في الأندلس، وسترتكز الدراسة فيه حول أبرز الولاة الذين قاموا بأعمال عظيمة في التاريخ الأندلسي خلال تلك الفترة التاريخية، وسأختتم الفصل بدراسة حالة الأندلس في أواخر عصر الولاة.

أما الفصل الثالث فسأخصصه لدراسة "قيام الدولة الأموية في الأندلس ووصول عبدالرحمن الداخل إلى الحكم" وسأتطرق فيه لأول معركة خاضها عبدالرحمن الداخل ضد آخر ولاة الأندلس، ألا وهو "يوسف بن عبدالرحمن الفهري" وسأبين في حينه، كيف استطاع عبدالرحمن الداخل الانتصار على خصمه والاستيلاء على قرطبة، ثم سأعرج على دراسة أهم أعماله الداخلية، كما سأشير إلى تركيبة المجتمع الأندلسي في أوائل عصر الولاة.

وعند الانتقال إلى الفصل الرابع، سيرتكز البحث حول "أمراء بني أمية في الأندلس بعد عبدالرحمن الداخل" ابتداء من هشام بن عبدالرحمن، وانتهاء بعبد الله ابن محمد بن عبدالرحمن، وأهم أعمالهم الداخلية والخارجية.

وأخيراً سأختم الكتاب بفصل خامس، وسأذكر فيه "عصر الخلافة الأموية في الأندلس" وسنرى الدولة الأموية في الأندلس قد وصلت إلى ذروتها خلال هذا العصر على يدي أعظم خليفتين، هما عبدالرحمن الناصر وابنه المستنصر بالله، حيث وصلت الحضارة الإسلامية في عهدهما أوج مجدها وازدهارها، ووصلت قرطبة إلى قمة البهاء والعظمة، وسأبين في حينه ما قام به من إصلاحات داخلية عظيمة

وأعمال خيرية كثيرة، وفي مجال السياسة الخارجية سنرى أن الأندلس في تلك الفترة استطاعت أن تقف صامدة أمام أعدائها، وتردّ كيد المعتدين، بفضل سياسة حكامها الرشيدة. ثم سأشير إلى ظهور الحاجب محمد بن أبي عامر وسيطرته على زمام الخلافة ، وسأتتبع تلك الأحداث التاريخية إلى أن أصل إلى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في عام 422هـ/ 1031م وذلك بعزل آخر خلفائها "هشام الثالث المعتد بالله".

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة، ولا أدعي إحاطة أو كمالاً فالكمال لله وحده ، ولكن حسبي أني اجتهدت وسعيت ....

فإن أصبت فتلك بغيتي، وإن أخطأت فللّه العصمة والكمال.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

د. على حسين الشطشاط
السلماني الشرقي / بنغازي
شتاء 1999 ف

مدخل عام

أ- نظرة جغرافية لشبه الجزيرة الإيبيرية :

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس) على مثلث من الأرض (يضيق شرقاً ويتسع غرباً)[1] في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية مقابل السواحل الشمالية للمغرب تفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا جبال البُرتْ أو البرتات Pyrenees وتعرف بالأسبانية Pirineos وتسمى أحياناً "البرانس" تقع شمال قرطبة وتتصل الأندلس بالأرض الكبيرة يفصلها من الجنوب مضيق جبل طارق الذي يبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب 13-37كم[2]. وطوله حوالى 80كم، فهو إذن ذراع ضيق من الماء يمكن في يوم صحو رؤية الشاطئ المغربي من الشاطئ الأسباني وبالعكس وبهذا تكون مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الأندلس مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي والاقتصادي بينهما، ومن هنا نشأ صراع تقليدي مستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوروبي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق والمعروفة باسم العدوتين: عدوة المغرب وعدوة الأندلس؛ والعدوة معناها الجانب أو الشاطئ[3].

تقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى في الشمال الأفريقي ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبيرية والمغرب الأقصى – وما بعده – برًّا. كما يصل بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط بحراً[4].

تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسي عند خليج بِسْتاية (Biscay) الذي تقع عليه مدينة خيخون (Cijon)، وتقع على سواحلها

---

(1) المراكشي عبدالواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، (القاهرة، 1963)، ص 5-6 . كذلك الحميري: الروض المعطار، ص2.

(2) عنان، محمد عبدالله : دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة، 1969) 1/53، 82. كذلك البكري أبو عبدالله بن عبدالعزيز : جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب "المسالك والممالك")، تحقيق عبدالرحمن علي الحجي (بيروت، 1968) 85، 129.

(3) العبادي ، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة (بيروت، 1972) ص231.

(4) الحجي، عبدالرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم بيروت، 1976، ص36.

الغربية على المحيط الأطلسي، (بحر الظلمات) وتقع شواطؤها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط (البحر الرومي)[1].

وأُطلق على شبه الجزيرة اسم "ايبيرية" نسبة إلى أمة قديمة يقال لها الإيبير (IBER) وهي أقدم أمة عمرّت بلاد أسبانيا والبرتغال[2]. أما لفظة "الأندلس" فهي مشتقة من اسم "ألفاندالس" (Vandali) أو "الوندال" وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر "الأودورو" (Oder) ونهر "الفيستولى" (Vistale) في شرقي "ألمانيا". وهؤلاء الفاندالس زحفوا سنة 411 ق.م. من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق، ثم وصلوا إلى أفريقياً وقد أطلق أهل أفريقيا والمغرب على أسبانيا التي استقر فيها "الفاندالس" اسم "فانداليسيا" (Vandaucia) نسبة إلى اسم "الفاندالس"، ولما جاء العرب إلى هذه البلاد وافتتحوها عرّبوا الاسم وأطلقوا عليها اسم "أندلس"[3]. وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في أسبانيا سنة 1492م، أطلق الأسبان اسم اندالوثيا (Anducla) على الولايات الجنوبية الأسبانية وهي المنطقة التي تشمل اليوم ولايات قرطبة وأشبيلية وغرناطة[4]. واعتبر العرب أن الأندلس هي جميع الجزيرة الايبيرية، (اسبانيا والبرتغال اليوم) رغم أن سيادة العرب المسلمين لم تنتشر بصورة مطلقة على جميع أجزائها[5] ويذكر "المسعودي" أن عدد المدن الأندلسية في فترة الحكم العربي الإسلامي بلغ حوالي أربعين مدينة عربية[6] كانت تضم ما يقرب من خمسة عشر مليوناً من السكان في عهد "عبدالرحمن الناصر" (الثالث). وكانت قرطبة وحدها تضم مليوني نسمة.

---

(1) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص 36.

(2) الحميري : الروض المعطار ، ص 5.

(3) انظر المقرّي : نفح الطيب 1/127-139. كذلك ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب 1/1-3، حلاق، حسان العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس، صقلية الشام — الدار الجامعية (بيروت- 1986) ص15، 16.

(4) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي، ص 227.

(5) بيصون، إبراهيم : الدولة العربية في أسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية (بيروت 1986) ، ص65-66.

(6) انظر مروج الذهب 1/183. كذلك المقري : نفح الطيب، 1/127.

وهذه البلاد تُقسم جغرافياً إلى قسمين الأندلس العليا وهي شمالي الوادي الكبير، والأندلس السفلى وهي جنوب الوادي الكبير ويجري في هذا الوادي أكبر نهر في الأندلس بعد نهر إبره[1].

أما سكان الأندلس فهم في الأصل خليط من: الكلتيين والإيبيريين والوندال[2] والآلان والسويف والقوط الشرقيين والقوط الغربيين والفنيقيين والرومان، فهم حقيقة خليط من عناصر فنيقية ورومانية وجرمانية وأغريقية ويهودية، ثم جاءت العناصر الإسلامية، التي يمثلها العرب والبربر[3]

ب- حالة أسبانيا قبل الفتح الإسلامي :

ظل الوندال يحكمون الأندلس إلى أن هاجمهم القوط الغربيين وتمكنوا من طردهم إلى أفريقية سنة 456م، واستطاعوا بسط سلطانهم على الأندلس كلها في نهاية القرن الخامس الميلادي. واتخذ القوط "طليطلة" عاصمة لملكهم، وتأثروا بالحضارة والأنظمة الرومانية في قوانينهم ونظمهم، واعتنقوا المسيحية، وظلوا يحكمون الأندلس إلى أن قدم المسلمون وتغلبوا عليهم سنة 92هـ/ 711م. وقد ساد البلاد خلال حكمهم وضع شاذّ من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية، حيث كان المجتمع مقسماً إلى طبقات يتحكم بعضها في البعض الآخر بعنف وقسوة[4].

استبد القوط (Coths) بالحكم، لا سيما قُبيل الفتح الإسلامي، وبسوء سياستهم ساءت حالة أسبانيا واضطربت حياة سكانها، فانتشرت الفوضى، وأصبحت غالبية الشعب تعيش عيشة ضنكة لسوء الأحوال المعيشية وليساسة الاستغلال. فكان الشعب يُستغل لحساب طبقة الشعب المقهور والحاكمين، وفيما

(1) حسان حلاق : العلاقات الحضارية، 15-16.
(2) الوندال : إحدى جماعات المتبربرين من الجرمان.
(3) حسان حلاق : المصدر السابق، ص 15-16.
(4) زيتون ، محمد محمد : المسلمون في المغرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (القاهرة، 1984) ص149.

بين الحاكمين أنفسهم، وكان الشعب الأسباني - مثل غيره من الشعوب الأوربية - مقسماً إلى طبقات عديدة هُضمت حقوقها. مع وجود الفوارق الطبقية. و الأسرة المالكة بيدها كل شيء دون سواد الشعب الذي يُلاقي الإهمال والظلم فتفرض عليه الضرائب والتكاليف الباهظة. وقد انقسم الشعب إلى الطبقات التالية:

أ- طبقة النبلاء : ومنها الطبقة الحاكمة وكان التنافس على أشده بين هذه الطبقة للوصول إلى العرش بالرغم من أن الملك كان ينتخب انتخاباً. وهم من سلالة القوط الفاتحين، التي استولت على أكثر الأراضي الزراعية الخصبة[1].

ب- طبقة رجال الكنيسة (رجال الدين) : التي تشارك النبلاء في حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها. وكان نفوذهم غير محدود.

جـ- الطبقة الوسطى : وهى طبقة التجّار والزّراع والملاّك الصّغار الذين يتحملون الضرائب المختلفة فكانت حالتهم سيئة.

د- الطبقة الدنيا : وهي طبقة عبيد الأرض (Serfs) الذين يتبعون مالكها وينتقلون مع ملكيتها من سيد إلى آخر. و لم تكن لهم حقوق.

هـ- طبقة العبيد Slaves : وهذه الطبقة تكونت من أسرى الحرب ويُتصرف فيهم بيعاً وشراء، و لم تُعط لهم ولا لعبيد الأرض الحقوق التي يستحقونها فلم ينالوا خيراً[2].

و- طبقة اليهود : وبالإضافة إلى الطبقات السابقة المسيحية هناك طبقة أخرى تختلف من ناحية الدِّين وهم اليهود الذين بلغوا عدداً كبيراً في أسبانيا، حيث بسطوا نفوذهم في المجال الاقتصادي ولكنهم عانوا الكثير من عسف الملوك والكهنة والنبلاء وذاقوا شتى ألوان الجور والاضطهاد، ودفعهم ذلك إلى التآمر وتدبير ثورة على الحكم القائم ولكن مؤامراتهم اكتشفت قبل القيام بها سنة 694م عهد الملك

(1) العبادي، عبدالحميد: المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم (القاهرة، 1964) ص32.

(2) انظر ابن عبدالمنعم الحميرى: الروض المعطار، 170. كذلك عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 32/1، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 29-30 ، أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص 259، عبدالحميد العبادي: المجمل، ص32-33.

"اجيكا"، الذي وافقه الأحبار في طليطلة على معاملتهم معاملة قاسية فنكّل بهم وصادر أملاكهم وقضى على من بقي منهم بالرق الأبدي للنصارى ووزعهم شيباً وشباباً وذكوراً وإناثاً على المسيحيين؛ فأما الشيوخ فقد سمح لهم بالبقاء على دينهم القديم، وأما الشبان والأطفال فقد لُقنوا العقيدة المسيحية، ونشئوا عليها فصار لا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني[1].

وبذلك ذاق اليهود مرارة الذل والهوان والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التي صارت تنتظر الخلاص مما تعانيه دون أن تجد إلى ذلك سبيلاً. وإلى جانب هذا الوضع الاجتماعي والاقتصادي الظالم كان الوضع السياسي مملوءاً بالاضطرابات والانقلابات السياسية.

وفي بداية القرن الثامن الميلادي (700م أو 702م) كان على عرش الأندلس الملك "غيطشه" (Witiza) والروايات الأسبانية تختلف في أمره فيصفه البعض بحسن السيرة وبالحكمة وبالعمل على ردّ المظالم وإقامة العدل، بينما يصفه آخرون بالظلم والجور والبغي على كل من يخالفه أو يقف في سبيل أطماعه . وقد تمكن "غيطشه" من القضاء على الثورات التي قامت ضده جميعاً ما عدا الثورات التي تزعمها "ردريك" (لذريق) Rodrigo" الذي انضم إليه رجال الدين والأشراف وأعلن نفسه ملكاً وتمكن من القضاء على "غيطشه" بعد خوض حرب أهلية عنيفة[2]. وذلك حوالي سنة 708م أو 710م. وتختلف الروايات التاريخية اختلافاً كبيراً في تحديد نهايته، فمنها ما يذكر أنه مات ميتة طبيعية، والبعض الآخر يقول إنه ترك العرش لوريثه أخيلاً (Achila) الذي كان حاكماً لمقاطعتين هامتين في الشمال.

---

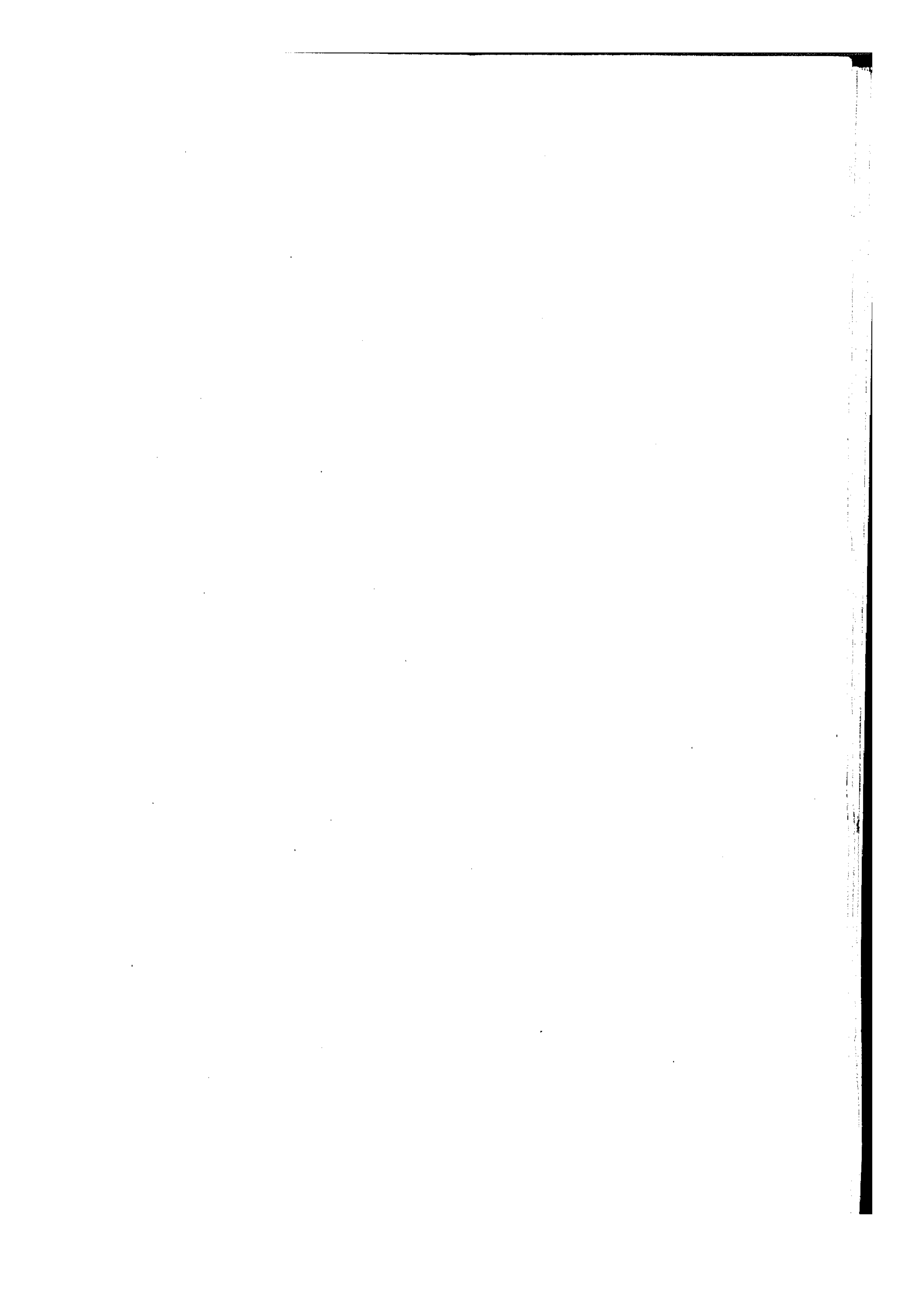
(1) انظر أمير علي، سيد : مختصر تاريخ العرب (بدون مكان، بدون تاريخ)، ص113. كذلك شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب، ص 50، محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص 150-151 ، أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص260.

(2) انظر محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام، قسم 1، ص 33. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص151.



الفصل الأول

الفتح العربي لبلاد الأندلس



بعد أن تولى لذريق المُلك لم يقضِ على الاضطراب السياسي في الأندلس مما حملـــهُ على كبت الثورات التي قامت ضده وخاصة في الشمال(1). عدا المؤامرات الـــتي كـــان يديرها أبناء الملك "غيطشة" في سرٍّ وكتمان. وبينما كانت الأندلس تعيـــش في هذا الوضع المضطرب سياسياً واجتماعياً واقتصادياً يضيق معظم سكانها بـــالذل والهوان الذي يلقونه من حكامهم؛ فهم يعملون ولكن لا ينالون من نتيجة عمـــلهم شـــيئاً، ولا يعـــرفون للحرية طعماً، ولا للكرامة الإنسانية مذاقاً — نجد الســـكان عـــلى الشاطئ الأفريقي المقابل يعيشون في حرية وعزة وكرامة في ظل الهدايـــة الإسلامية والتي ارتفعت راياتها على أرض يسودها الإخاء والمحبة والعدل الاجـــتماعي الـــذي سوّى بين البربري والعربي، ويرنون بأبصارهم إلى الأندلس هـــادفين إلى نشـــر الدعوة الإسلامية وإقامة مشاعلها التي ستنقذه مما تردى وتجعله المنبع لبعث الحضارة الأوربية الحديثة(2).

فما العوامل التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس؟

وما الأسباب التي ساعدت على هذا الفتح ومهدت له؟

وأخيراً ما هي النتائج التي ترتبت على فتح الأندلس؟

أ- أسباب الفتح :

اختـــلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس، وهي بالتأكيد أسباب كثيرة وأهمها :

1- كان العرب آنذاك في أوج مجدهم وفتوحاتهم فقد وصلت جيوشهم إلى أقصى بلاد الشرق كما وصلت إلى أقصى بلاد المغرب، ونالوا من الانتصارات خلال نصف قرن من الزمن ما أذهل العالم آنذاك وتركه عاجزاً عن الدفاع عن نفسه أمـــام تلك الفتوحات العربية القوية المتدفقة، فليس من المستغرب والحالة هذه، أن يكونـــوا قد فكروا بعد وصولهم إلى المضيق الفاصل بين إفريقية وأوربا، أن

11) انظر محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام ، قسم 1 ص 33، 34. كذلك محمد زيتون المسلمون في المغرب والأندلس، ص 151.

(2) محمد زيتون المصدر السابق، ص 152-153.

يجتازوا ذلك المضيق وينساحوا في تلك البلاد والتي كانوا يسمعون عن خصوبتها وغناها[1].

2- لقد شجع العرب على التفكير في مشروعهم ما كانوا يسمعونه عن الأحوال الداخلية في أسبانيا وعن التنازع على الحكم وخاصة الانقلاب الأخير الذي قام به القائد لذريق "رودريجو Rodrigo" على الملك الشرعي غيطشه "ويتزا Witiza" وما كان في نفوس أولاد الملك المخلوع من رغبة في الانتقام ممن إغتصب عرش والدهم[2].

3- قيل إن الكونت "يوليان" حاكم "سبته" لم يكن على وفاق مع الملك الجديد "لذريق" وأنه كان لا يزال يضمر الطاعة والاحترام للملك السابق "غيطشه" الذي سلب لذريق منه العرش، وأنه كان يعتبر أن السلطة الشعبية لا زالت في بيت الملك ذاك وأن "لذريق" لم يكن يملك شيئاً من الشرعية في تسلّمه مقاليد الحكم، بل لم يكن سوى مغتصب له[3].

4- إن فكرة "يوليان" عرض المساعدة على العرب لفتح الأندلس والقضاء على حكم "لذريق" ربما تكون قد تأتت من حسن العلاقة التي كانت تجمع "يوليان" ببيت المُلك القديم وخاصة بأولاد الملك المخلوع "غيطشه" ويقال إن أولاد الأخير كتبوا إلى يوليان" يطلبون مساعدته ضد لذريق مغتصب المُلك، وربما أوحوا إليه فكرة إدخال العرب بعد أن علموا بأن هؤلاء قد أشرفوا على البحر عند طنجة[4].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن أولاد "غيطشه" أنفسهم قد قدموا إلى إفريقية بأنفسهم لطلب العون من العرب، وفي ذلك يقول "ابن عذاري المراكشي" نقلاً عن عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر: أن أبناء "غيطشه" ومعهم "يوليان" ذهبوا للقاء "طارق بن زياد" فسأل أحدهم : ما جاء بك؟، فقال له: إن أبي مات فوثب

(1) الصوفي، خالد: تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة)، دار النجاح (بيروت، 1971) ص76.
(2) المصدر نفسه، ص77.
(3)المصدر نفسه، ص77.
(4)المصدر نفسه، ص77.

علـــى مملكتـــنا بطريق يقال له لُذريق؛ فأهانني وأذلني؛ وبلغني أمركم؛ فأجابه إلى ذلك...[1].

5- يـــرى الـــبعض[2]؛ أن ذلك راجع إلى أسباب أخلاقية تتعلق باغتصاب الملك "لذريق" "لفلورندا" ابنة "يوليان" حاكم مدينة سبتة مما أثار حفيظة أبيها ودعاه إلى أن يســـتدعي المســـلمين من المغرب ويحثهم على فتح الأندلس انتقاماً من "لذريق".

ومـــلخص هـــذه الرواية أنه كان للكونت "يوليان" حاكم سبتة ابنة جميلة تُســـمى "فلورندا" (Florinda) وأنه جرياً على عادة الطبقة الراقية في ذلك الوقت، أرسلها إلى القصر الملكي القوطي بطُليطلة لتتأدب وتتعلم فيه أسوة بغيرها من بنات الطـــبقة الراقية، ثم حدث أن رآها الملك "لذريق" فأعجب بجمالها، واعتدى على شـــرفها، فكتبت إلى أبيها تخبره بذلك فجاء "يوليان" إلى القصر الملكي وأخذ ابنته من هناك، وهو يضمر الحقد والانتقام من الملك.

وتضيف الرواية التاريخية أن الملك "لذريق" طلب من "يوليان" أن يرسل إليه صقوراً للصيد جرياً على عادته ، فرد عليه "يوليان" بقوله (لأوردن عليك طيوراً لم تسمع قط بمثلها)[3].

ويقصد بذلك العرب. ثم اتصل "يوليان" بموسى بن نصير " وهوّن عليه غزو أسبانيا مبيناً له سوء الأحوال فيها فاستجاب "موسى" لطلبه، وأقدم على هذا الغزو بعد استئذان الخليفة الأموي "الوليد بن عبدالملك".

6- وهـــناك روايـــة أخرى ترويها المصادر الأسبانية، ملخصها أن الملك القوطي الســـابق غيطشـــة "وقله Akhlia" لما عُزل من ملكه ذهب أنصاره إلى حليفه الكونـــت "يوليان" حاكم سبتة طالبين مساعدته، فقادهم "يوليان" بدوره إلى

---

(1) انظر البيان المغرب، 612.

(2) انظر ابن خلدون : العبر، 171/4. كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 7/2، المقري: نفح الطيب، 2/ 236، أحمد العابدي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص262-263.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 7/2.

"موسى بن نصير"؛ بالقيروان حيث تم الاتفاق على أن يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه في مقابل جزية سنوية يؤديها للعرب.

هذه الرواية تبدو أقرب إلى الحقيقة من سابقتها لأنها تتفق مع طبيعة الأحداث في ذلك الوقت خصوصاً وأن مدينة سبتة كانت ملجأ لكثير من العناصر الساخطة على الحكم القوطي[1].

7- ويذكر "المقْري " أن حديث "يوليان " إلى "موسى بن نصير" عن بلاد الأندلس وحسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع ووفرة الثمار وكثرة المياه وعذوبتها مع ضعف أهلها وقلة بأسهم شوّق "موسى بن نصير" إلى فتح الأندلس. وكأن الأطماع الإقليمية والغنائم هي التي دفعت المسلمين إلى الفتح[2].

8- يرى البعض أن الحرب كانت مستعرة بين المسلمين والبيزنطيين الذين يهاجمون الشواطئ الأفريقية من جزر البليار (الجزر الشرقية: "منورقة" و"ميورقة" و"يابسة" وهي أصغرها) وصقلية، وسردنية وأن أسطول القوط انضم إلى أسطول الروم في مراقبة سواحل افريقية"[3]، مما حمل المسلمين على الاستيلاء على جزائر "منورقة" و"ميورقة" و"يابسة" فتوجه المسلمون لفتح الأندلس إنما هو مواصلة لهذه الحرب التي كانت دائرة بينهما. وربما يكون ما ذكره المؤرخون أسباباً مباشرة حدثت قريباً من زمن الفتح فظنَّ البعض أنها هي التي حملت المسلمين على فتح الأندلس ولكن الحقيقة أن امتداد الفتح إلى الأندلس كان أمراً طبيعياً يتمشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية وطبيعة القائمين بها وقد تمّ ذلك بعد أن تهيأت الظروف والوقت الملائمين[4].

---

(1) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص 262.

(2) انظر نفح الطيب 237/1. كذلك محمد عنان : دولة الإسلام في الأندلس، قسم 1، ص39، محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص154.

(3) أمير علي : مختصر تاريخ العرب، ص11. كذلك سيديو : تاريخ العرب العام، ص158، محمد زيتون، المصدر السابق، ص155.

(4) محمد زيتون : المصدر السابق: ص155.

كان هذا الفتح الأمين سيتم بإذن الله حتى لو تفادت أسبانيا تلك الظروف، لأن المدّ الإسلامي المُنيب المنير قد مزّق – خلال سيره – حُجب الظلام كافة، وأزال حواجز الظلمات، وهزم جيوش الضّلال في كل مكان، وكذا حصل لتلك التي كان حالها أحسن ومقاومتها له أشد وأمتن. فإن إحكام الظروف المادية وإتقان الأمور العسكرية لا يقوم بها الفتح الإسلامي وحده ولكنه – قبلها – قام بمستلزمات العقيدة، فهي عامل النصر الفارق الذي يطبع الجيش الإسلامي ويميزُ سربه ويقود مدّه الدّافق الكريم : وقلة الجيش الإسلامي الفاتح كانت سمة مميزة له في الفتوحات الإسلامية وسنرى كيف أن مقاومة القوط للمسلمين كانت عنيفة وما بذله الفاتحون المسلمون وقدموه عُدَّ كبيراً. كان عدد المسلمين قليلاً وعُددهم أقل، ويحاربون في أرض جديدة ما خبروها لكن عوامل الفتح تكمن في النوعية الباهرة لهذا الجيش الفريد والصفات الإنسانية التي حلّته بها عقيدته الربانية الخالدة فهي موضوع الاختلاف وبها كان النصر لا بغيرها ، وهي وحدها التي تستطيع فعل ذلك وبهذا بدأ القوط ضعافاً أمام جيش المسلمين[1].

ويتضح مما مر بنا أن فتح الأندلس لم يكن مجرد مغامرة صادفها التوفيق فكان لها ما بعدها، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جرى فيه المسلمون على أسلوبهم في الفتوحات.

ب- العوامل المساعدة والممهدة للفتح :

هناك عدة عوامل مساعدة ساعدت المسلمين على فتح الأندلس أهمها :

1- استقرار أقدام المسلمين في إفريقية واعتناق البربر الإسلام وحماستهم لحمل دعوته وبذلهم أرواحهم بسخاء في سبيل ذلك ورغبتهم في أن يكون لهم من الجهود في سبيل دعوة الإسلام مثل ما للعرب المسلمين[2].

2- اليقظة والحذر – اللذان اتصف بهما المسلمون لمحاولة التعرف على حال البلاد عملياً بتوجيه بعض الحملات الخفيفة السريعة التي تُعرف بها طبيعة البلاد وحالة

---

(1) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص 34-35.

(2) محمد زيتون : المسلمون في الغرب والأندلس، ص 156.

أهلها، مما أعطى المسلمين جسارة على مواجهة عدوهم[1].

3- تعريف الخلافة بخطة الفتح وإحاطتها علماً بمجريات الأمور لتكون على أهبة للمساعدة وإرسال المدد، وهذا يعطي حملة الفتح الصفة الشرعية من قبل الخلافة الساهرة على حماية المسلمين ودينهم الحنيف[2].

4- بذل المسلمين جهداً كبيراً لإنشاء دار صناعة للسفن (ترسانة بحرية) وتكوين أسطول بحري في الشمال الأفريقي ابتداءً من ولاية "حسّان بن النعمان" ومواصلة "موسى بن نصير" التوسع في تكوين الأسطول [3]. ففي هذا الخصوص يقول المقري: "فقد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة"[4].

5- المساعدات الكبيرة التي قدمها "الكونت يوليان" حاكم سبتة ورجاله للمسلمين، حيث أطلعوهم على عورات الأسبان ونقاط الضعف لديهم[5].

جـ- مقدمات الفتح :

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيريَّة (أسبانيا والبرتغال) أمراً طبيعياً، حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم، وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المدّ الإسلامي ما دامت فيه القدرة على الاستمرار. ولما وصل تيار الفتح إلى شمال إفريقية، كان المدُّ الإسلامي المكين يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة ومن هنا ما كان منتظراً من هذه القوة الجديدة — التي دفعت بالقائمين بها والعاملين فيها إلى الاستمرار — أن تقف عند شواطئ إفريقية الشمالية الغربية، فكان طبيعياً ومتوقعاً عبور هذا المدّ إلى أسبانيا، عبر المضيق (المجاز أو الزّقاق)[6].

---

(1) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس.

(2) المصدر نفسه، ص 156-157.

(3) المصدر نفسه، ص 157.

(4) المقري : نفح الطيب ، 214/2.

(5) محمد زيتون ، المصدر السابق ، ص157.

(6) عبدالرحمن الحجي : المصدر السابق، ص143.

بعــد أن أرســى "موسى بن نصير" ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم في الشمال الأفريقي كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس، وقد اتبع موسى خطـة سـليمة أكمل بها جهود من سبقه من الجند الدُّعاة – قادة وجيشاً – في ترسـيخ قــدم الإسلام في المغرب الكبير، وأدرك – وتلك سُنَّة مُتّبعة – أن تعميق الإســلام وإقراره يتطلب تثبيتهُ في النفوس، ليحافظ عليه ذاتياً، وكيما تحيط قلوب الـناس – لا القــوة الغشوم – هذا الدين الجديد[1]، وتلك أصالة فيه، وأسلوب واضــح ثابت تقيمه طبيعة هذا الدين ولا ترتضى غيره بديلاً. لذلك جهز "موسى بــن نُصــير" جيشاً من نوع جديد يحمل العلم والمعرفة الإسلامية لترسيخ وتفقيه وإفهــام المغاربة هذا الدِّين. مثل هذه الخطوة لها اعتبارها دوماً وهي متبعة في كل الظــروف، وأمكــن بهــذا لا أن يَرْسُخ الإسلام في قلوبهم فحسب – بل غدوا يتحمسون لنشره في الخارج[2] حتى كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الإيبيرية مــن المسلمين البربر، الذين تحمسوا لهذه العقيدة، حباً لها وتضحية من أجلها طمعاً في مغنم أو حِرصاً على جاه[3].

◈ فكرة فتح الأندلس :

إن فكرة فتح الجزيرة الإيبيريَّة هي فكرة إسلامية تماماً، بل يُروى بأنها فكرة قديمــة تمــتد إلى أيام الخليفة الراشد "عثمان بن عفان"[4]. (23-35هـــ/644-656م) فقــد كان القائد "عقبة بن نافع الفهري" (63هـــ/682م) يفكر في اجتياز المضــيق إلى أســبانيا لو استطاع[5] وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ أسبانيا الشرقية وبعض الجزر[6] (الجزائر الشرقية) القريبة منها، وهي مَيوْرقة (Menorce)

---

(1) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 42/1 كذلك عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص43.

(2) انظر المقري: نفح الطيب، 239/1. كذلك عبدالرحمن الحجي: التاريخ الإسلامي، ص43.

(3) عبدالرحمن الحجي : المصدر السابق، ص43-44.

(4) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ص 412. كذلك المقري: المصدر السابق 204/1، ابن كثير، البداية والنهاية، 152/7، عبدالرحمن الحجي : المصدر السابق، ص44.

(5) ابن عذاري: المصدر السابق، 26/1-27.

(6) عبدالرحمن الحجي: المصدر السابق، ص44.

– كـــبراها – ومنُورْقة (Ibeza)[1]. ويذكر "الذهبي"، أنه في سنة 89هـــ، 707م "جهز موسى بن نصير ولده عبدالله، فافتتح جزيرتي ميوّرْقة ومنورقة"[2].

د– مراحل الفتح العربي لأسبانية :

عمد "يوليان" إلى الاتصال "بموسى بن نصير" وعرض عليه مساعدته في فتح الأندلـــس وأفهمه بأن لديه عدداً من السفن – لم تكن تزيد على الأربع – يضعها تصـــرفه لعـــبور الجند وقد استوضحه "موسى" عن الدواعي التي دفعته إلى عرض مساعدته على المسلمين فأسرّها "يوليان" إليه، وقبلها "موسى" ظاهراً بينما التزم في الحقيقة غاية التحفظ خاصة وإنه لم يكن مطلق الحرية في تصرفاته وفي أمور مصيرية كهـــذه يمكـــن أن تعرّض قسماً كبيراً من الجيوش الإسلامية في المغرب للخطر في حال وجود مؤامرة أو خيانة في الأمر[3] حاول "يوليان" تشويق "موسى بن نصير" إلى فـــتح الأندلس، وتسهيل عملية الفتح فوصف له "حسن الأندلس وفضلها وما جمعـــت مـــن أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع، وكثرة الثمار وثرارة (كثرة) المياه وعذوبتها[4].

رحَّـــب "موســـى بن نصير" بما عرضه عليه يوليان [5] فقد كان يطمع في شـــرف الجهـــاد والفـــتح. وبرغم تلهفه على افتتاح الأندلس. لم يشأ أن يقحم المســـلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله، فلم يكن قد وثق بعد "بيوليان" ثم إنه كان لا يمكن أن يتصرف في هذا المشروع الخطير وحده دون أن يستأذن الخليفة أو يستشـــيره فـــيما هـــو مقبل عليه. فكتب من فوره إلى الخليفة الأموي "الوليد بن عبدالمـــلك" (86-96هـــ / 705-715م) بفتوحه المغرب، وضمَّن رسالته ما ذكـــره "يوليان" من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين، وتردد "الوليد" وخاف

---

(1) انظر المقري: المصدر السابق 169/1. كذلك عبدالرحمن الحجي: المصدر السابق، ص44.

(2) تاريخ الذهبي، 104/1، كذلك المقري: المصدر السابق، 279/1.

(3) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة)، ص 81.

(4) انظر المقري : المصدر السابق، 237/1. كذلك ابن عذاري البيان المغرب، 412-5.

(5) انظر ابن عبدالحكم : فتوح افريقية، ص90. كذلك ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عامر: تاريخ ا فتتاح الأندلس، حققه وقد له ووضع فهارسه إبراهيم الابياري — دار الكتاب اللبناني (بيروت، 1982) ص8.

عـــلى المســـلمين مغـــبة مخاطرة كهذه فى أراض مجهولة، يفصل لبنها وبين أراضي المســـلمين بحـــر الزقاق، ولكن "موسى" أقنع الخليفة "الوليد" بالأمر، فكتب إلى "موسى" يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها، وأمره بألاّ يُغررّ بالمسلمين في بحر شديد الأهوال[1].

عمل "موسى" بنصيحة الخليفة فأرسل في رمضان سنة 91هـــ/ يوليو 710م سَّـــرية استكشافية إلى جنوب اسبانيا مكونة من خمسمائة جندي منهم مائة فارس بقيـــادة "طـــريف بن مالك المعافري" الملقّب بأبي زُرعة، وهو مسلم من البربر[2]. وجـــاز هذا الجيش الزّقاق (المضيق) في رجب سنة 92هـــ/ إبريل 711م من سبتة بســـفن "يوليـــان" أو غيرها ولا شك أن "موسى" استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامي الذي أنتجته دار الصناعة بتونس[3]. وذكر ابن عذاري أن "يوليان" كان يحمل أصحاب طارق في مراكب التجارب التي تختلف إلى الأندلس، حتى لا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب محملة بالتجارب فحمل النَّاس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس[4].

نـــزل هذا الجيش الإسلامي في جزيرة صغيرة تسمى "بالوماس (Palomas) على مقربة من الموضع الذي ستقوم فيه بلدة ستحمل اسم طريف (جزيرة طريف) (Tarifa) مـــن ذلـــك الحـــين[5] وخفّت قوة من أنصار "يوليان" وأبناء "غيطشة" لعونهم، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الإيبيرية ومن ذلك الموضع قام "طريف" وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغانم كـــثيرة وسبْياً عديداً، وعاد "طريف" بمن معه، وبعث إلى "موسى" في "القيروان" بنصـــيبه من الغنيمة والسبي، فتشجّع "موسى" وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة

(1) انظر المقري : نفح الطيب، 237/1 ابن عذاري: البيان المغرب، 312. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين ، ص69.

(2) انظر المقري: المصدر السابق 160/1، 229، 230، 233، 253. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 5/2. وذكر صاحب أخبار مجموعة أن ذلك حدث في رمضان سنة 91هـــ=ص6.

(3) انظر البكري : المغرب، 421/1. كذلك السيد عبدالعزيز: المصدر السابق، ص72.

(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 812.

(5) ابن عذاري : المصدر السابق، 512. كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي، والأندلسي، ص565.

تقـــوم بالفتح الحقيقي[1]، وكان هدف هذه الحملة الصغيرة الممارسة العملية لمعرفة طـــبيعة البلاد ومحاولة استكشاف ومعرفة أحسن الأماكن التي يمكن إنزال الجيش الإســـلامي فيهـــا، ولذلك نجد الحملة الكبرى بعد ذلك – وهي حملة "طارق بن زياد" – لم تترل في مكان "طريف"، وإنما نزلت في مكان أنسب وأسلم من مكان "طـــريف" ، ومن هنا لا نرى "موسى بن نصير" يأخذ بكلام"يوليان" على فرض صـــحة مـــا يســـند إليه من أنه هو السبب في فتح "الأندلس" وإنما يطبق أسلوب المســـلمين العمـــلي في الاستكشـــاف بأنفسهم حتى يستطيعوا تقدير الأمور على حقيقتها[2].

◈ حملة طارق (*):

ندب "موسى" لفتح "الأندلس" رجلاً من خيرة جُنده هو "طارق بن زياد"، ولسنا نعلم شيئاً أكيداً عنه قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين في فتح "الأندلس"[3]، ولكن تؤكد العديد من المصادر التاريخية [4] التي بين أيدينا أنه بربري من "نفزه" ويبدو أن أباه "زياداً" قد أسلم أيام "عقبة بن نافع" وحسُن إسلامه، وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاة المسلمين، ويبدو أنه كان صغير السن حينما عهد إليه "موسى" بهذه المهمة الكبرى، لأننا لم نسمع به قبل ذلك في أي فتح من فتوح "موسى" على كثرتها وتواترها، ولو كان قديماً بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك. والغالب أنه كان من المغاربة المخلصين "لموسى" لأنه تخطى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند في أيامه ، وعهد إليه قيادة أخطر عمل حربي قَام به إلى الساعة، ويبدو أن "موسى" كان يثقُ فيه جيداً، لأنه أو كل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تعود به من المغانم، فأحب "موسى" أن يعهد فيها إلى رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها عند العرب والخلفاء[5].

---

(1) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص 67. كذلك إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص73.

(2) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص 158.

(*) ذكر ابن القوطية أن دخول طارق الأندلس في رمضان سنة اثنين وتسعين للهجرة= تاريخ افتتاح الأندلس، ص33.

(3) انظر حسين مؤنس : المصدر السابق، ص67.

(4) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 512.

(5) حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص 68.

كانت نقطة تجمع الجيش الإسلامي في الطريق الإسباني على جبل صخري عُرف فيما بعد باسم جبل طارق[1] "Gibraltar" كما عُرف به المضيق، وبكل اللّغات، وهذه مكافأة دنيوية طيبة على عمل طارق وتخليد لبطولته، زيادة على مكانته في نفوس المسلمين وغيرهم ممن يُقدرون هذه الصفات ويشيدون بها. ولقد سُمي هذا الجبل – بعد الفتح الإسلامي بأسماء أخرى، مثل: الصخرة وجبل الفتح[2] ولكن الشائع هو جبل طارق[3] وقد عُرف قبل ذلك "بجبل كالبي" "Mons Caale" وسُمي هو و"جبل أتيلا" المقابل له على الساحل الافريقي: "أعمدة هرقل" Colimnas de Hercules[4]، واجتهد "طارق في أن يُحصّن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتمي به المسلمون إذا حدث ما لم يكن متوقعاً[5].

وعن هذه الحملة يذكر "ابن حيان" أن "موسى بن نصير" قد جهّز "طارق "في سبعة آلاف من المسلمين، جُلهم من البربر في أربع سفن وحط بجبل "طارق" المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنين وتسعين، ولم تزل المراكب تعود حتى وافاه جميع أصحابه عنده بالجبل"[6].

سار الجيش الإسلامي منحدراً إلى جنوب إسبانيا في الجزيرة الخضراء Algeciras وهناك وقعت مناوشات في معركة أو أكثر مع قوات القوط انتصر فيها المسلمون[7].

ويذكر في هذا الخصوص المقري التلمساني أن "لذُريق" حاكم الأندلس قد سمع بالخبر "وكان يومئذٍ غازياً في جهة "البشكنس" فبادر في جموعه وهم نحو مائة

(1) انظر نفح الطيب، 1/145–146، 159–160. كذلك ابن عبد الحكم؛ فتوح الفريقية، ص 205.

(2) المقري، نفح الطيب، 1/160، 230.

(3) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص49.

(4) ابن بطوطة : رحلة بن بطوطة، ص 665. كذلك :

- Levi-Proven cal, Historis L'Es[angne Muslmane, 1/18.

(5) حسين مؤنس : فجر الإسلام، ص 69.

(6) انظر المقري : المصدر السابق، ص 231.

(7) ابن عذاري : : البيان المغرب ، 912.

ألف ذوي عدد وعُدّة، وكتب "طارق" إلى "موسى" بأنه قد زحف إليه "لذريق" بما لا طاقة له به، وكان عمل من السفن عدّة، فجهّز له فيها خمسة آلاف من المسلمين، فكملوا بمن تقدم اثنى عشر ألفاً، ومعهم "يوليان" صاحب سبتة في حشوده يدلّهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار، وأقبل نحوهم "لذريق" ومعه خيار العجم (الكفار)، وأملاكها وفرسانهم، وقلوبهم عليه، فتلاقوا فيما بينهم، وقالوا: إن هذا الخبيث (يقصدون بذلك لذريق) غلب على سلطاننا، وليس من بيت الملك، وإنما كان من أتباعنا، ولسنا نعلم من سيرته خبالاً واضطرابا، وهؤلاء القوم الذين طرقوا (أى طرقوا بلاد الأندلس) لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، وإنما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا، فهلمّ فلْنهزم ابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم، فلعلهم يكفوننا أمره، فإذا هم انصرفوا عنّا، أقعدنا في مُلكنا من يستحقه ، فأجمعوا على ذلك[1]، وقد اختلفت الروايات التاريخية في تحديد عدد جيش "لذريق" فجعلتها بعضها[2] مائة ألف بينما جعلها "ابن خلدون" أربعون ألفاً[3].

كان الجيش القوطي يفوق الجيش العربي مرات عديدة في العدد والعُدة، وربما في التنظيم والتدريب، وهو يحارب في بلد يعرفه ويعرف مخابئه وطبيعته، وهو قريب من مصدر الإمداد، لكن الجيش الإسلامي كان متفوقاً بالروح المعنوية، أو بالأحرى بقوة العقيدة الإسلامية وأهدافها السامية، لذلك كان الجيش العربي متماسكاً قوي البناء شديد الاندفاع، مستعداً للاستشهاد، يسترخص الحياة من أجل هذه العقيدة، تاركاً الدنيا وبهارجها الفانية، في حين كان الجيش القوطي يفتقد هذه العقيدة وهذه المعاني النبيلة التي كانت عاملاً مهماً من عوامل انتصار العرب على أعدائهم[4].

(1) نفح الطيب ، 232-233/1. كذلك ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص30.
(2) انظر المقري : نفح الطيب 231/1. كذلك حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص 72.
(3) العبر، 254/4.
(4) عبدالرحمن الحجي : تاريخ الأندلس، ص53.

◈ معركة وادي بكة[*] أو لكة :

يبدو أن نية "طارق" كانت السير مباشرة إلى "قرطبة" عاصمة "إقليم بيطى" (بيتس) لأنه سار بحذاء الساحل حتى أدرك جزيرة "طريف" ومن ثم اتجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع واقترب من "بحيرة الخندق" (لاخاندا): "Lago do Jande" واستمر حتى وصل "نهير البرباط" الذي يخترق بحيرة (لاخاندا) وكانت بهذا الموضع بُليدة صغيرة كان يسميها العرب "بكة" ولذها سموا هذا النهر وادي "بكة" أو "لكة"[1].

وفي وادي لكة على مقرُبة من "شذونة" — (وكان يطلق عليه نهر برباط) جرت معركة طاحنة بين المسلمين والأسبان بدأت في مناوشات، ثم اشتبك الطرفان في هذه المعركة التي استمرت ثمانية أيام من الثامن والعشرين من رمضان إلى الخامس من شوال سنة 92هـ / 710م[2].

وقد انتهت المعركة بهزيمة مدمرة للجيش الأسباني وفرار قائده "لُذريق" الذي اختفى، حيث يُقال إنه غرق أو قُتل[3]. وقد تحقق في المسلمين قوله تعالى ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[4]. وقد سُميت هذه المعْركة بأسماء كثيرة، فهي معركة "وادي لكة" أو "بكة" ومعركة شذونه" و"البحيرة"[5].

هذا وقد غنم المسلمون من هذه المعركة غنائم كبيرة من بينها خيولاً كثيرة حتى أنه لم يبق منهم راجل، وقد استشهد من المسلمين ثلاثة آلاف، فأسرع

(*) يسميها البعض "وادي البرباط" لميلهم إلى الاعتقاد بأن النهر الذي حدثت عنده المعركة آنذاك كان يسمى بهذا الاسم، كما يسميها البعض الآخر بمعركة "شذونة" نسبة إلى كورة "شذونه" التي يقع بها "وادي بكة".

(1) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص71.

(2) انظر المقري : نفح الطيب، 233/1، 259.

(3) ابن عذاري : البيان المغرب 8/2. كذلك أخبار مجموعة، ص9.

(4) سورة البقرة من الآية 249.

(5) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 812 . كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص160

"طارق" بمن بقي منهم إلى "قرطبة" حيث كانوا يتمتعون بروح عالية وحماس شديد نحو النصر[1].

◈ حرق طارق للسفن :

تذكر بعض الروايات[2] التاريخية أن طارقاً بعد أن نزل "الشاطئ الأسباني" أحرق سفنه كي يقطع على جنوده أي تفكير في التراجع أو الارتداد، ثم خطب فيهم خطبته المشهورة التي يقول في مطلعها : "أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضْيَعُ من الأيتام في مأدُبة اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدت بّكم الأيام على افتقادكم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت رِيُحكمُ، وتعوضت القلوب من رُعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنّي لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوه، ولأحملنَّكم على خطة أرخص فيها النفوس إلاّ وأنا أبدأ بنفسي"[3].

واعتمد بعض المؤرخين على خطبة "طارق" في قوله:

"أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم" ليؤكدوا بأن العرب قد أحرقوا سفنهم بعد نزولهم في "مضيق جبل طارق".

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، 8/2، كذلك حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص72.

(2) انظر عبدالملك بن الكردبوس: كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص46-47. كذلك الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق – القسم الخاص بوصف الأندلس (مدريد، 1799) ص36، محمد زيتون : المصدر السابق، ص162-163، الحميري: الروض المعطار، ص75، خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس الفتح وعصر الولاة، ص93-95، أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص270-174.

(3) انظر إلى كل من : أ- المقري : نفح الطيب، 240/1-241.

ب- ابن قتيبة : الإمامة والساسية، 117/2.

جـ- ابن خُلكان: وفيات الأعيان.

ويرى بعض المؤرخين أن طارقاً حديث عهد بالإسلام وهو بربري فأنّ له أن يتعلم العربية ويتكلمها بهذه الفصاحة.

وقد مال العديد من المؤرخين العرب والأجانب إلى عدم قبول هذه الحادثة، وإنكار إحراق "طارق" للسفن على أساس أنه ليس هناك ما يثبت ذلك، ونحن نميل أيضاً إلى نفي وقوع هذه الحادثة وذلك لأهمية تلك السفن، ولأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي تُمكن المسلمين من العبور من شاطئ إلى آخر[1].

فلو صَحَّ إحراق السفن فأيّة وسيلة كانت تبقى لدى "طارق" للاتصال بموسى بن نُصير" والقيادة المركزية بصورة عامة؟ فالمعلوم أن "شبه الجزيرة الإيبيرية" منفصلة تماماً عن "الساحل الإفريقي" ولا تتصل به إلا عن طريق البحر وبالتالي يكون إحراق السفن معناه قطع الاتصال التام بين "طارق" و"موسى" إلا في حالة بناء سفن جديدة، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً، ومن المعلوم أيضاً أن الاتصالات لم تنقطع بين الجيش الإسلامي الذي أنزل أرض الأندلس وقيادته في أفريقيا [2]. وبالإضافة إلى ذلك "فإن "طارقاً" بعد نزوله وجيش المسلمين في "أرض الأندلس" وتحركه نحو قلب البلاد، سمع بمسيرة الملك "لُذريق" إليه في جيش عظيم، فأرسل إلى "موسى بن نصير" يطلب منه المدد، فأمر له موسى بخمسة آلاف جندي آخرين، لابدّ أنهم حملوا على السفن نفسها حتى أصبح عدد الجيش الإسلامي المقاتل اثني عشر ألفاً [3].

ثم إن هناك أمراً آخر هاماً وهو عبور "موسى بن نصير" مع ما يقرب من ثمانية عشر ألف جندي من إفريقية إلى الأندلس بعد حوالي عام من عبور "طارق" على أثر تلقيه كُتب الفتح التي أرسل بها "طارق" إليه، فليس من المعقول أن يكون "موسى" قد عمل خلال عام واحد سفناً جديدة كافية لعبوره وجيشه الضخم، بل من المعقول أن يكون عبور "موسى" وجيشه في نفس السفن التي استعملها "طارق" وجيشه، بالإضافة إلى ما يمكن صنعه منها في ذلك العام[4]. وهناك أمر آخر يجب الإشارة إليه، وهو أن بعض الروايات تذكر أن هذه السفن لم تكن

---

(1) خالد الصوفي : المصدر السابق، ص 94. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس.

(2) خالد الصوفي : المصدر السابق ، ص94.

(3) المصدر نفسه، ص94. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص63.

(4) خالد الصوفي : المصدر السابق، ص94-95.

للمسلمين وإنما كانت "ليوليان" وبعض التجارب، فكيف يجوز "لطارق" أن يحرقها وهي ليست ملكاً للمسلمين وإذا أحرقها ألاّ يثير ذلك عليه "يوليان" الذي يقال إنه كان مساعداً له ، وكذلك يُثير عليه التجّار الذين يملكون بعض هذه السفن التي تعدُّ وسيلة ارتزاقهم؟[1].

وأخيراً فإننا لا نجد أحداً من المؤرخين القدامى "كالبلاذري"و"ابن خلدون" و"ابن عذاري" وغيرهم يشير إلى حرق السفن و لم يذكر تلك الحادثة — كما يقول أحمد العبادي — إلا نفر قليل[2].

وهكذا نرى أن المنطق يتطلب من "طارق" عدم إحراق السفن، ولا نعتقد إلا أنّ تصرفه كان كذلك.

◈ إتمام فتح الأندلس :

كان انتصار المسلمين على "القوط" في معركة وادي لكة قد ساعد المسلمين على تثبيت أقدامهم في أرض الأندلس، وعقب هذا الانتصار الباهر للمسلمين كتب "طارق" إلى "موسى بن نصير" يخبره بهذا الفتح، وما حصل عليه المسلمون من غنائم عظيمة.

لم يكد خبر هذا الانتصار يصل إفريقية حتى أقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشْر، فلحقوا بطارق ففاض سيل البربر على الأندلس، وأخذوا يستقرون في النواحي المفتوحة، وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعبُ معهُ تقديره بعد هذه المعركة، ورأى "طارق" أنه لن يستطيع السير بجنده الجحفل اللجّب دفعة واحدة فمال إلى تفريقهم في بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحي[3]. وأعقب هذا الانتصار اضطراب في شئون الأندلس،

(1) محمد زيتون : المصدر السابق ، ص164.
(2) وهم : ابن الكردبوس في كتاب الاكتفاء، ص46-47، الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق — القسم الخاص بوصف الأندلس، ص36، الحميري: الروض المعطار ، ص75.
(3) المقري: نفح الطيب، 259/1. كذلك حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص75.

"وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال [1]. ورأى حزب "غيطشه" أن الفرصة قد سنحت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم، وقد بذل "وقلة" (أخيلا) أحد القادة جهداً كبيراً لكي يستصدر من مجلس "طليطلة" قراراً باعتباره ملكاً، ولكنه لم يحصل على ذلك، لأن الشائعات كانت تملأ "الأندلس" بأن "لُذريق" لم يقتل، وقد عمل أبناء "غيطشة" على تشجيع "طارق" على الاستمرار في الفتح حتى يتم لهم الانتصار المحقق[2]. أما "يوليان" فقد ثبت بقواته في ناحية "الجزيرة الخضراء"[3].

1- فتح إستجَّه (ECIJA) :

استمر "طارق" في فتوحاته، حيث وجد أن الأبواب قد فُتحت أمامه، فمضى مسرعاً نحو "إستجَّه" لفتحها وكان معظم الجنود "الإسبان" الذين فرّوا من المعركة قد لجأوا إلى تلك المدينة وتحصنوا فيها مما اضطر "طارق" إلى طلب العون من "يوليان" الذي خَفَّ إليه مسرعاً ويبدو أنه بعد مجيء "يوليان" إلى "استجَّه" بجيشه رأى كثرة الجيش المتجمع فنصح "طارق بتفريق جنده في بعوث جانبية، فقال له: "قد فتحت الأندلس فخذ من أصحابي أدلاّء، ففرّق معهم جيوشك وسر أنت إلى مدينة "طليطلة"[4]. ففرّق جيوشه من "إستجَّه". وكانت تحيط بالمدينة أسوار منيعة تسمح لها بالدفاع عن نفسها فترة من الوقت، إلا أن المسلمين كانوا آنذاك في أوْج نشوة النّصر فاندفعوا نحو أسوارها، فاستطاعوا فتحها بعد قتال عنيف قُتل فيه معظم المدافعين عن المدينة، وهرب من استطاع الهروب إلى طليطلة[5].

وقد غنم المسلمون من فتح "إستجه" مغانم كثيرة، وأهم ما وقع بين أيديهم عدد كبير من الخيولَ استعملوها في ركوبهم، حتى أنه لم يبق بينهم راجل تقريباً[6].

---

(1) المقري : المصدر السابق، 259/1.
(2) حسين مؤنس : المصدر السابق، ص75-76.
(3) ابن عذاري : البيان المغرب ، 91، 10.
(4) ابن عذاري : البيان المغرب، 9/2.
(5) المصدر نفسه، 8/2-9.
(6) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس — الفتح وعصره الولاة — ص114.

2- فتح قرطبة (Cordoba) :

وزّع "طـــارق" جيشه لفتح مختلف أنحاء البلاد "الأندلسية"، فوجه "مغيثاً" موْلَـــى "عبدالمـــلك بـــن مـــروان" - عـــلى رأس ســـبعمائة فارس إلى "قرطبة" (Cordoba)[1] واســـتطاع فـــتح المدينة دون مشقة كبيرة بفضل شجاعة وصدق المحـــاربين المســـلمين [2] وأرسل جيشاً آخر إلى مدينة مالقة (Malaga) ففتحوها، وآخـــر إلى كـــورة إلْبيرة (Elvira) حيث افتتح مدينتها "غرناطة"، ومضى الجيش الإســـلامي إلى تُدْمـــير (Tudmir) ففتحوها وكانت قاعدهّا أوُريولة (Orihuela) وسميت "تُدمير" نسبة إلى حاكمها، ثم أطلق على "تُدمير" اسم "مرسية" وقد التقى حاكمهـــا بجيشـــه مع المسلمين في قتال شديد هُزم فيه "تُدمير" وفني معظم جيشه فـــلجأ إلى الحيلة حيث أوهم المسلمين بكثرة جنده في المدينة، وهم في الحقيقة من النِّســـاء، وبذلـــك تمكن من عقد صلح مع المسلمين حفظ به المدينة من السبي[3] فتحت صلحاً".

3- فتح طُليطلة (Toledo) :

ســـار "طارق" إلى عاصمة "القوط" "طليطلة" (Toledo)، ماراً بمدينة جيَّان (Jaen) ففتح "طليطلة"، ووجدها خالية من الجنود، حيث فَرَّ حاكمها بجنوده، ولم يبق فيها إلا قلّة من الأهالي الذين كان معظمهم من "اليهود"، وقد عامل "طارق" أهـــلها معاملة حسنة، تاركاً لهم حرياهّم كاملة، وقرر "طارق" أن يترك حامية بها ويسير عنها إلى مدينة خلف الجبل كانت تسمى مدينة "المائدة"، حيث تحصَّن فيها حـــاكم مديـــنة "طليطـــلة" وجـــنده، فسلك "طارق" طريقاً يمر بوادي الحجارة Guadalajara، ثم اســـتقبل الجـــبل، فاجـــتازه من فَجٍّ (ممر) سُمي فيما بعد "بفج طـــارق" حتى بلغ مدينة "المائدة" فافتتحها، وعثر فيها "طارق" على مائدة عظيمة رائعـــة سمَّاهـــا المؤرخـــون العرب "مائدة سيدنا سليمان" - عليه السلام، وذلك

---

(1) انظر المقري : نفح الطيب، 260/1 - 261 . كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 289-10

(2) انظر المقري : نفح الطيب، 1261. كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 10/2.

(3) انظر المقري: نفح الطيب، 264/1. كذلك ابن عذاري : البيان المغرب، 11/2، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص64.

لفخامتها ولما تحتويه من أحجار كريمة[1]. وبعد أن فتح "طارق" مدينة "طليطلة"، تابع طريقه شمالاً حسب بعض الروايات التاريخية، بينما تؤكد روايات أخرى بأن "طارقاً" اكتفى آنذاك بذلك القدر من الفتوحات، ثم عاد إلى "طليطلة" قبل حلول فصل الشتاء على ما يبدو [2]. ويستبعد أن يكون "طارق" قد سّار إلى "أمايا" (Amaya) و"اشترقة" (Astirga) في ذلك الحين كما يزعم بعض المؤرخين[3]، لأن الشتاء كان قد اقترب، وكان الإجهاد قد نال من المسلمين وثقلوا بالغنائم، والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير[4].

ونستخلص من خلال ما مّر بنا أن خطّ سير حملة "طارق" منذ جوازه إلى "الأندلس" (5 رجب 82هـ) حتى لقائه "بموسى بن نصير" (أواخر 94هـ)، كالآتي:

سَبْتَة (عَبْر الزُّقاق) "جبل طارق"، الجزيرة الخضراء، وادي (نهر) برباط (لكة) (المعركة في رمضان – شوال 92هـ)، مدينة شَذُونَة، مَوْرُور، قَرمُونَة، إشبيلية، إستِجَّة [منها بعث سرايا إلى : (1) قرطبة، (2) مَالقة، (3) غرناطة – قصبة أو عاصمة – عاصمة كوُرة إلبير – (4) كورة تُدَّمير وقصبتها أُورْيُولة]، جَيَّان، طُلَيْطلُة" منطقة وادي الحجارة، ثم العودة إلى "طليطلة [5]. ويبدو أن عودة "طارق" إلى "طليطلة" كانت في أوائل سنة 93هـ/ أواخر 711م، أو خلافها، وقد استغرقت عمليات الفتح التي قام بها "طارق"قبل عبور "موسى" إلى الأندلس مدة حوالي سنة[6].

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، 12/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 264/1-265.

(2)ابن عذاري: المصدر السابق، 12/2 . كذلك حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص79.

(3) انظر ابن حيان عن المقري : نفح الطيب، 167/1. كذلك حسين مؤنس : المصدر السابق، ص79.

(4) حسين مؤنس : المصدر السابق، ص80.

(5) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص66.

(6) انظر المقري : نفح الطيب، 265/1.

◈ مصير أولاد غيطشة بعد الفتح :

بعد أن فتح المسلمون عاصمة "الأندلس" وكسروا قوّات "لُذريق" وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره في العودة إلى الحكم، تقدم أبناء "غيطشة" إلى "طارق" يطلبون منه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء، ويبدو أنهم يؤمُلون أن ينسحب "طارق" وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة، فيعود آل "غيطشة" إلى ما كانوا فيه من المُلك والسُلطان، فلما خيب "طارق" رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت المستقر ونشر الدين الإسلامي سُقط فى أيديهم، ووجدوا أنه لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إيّاه، ووجد "طارق" أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم[1]، وهي كثيرة فأمضاها لهم، ويبدو أنهم استقلوها وطمعوا في المزيد، ولم يستطع "طارق" إجابتهم إلى ما سألوه فاستأذنوه في المسير إلى "موسى بن نصير" في "إفريقية"، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه، وما أعطاهم من عهد ففعل، فلما بلغوا "موسى" أقر "طارقاً" على ما فعل، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين، ويبدو أنهم ألحّوا على "موسى" في الزيادة لأنه أحالهم على الخليفة نفسه، فأقر الأخير عهد "موسى" و"طارق"[2] وليس لدينا ما يؤيد ذهابهم إلى "دمشق" ولكن يمكن القول إن "موسى ابن نصير" بعث إلى الخليفة الأموي "الوليد بن عبدالملك" بالمسألة كلها، فلم يفعل أكثر من أن أقرَّ عهد أميرية (طارق وموسى) وعاد الأمراء آخر الأمر إلى "الأندلس" قانعين بما أصابوا، ولم يكن شيئاً قليلاً، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة — هي بعض ما كان لأبيهم الملك "غيطشة" فأصاب كل منهم ألفاً وبهذا كان الفتح الإسلامي خيراً عظيماً عليهم وعلى بيتهم المهضوم [3].

---

(1) ذكر ابن القوطية أنها ثلاث آلاف ضيعة = تاريخ افتتاح الأندلس ، ص30.

(2) انظر المقري: نفح الطيب، 1/265-266. كذلك ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص30

(3) انظر المقري : المصدر السابق، 1/265. كذلك ابن القوطية : المصدر السابق، ص30.

◈ عبور موسى بن نصير إلى الأندلس :

هو "أبو عبدالرحمن موسى بن نصير"[1]. (19-97هـ/ 640-715م) تولى عدة مهام منها ولاية الشمال الأفريقي، كان من التابعين، وكان عاملاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً[2]. وكان من رجال العِلْم حزماً ورأياً ونُبلاً وشجاعة وإقداماً[3].

تولى ولاية إفريقية سنة 86هـ (705م)، وأتم جهود من سبقه في خدمة الإسلام من ولاته وشارك في فتح الأندلس بجهاده وقيادته، وحين وجّه "طارقاً" لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث، منذ بدايتها، ويهيئ المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير، بهمة المؤمن وإخلاص التقي، ويدعو الله أن يُنْزِل نصره على المسلمين[4].

كان "طارق بن زياد" على صلة بقائده "موسى بن نصير"، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه. وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة "وادي لَكُة" وكان "موسى" على علم تام بأحوال الفتوح في الأندلس. وبعد سنة تقريباً – من عبور "طارق" إلى الأندلس" وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت – خاف "طارق" أن يُغلب وأن يستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى "موسى" يستنجده، ففي هذا الخصوص، يقول "ابن قتيبة": "وكتب طارق إلى مولاه موسى" إنَّ الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث[5].

---

(1) انظر ترجمته في كل من : الحميدي : جذوة المقتبس، ص338، ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، 2/ 146، الضبي: بغية الملتمس ، ص457، ابن عذاري: البيان المغرب، 1/39-41، المقري: المصدر السابق/ 286/1.

(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان، 5/318-319.

(3) الذهبي : العبر في خبر من غبر ، 1/116.

(4) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص67.

(5) الإمامة والسياسة، 2/118.

وسبب الاستغاثة أن طارقاً وزّع جيشه الذي استشهد نصفه أو أقل بقليل، بعد المعارك العديدة خلال عمليات الفتح وتوسع مهامه وبهذه السرعة التي تدعه في خطر من ثغرات خلفيه. فوجد "موسى" أن من المناسب أن يلحق على رأس جيش يقوده بنفسه[1].

لقد قرر "موسى بن نصير" اللّحاق بطارق بن زياد على رأس جيش ضخم يتكون من حوالي ثمانية عشر ألفاً وعبر المضيق إلى أسبانيا في رمضان سنة 93هـ/712م. ولكن ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعت "بموسى بن نصير" للّحاق بطارق؟.

يختلف المؤرخون في ذكر الأسباب التي دفعت "موسى بن نصير" إلى عبور مضيق جبل طارق واللّحاق "بطارق بين زياد" بأرض "الأندلس" ولعل أهم هذه الأسباب هي:

1- خشية "موسى" من أن يتقدم المسلمون في تلك البلاد مسافات طويلة جداً فتمتدّ خطوط قتالهم ويسهل على العدو مهاجمتهم دون أن يتمكنوا من اتخاذ وسائل الدفاع المناسب عن أنفسهم فتضيع ثمرات انتصار المسلمين وفتوحاتهم الأولى.

2- لقد رأى "موسى" أن عدد الجيش الإسلامي الذي تحت إمرة "طارق" لم يكن كافياً لافتتاح بلاد الأندلس الواسعة، وخاصة بعد أن سمع أن "طارقاً" قد سار إلى الأمام دون توقف، فرأى أنهُ من الأفضل أن يسير هو بنفسه على رأس جيش كبير، ليضمن بذلك النصر الأكيد.

3- خوفه من أن يستقل "طارق" بتلك البلاد التي افتتحها ويخلع فيما بعد طاعته وطاعة الخليفة الوليد.

4- اطلاعه على أخبار الانتصارات العظيمة التي نالها "طارق" في "الأندلس" والثروات الكبيرة التي غنمها. فرغب في أن يكون له نصيب في تلك

(1) عبدالرحمن الحي : المصدر السابق، ص68.

الانتصارات والفتوحات والغنائم[1] والدليل على ذلك أنه سرّه أن يسير به الأدلاّء إلى مدن أغنى من مدن "طارق" وأكثر منها مالاً، ففي هذا الصدد يقول ابن حيّان "... فلما احتل الجزيرة الخضراء [أي موسى] قال: ما كنت لأسلك طريق "طارق"، ولا أثره فقال له العلوج[2] الأدلاء أصحاب "يوليان" نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه، وندلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خطباً وأوسع غُنْماً من مدائنه، لم تُفْتح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى فمُليء سروراً"[3].

هذه هي أهم الأسباب التي دفعت "بموسى بن نصير" للّحاق "بطارق بن زياد" في الأندلس.

أما ما يذكره بعض المؤرخين[4] من أن "موسى بن نصير" لم يكد يسمع بأخبار انتصارات مولاه "طارق" حتى أكل قلبه الحسد، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه وليفتح فتوحاً أعظم من فتوحه، فإننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس، ثم إن "طارقاً" كان بطبعه رجلاً متواضعاً قنوعاً، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاه وأميره "موسى بن نصير"، وكان يطلعه على الأخبار أولاً بأول[5].

المهم أن "موسى بن نصير" قرر التوجه إلى الأندلس فعلاً، فاستخلف على القيروان" ولده "عبدالله ثم غادرها[6] يرافقه "حبيب بن منَدة الفهري"[7] فعبر

---

(1) انظر خالد الصوفي : تاريخ العرب (الفتح وعصر الولاة)، ص126. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص91-92.

(2) العُلوُج : جمع علِج، وهو الرجل القوي الضخم من الكفار = لسان العرب، 326/2.

(3) انظر المقري : نفح الطيب، 269/1. كذلك أخبار مجموعة ، ص15.

(4) انظر ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص35.

(5) انظر حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص84.

(6) يحدد الرازي تاريخ خروجه من افريقية إلى الأندلس في رجب من سنة 93هـ (712م) = المقري: نفح الطيب ، 259/1.

(7) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس و(الفتح وعصر الولاة)، ص 127.

الزقاق في رمضان سنة 93هـ[1] (712م) على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف من خيرة جنده، جُلهم من العرب وفيهم عدد عظيم من القيسية واليمنية ومعهم أتباعهم ومواليهم، وكان فيهم كذلك عدد غير قليل من التابعين[2] وكبار العرب جعلهم "موسى" في فرقة واحدة عليها "محمد بن أوس"[3] ونزل في جبل الفتح، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام بها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة[4].

ولم تصل جيوش "موسى" إلى "الأندلس" دفعة واحدة بل كان قد قسَّمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم، وكان لكل جماعة راية ، حيث بلغت عشرين راية، وقد ابتني في ذلك المكان مسجداً عُرف هو والمكان بمسجد الرايات، وقد ظلا عامريْن قروناً طويلة [5].

◈ فتح موسى لشذونة وقرمونة واشبيلية وماردة :

تفاوض الجميع في الرأي، وكيف يكون الدخول، فأجمعوا على السير إلى "أشبيلية". وغزو ما بقي من غرب الأندلس. فزحف موسى بجيشه على مدينة "شذونة" (Medinasidonia) فافتتحها عنوة ، ومضى بعد ذلك إلى قلعة "رعواق" (Alcalu de Guadaira) أو قلعة "حامو" فافتتحها ، ثم سار إلى "قرمونة"، وكانت غاية في المناعة والحصانة[6].

وقيل "لموسى" إنها لا تؤخذ إلا باللّطف والحيلة، ففكر في خدعة يخدع بها أهل "قرمونة"، وأرسل إليها جنداً من أتباع "يوليان" على هيئة المنهزمين، ومعهم

---

(1) يحدد الرازي تاريخ خروجه من افريقية إلى الأندلس في رجب من نفس السنة = المقري: نفح الطيب/ 1/ 259.

(2) كان من بين الذين دخلوا الأندلس مع موسى واحد من أصاغر الصحابة هو المُنذر الإفريقي، وأربعة من التابعين، هم على بن رباح اللخمي، وأبو عبدالرحمن عبدالله بن زياد الأنصاري الجبلي، وحنش بن عبدالله بن عمر بن حنطلة السباي الصنعاني وحيوة بن رجاء التميمي = انظر أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية، ص192، 198.

(3) انظر الضبي : بغية الملتمس ، ص 51. كذلك حسين مؤنس : فجر الأندلس ص91.

(4) انظر السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين، ص94.

(5) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص91. كذلك أخبار فتح الأندلس من الرسالة الشريفة، ص198.

(6) انظر أخبار مجموعة ، ص16. كذلك ابن عذاري : البيان المغرب ، 2/19.

السلاح، ففتح لهم أهل "قرمونة" أبواب مدينتهم، فلما دخلوها، بعث إليهم "موسى" الخيل ليلاً ففتحوا باب المدينة المعروف بباب قرطبة، ووثبوا على الحراس فقتلوهم، وبذلك دخل موسى وجنده "قرمونة"[1].

وقد تمّ بفتح "قرمونة" إقامة خط عسكري متين يمتدّ من "الجزيرة الخضراء" إلى "شذونة"، إلى قرمونة" إلى "استجه" إلى "قرطبة" مدعّماً بذلك مركز الجيوش العربية وعمليات الفتح[2].

سار "موسى" بعد ذلك إلى "اشبيلية"، وكانت أعظم مدائن "الأندلس" شأناً وخطباً، وأعجبها بنياناً وآثاراً وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على "الأندلس"، فلما غلب القوطيون حوّلوا العاصمة إلى "طليطلة"، وبقي شرف الرومان ودينهم ورئاستهم في دنياهم "باشبيلية" فحاصرها "موسى" حصاراً شديداً، ولكنها امتنعت عليه أشهرا، ثم افتتحها، وهرب منها رجال حاميتها إلى مدينة "باجة" Beja فضم "موسى" يهودها إلى قصبة المدينة وخلف بها رجالاً، ومضى من "اشبيلية" إلى مدينة "ماردة" (Merida) ماراً ببلدة "لقنت"، فلما وصل "ماردة" وجدها أحصن وأقوى مما كان يتصور، فقد تجمع فيها أنصار "لذريق" والهاربون من فلول القوط، وذلك لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك، فحاصرها "موسى"، ولكن أهلها خرجوا لقتال المسلمين فصدمهم "موسى" برجاله صدمة عنيفة ارتدوا بعدها إلى مدينتهم وتحصنوا بداخل أسوارها ، فنصب لهم كميناً في نقب لأحد مقاطع الصخور ، وأكمن فيه أثناء الليل عدداً كبيراً من فرسانه، فلما أصبح، زحف إليهم فخرجوا إليه كخروجهم في اليوم السابق وهنا اندفع فرسان المسلمين الذين كانوا بالكمين، فانقضوا عليهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً، وتقهقرت جموع أهل "ماردة" إلى المدينة، وأغلقوا أبوابها، فضرب "موسى" عليهم الحصار عدة أشهر دون جدوى ثم صنع المسلمون دبابة دّبوا تحتها إلى برج من

(1) انظر أخبار مجموعة ، ص16. كذلك ابن عذاري، المصدر السابق، 14/2، المقري: نفح الطيب، 269/1 -270.

(2) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 14/2. كذلك المقري: المصدر السابق، 269/1، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص95.

أبراجها أخذوا ينقبونه وبينما هم كذلك خرج العدو عليهم على غفلة، فاستشهد المسلمون الذين تحت الدبابة فسمى ذلك البرج "ببرج الشهداء". استمر "موسى" محاصراً "لماردة" حتى مستهل شوال سنة 94هـ فدخلها صلحاً وصالح أهلها على أن تكون أموال جميع قتلى النصارى يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى "جليقية" وأموال الكنائس وحليها ملكاً للمسلمين[1].

◈ ثورة اشبيلية (Sevilla) وافتتاحها ثانية :

لما انشغل "موسى بن نصير" بحصار "ماردة" انتهز نصارى "اشبيلية" الفرصة، فاتصلوا برفاقهم في مدينة "لبلة" المجاورة لهم وتمّ الاتفاق بينهم على الوثوب على "اشبيلية" وانتزاعها من يد العرب. وقد تمكن هؤلاء بالفعل من تنفيذ خطتهم فتمكنوا من دخولها وقتلوا ثمانين من حاميتها وبلغ الخبر بذلك إلى "موسى ابن نصير"، ولما اتم فتح "ماردة" وجه ابنه "عبدالعزيز" على رأس جيش إلى "اشبيلية" فعاد افتتاحها من جديد، وأراد بعد ذلك أن يعاقب أهل "لبلة" على فعلتهم فسار إليها وحصارها وتمكن من فتحها عنوة، كما فتح "باجة" و"أوكسونبة" (Ocsonoba)[2]. وقد استقامت له الأمور هناك، وستصبح هذه المدينة حاضرة الأندلس في ولايته[3] (أي ولاية عبدالعزيز).

◈ فتح ريّة (مالقة) :

لا نملك الكثير من التفاصيل عن الجيش الذي سار لفتح "ريّة" وكل ما نعلمه أن دليلاً من رجال "يوليان" قد رافق القائد المسلم إليها، وأن المسلمين افتتحوا في تلك الأنحاء مدينة "مالقة" وغيرها من القرى التابعة "لرّية"، ثم أتّموا الاستيلاء على جميع أنحاء تلك المقاطعة وفرَّ معظم المدافعين عنها إلى الجبال المرتفعة المنيعة ليلجأوا إليها ويجدّدوا مقاومتهم للمسلمين فيما بعد إذا استطاعوا[4].

---

(1) انظر أخبار مجموعة ، ص17 وما يليها . كذلك ابن عذاري : البيان المغرب، 2/14-15، المقري: نفح الطيب، 1/270-271، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين ، ص95-96.

(2) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 2/15. كذلك المقري: المصدر السابق، 1/270-271.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، ص97.

(4) خالد الصوفي: تاريخ العرب (الفتح وعصر الولاة)، ص135.

◈ فتح تُدْمير "مُرْسية" :

تُدميراً سم حاكمها لدى الفتح (Tudmir) فسميت باسمه [1]، وحلّت مكانها فيما بعد كورة مُرْسية وقاعدها مدينة "مُرْسية" (Murcia)، وقد تم فتحها صلحاً على يد "عبدالعزيز بن موسى بن نصير"، وقد أعطى الأمان لأهلها ولحاكمها "تُدْمير"[2]، وقد تم فتحها في رجب سنة 94هـ/ نيسان (أبريل) 713م.

هذا وقد كان خط سير حملة "موسى بن نصير" منذ عبوره إلى الأندلس في رمضان 93هـ/ 711م، حتى لقائه بطارق بن زياد في ذي القعدة 94هـ/712م على النحو التالي :

سبتة (عَبْرَ مضيق جبل طارق)، الجزيرة الخضراء، مدينة شذونة، قرمونة، اشبيلية، لَقَنْت، ماردة (أرسل ابنه عبدالعزيز في جيش فتح : لَبْلة وباجة واشبيلية وإلبيرة ومالقة وقرطاجنة وأريولة وربما غيرها) وطلبيرة ثم لقاءه بطارق في طليطلة[3].

◈ لقاء موسى وطارق :

ترك "موسى بن نصير" في "تُدْمير" جزءاً من جيشه للمحافظة على المدينة، وسار بمعظم جيشه المتبقى إلى "طليطلة" وذلك للقاء "طارق" هناك[4].

وفي بداية ذي القعدة سنة 94هـ/ 713م ابتدأ "موسى" السير نحو "طليطلة"، وقد كتب إلى "طارق بن زياد" بالتوجه إليه في مجموعة من جيشه. عسكر "موسى" في مكان يستعرض فيه الجيش عرف بـ (وادي المعرض) (Almaraz)، ثم جاءه "طارق"، وذكر البعض أن لقاءهما قد تم عند "طليطلة"[5] أو

---

(1) انظر الروض المعطار، ص151. كذلك المقري : المصدر السابق، 264/1.
(2) المقري : المصدر السابق ، 263/2-264.
(3) انظر عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص82، 83.
(4) خالد الصوفي: المصدر السابق، ص137).
(5) ابن عذاري : البيان المغرب، 16/2.

"قرطبة"[1] والراجح أنه كان خارج مدينة "طلبيرة" [2] (Talacera de Reina) التي تبعد 150 كم غرب "طليطلة"[3].

وصل "موسى" و"طارق" إلى "طليطلة" (ذو القعدة — ذو الحجة : أواخر سنة 94هـ/ خريف 713م). وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء — أو جلّه — في "طليطلة"، يرتبون أحوالها وينظمون شئونها ، ويستريحون ويتهيأون ويخططون لفتح شمال شبه "الجزيرة الإيبيرية" وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس، ودعوا الناس إلى الإسلام وحثوهم عليه[4].

ثم بعث "موسى بن نصير" برسولين إلى الخليفة "الوليد بن عبدالملك" يخبره بأخبار الفتح، ووقع اختياره على التابعي "علي بن رباح"[5]، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره، و"مغيث الرومي" فاتح "قرطبة"، ويبدو أن "مغيثاً" كان حانقاً علي "موسى" لشيء في نفسه، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه فعلاً بيان ما قام به هو و"طارق بن زياد"، لهذا فلم يأل جهداً في تشويه سمعة "موسى" والإنقاص منه، فكان لعمله هذا أسوأ الأثر على مصير "موسى فيما بعد"[6].

◈ الجهاد في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية (ما وراء البُرْت) :

عند انتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع تهيأ الجيش الإسلامي لترك "طليطلة" واتجه نحو الشمال، وذلك حوالي جمادى الثانية سنة 95هـ/ 714م وقد سار الجيش الإسلامي سوية — أو يتقدمه — "طارق"[7] نحو الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية، إلى المنطقة التي عُرفت بالثغر الأعلى. فافتتح "سَرَقسطة"

(1) المصدر نفسه، 16/2 (نقلاً عن الطبري).
(2) المصدر نفسه، 16/2 (نقلاً عن الرازي). كذلك المقري: نفح الطيب 271/1 (نقلاً عن ابن حيان).
(3) عبدالرحمن الحجي : المصدر السابق، ص83.
(4) انظر حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص100-101. كذلك عبدالرحمن الحجي: المصدر السابق، ص85.
(5) انظر ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ص126.
(6) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص 101.
(7) المقري : نفح الطيب، 273/1.

(Zaragoza) دون قتال شديد على ما يبدو، وأقاموا هناك سوية مدة ينظمون أحوالها وأنشأوا فيها مسجداً[1].

وفتحت مناطق حول "سرقسطة" أو تابعة لها ومدن أخرى في تلك الناحية، وهي: "وشقة" (Huesca) و"لاردة" (Lerida) و"تراغونة" (trragona) و"برشلونة" (Barcelona)[2]، وصارت المدن الرئيسية في الشمال في أيديهم، ثم وجه "موسى" "طارقا" إلى "جليقية" وسار هو إلى "البرنية" فغزا "سبتمانيا" التي كانت تابعة للقوط واستولى على "قَرْقشُونة" و"أُربُونة" وحصن "لُوذون" على "وادي رُدونة" (وهو نهر الرون)، وقد انزعج لذلك ملك الأرض الكبيرة (فرنسا) وخرج إلى المسلمين في جموع كثيرة لم تتمكن من أن تنال من المسلمين شيئاً واضطر ملك الفرنج إلى العودة إلى بلاده بعد أن أقام حصوناً على "وادي ردونة" ملأها بالمقاتلين وصيرها ثغراً بين بلده والمسلمين[3]. ورأى "موسى" أن من الممكن أن يواصل الفتح في جنوب أوربا حتى يصل إلى مقر الخلافة فاتحاً "القسطنطينية" ولكن الخليفة لم يوافقه على ذلك. عند ذلك رأى "موسى" أن يوجه الجهد إلى إخضاع الأقسام الجبلية من الأندلس حيث كان المسيحيون يعتصمون بها في دفاع يائس ضد المسلمين.

وقد تمكن الجيش الإسلامي من دخول "جليقية" والاستيلاء على معظم قلاعها وطاردوا العدو الذي فرَّ إلى "جبال اوسترياس" واعتصم بها ، فحاول "موسى" محاصرة العدو وإرغامه على الاستسلام جماعة بعد جماعة حتى لم يبق سوى زعيم يدعى "بلاي أو "بلايو" وقليل من أنصاره[4].

وبينما كان "موسى" يشدد عليه الحصار حتى كاد أن يلقي سلاحه إذا بالخليفة "الوليد" يرسل إليه "أبا نصر"[5]. متعجلاً إيّاه في العودة إلى دار الخلافة بعد

---

(1) المصدر نفسه، 1/277-278. كذلك عبدالرحمن الحجي: المصدر الأندلسي، ص91.
(2) حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص103.
(3) المقّري: نفح الطيب، 1/274. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب، ص168.
(4) محمد زيتون : المصدر السابق، ص168.
(5) ذكر خالد الصوفي أن "أبي نصر" ربما كان لقباً لمغيث نفسه، قدّر بعض المؤرخين خطأً أنه شخص آخر فذكروا ما ذكروه عن وجود رسولين مختلفين قدماً من قبل الخليفة – تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة) ص149.

أن استبطأ رجوعه إثر وصول رسوله الأول "مغيث الرومي". فعاد "موسى" تاركاً ذلك الزعيم ومن معه معتصماً بالجبال واستهان بهم المسلمون بعدهم في الأندلس، فإذا بهم ينمون حتى كونوا المملكة النصرانية في الشمال التي قدّر لها أن تتمكن بعدد ثمانية قرون من طرد المسلمين من الأندلس[1].

وقبل أن يعود "موسى" إلى الشرق نظم شئون الحكم بهذه البلاد الشاسعة، فعين ابنه "عبدالعزيز" على إمارة الأندلس، وجعل مقره "أشبيلية"، وعين ابنه الثاني"عبدالله" على اقريقية، وابنه الثالث "عبدالملك" حاكماً على المغرب الأقصى، وعهد "لصالح بقيادة الأسطول وحماية السواحل وجعل مقره "طنجة"[2].

هـ ـ استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد :

1ـ عودة موسى بن نصير إلى المشرق :

بعد أن اطمأن "موسى" إلى ما اتخذه من تدابير لإدارة شئون الأندلس، توجه إلى المشرق في شهر ذي الحجة سنة 95 هـ (منتصف صيف 714م)، وكان "مغيث" قد خفَّ للقائة، فالتقيا بنواحي "ليون"، وهناك أدركهما "طارق" عائداً من "اشترقة"، وساروا جميعاً فاخترقوا "فج موسى" (Valmuza) في طريقهم إلى "طليطلة". ولم يقم "موسى" في "طليطلة" شيئاً وإنما مضى مجداً حتى دخل "قرطبة" ولقي فيها نفراً من كبار جنده، ثم مضى إلى "أشبيلية" وفيها استخلف ابنه "عبدالعزيز" بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس[3]، ثم عبر المضيق إلى أفريقية ومعه "طارق" و"مغيث" وكبار الجند، وكان معهم "يوليان". وتذهب المراجع إلى أنه حمل معه من الغنائم والسبي والجواهر والذخائر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر ثمنه[4].

---

(1) اين عذاري : البيان المغرب ، 16/2، 17، كذلك المقري: نفح الطيب، 255/1-259 محمد زيتون : المصدر السابق، ص168-169.

(2) محمد زيتون : المصدر السابق، ص169.

(3) انظر أخبار مجموعة ، ص19، وكذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 30/2.

(4) انظر المقري ، المصدر السابق، 277/1. كذلك ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، 185/2، حسين مؤنس : فجر الإسلام، ص106-107، محمد زيتون : المصدر السابق، ص169.

واستخلف "موسى" ابنه الأكبر "عبدالله علي افريقية، وابنه "مروان" على "طنجة" و"بلاد السوس"، ثم مضى إلى دمشق ماراً بمصر، ومعه مائة رجل من أشراف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب ومواليها، منهم "عياض بن عقبة، و"أبو عبيدة وعبدالجبار بن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف"، و"المغيرة ابن أبي بردة"، و"ذرعة ابن أبي مدرك"، و"سليمان بن بحر"، كما خرج معه من البربر مائة رجل، منهم أبناء "كسيلة"، وملك السوس الأقصى ، وملك قلعة أوساف وملك ميورقة ومنورقة[1].

وصل مصر في السابع من ديسمبر 715م (96هـ) وبلغ دمشق في السادس عشر من يناير سنة 716م (96هـ) أي قبل وفاة "الوليد" بأربعين يوماً. وكان "سليمان بن عبد الملك" قد أحسّ باقتراب منية أخيه فكتب إلى "موسى" يأمره بأن يتريث حتى يصل بعد موت "الوليد بن عبدالملك"، فتؤول الذخائر التي كان يحملها معه "لسليمان"، ولكن "موسى" لم يشأ أن يتريث، ورأى أن يستمر في سيره العادي فإن وصل و"الوليد" حيّ كانت الغنائم له، وإلا فهي لمن يخلفه بالحق والعدل[2].

جدَّ "موسى" في السير حتى قدم و"الوليد" حيّ فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر، فلم يمكث "الوليد" إلا يسيراً بعد قدوم "موسى" حتى توفي، واستُخلف من بعده أخيه سليمان (96-99هـ) فحقد عليه وأهانه[3].

وهنا تذهب بعض الروايات التاريخية في الحديث عن نهاية "موسى" وما لقيه من الخليفة "سليمان بن عبدالملك" من الأذى والظّلم ، وهذه الروايات يكتنفها الكثير من الغموض والخلط والتشويش والتناقض، وقد ناقشها عدد من الباحثين[4]

(1) انظر المقري ابن قتيبة : المصدر السابق، ص141-143.

(2) المقري: نفح الطيب : 1/280-281. كذلك ابن قتيبة المصدر السابق، 2/58 ، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص36، حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص107.

(3) المقري: المصدر السابق، 1/281.

(4) انظر فجر الإسلام ، 108-110. كذلك دولة الإسلام في الأندلس ، 1/57-59، تاريخ المسلمين وآثارهم، 106-108.

وانكروها، ولو كان حصل مثل هذا الأذى "لموسى" من "سليمان"، لما أبقى أبناء "موسى" الثلاثة "عبدالعزيز" على الأندلس متخذاً أشبيلية عاصمة له، و"عبدالملك" على المغرب الأقصى [طنجة] وابنه الأكبر "عبدالله" على إفريقية، في ولايتهم التي وضعهم فيها أبوهم[1].

المهم أن "موسى" خرج من الميدان وعاش بقية حياته في ظلال النسيان لا نكاد نسمع عن أخباره شيئاً، ولا تحدثنا المصادر بشيء عنه حتى موته بعد ذلك بقليل سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين عن عمر يناهز 79 عاماً وهو في طريقه إلى الحجّ في رفقة "سليمان بن عبدالملك". وفي هذا الصدد يذكر ابن عذاري المراكشي: أن "سليمان بن عبدالملك" خرج للحج وخرج معه "موسى" فمات "موسى" وصلى عليه "مسلمة بن عبدالملك"[2].

ومهما يكن الجزاء الذي لقيه "موسى" على يد "سليمان بن عبدالملك"، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يقرر أنه كان لا يستحقه، فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه في الصف الأول من رجال الإسلام الأول، وكانت له سياسة ومقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر في غير تردد أن هذا الرجل هو واضع أساس ما تحصل عليه المسلمون من سلطان وجاه وحضارة في غرب البحر المتوسط، لأن فتح الأندلس كان أمراً لابدّ منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم في الشمال الأفريقي ، ولو لم يفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامي مهدداً بجموع النصرانية، هذا إلى ما كان لهذا الفتح الأندلسي في ذاته من القيمة والأثر مما يغني عن كل حديث[3].

2- مصير طارق بن زياد :

التزمت الروايات التاريخية عن "طارق" صمتاً كاملاً، فلا شك بأنه لم يلاق نفس المصير السيئ الذي لاقاه "موسى بن نصير" بيد أنه لم يعامل معاملة يستحقها بعد أن أضاف إلى الخلافة الإسلامية أراضي شاسعة من القارة الأوربية. وإذا كنا

(1) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص126.
(2) البيان المغرب، 22/2.
(3) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 109، كذلك السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص107-108

نجهل كل شيء عن حياة "طارق بن زياد" بعد عودته إلى دمشق، فإن الشيء الوحيد الذي نعلمه هو أن الخليفة فكّر بعد فترة قصيرة من عودة "موسى" و"طارق" أن يعود إلى تولية "طارق" على الأندلس، بدليل سؤاله "لمغيث الرومي" عن رأيه في إعادة "طارق" إلى ولاية الأندلس، بيد أن إجابة "مغيث" وإن لم تكن سلبية بشكل واضح مباشر إلا أنها كانت توحي بذلك على الأقل، فإن الخليفة "سليمان" عندما استشار "مغيثاً" في تولية "طارق"، وقال له: كيف أمره بالأندلس؟ أجابه: "مغيث" : (لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا)[1].

وبهذه الإجابة خوّف "مغيث" الخليفة من إمكان استقلال "طارق" بتلك البلاد إذ وجد فيها من التأييد الشعبي ما يشجعه على الخروج عن طاعة الخليفة فعدل الأخير عن رأيه وأبقى "طارقاً" في طي النسيان دون أن يُعرف عنه شيء بعد ذلك[2].

أما بالنسبة "لمغيث"، فبالرغم من إساءته لقائديه وحنقه عليهما والوشاية بهما لدى الخلافة إلا أنه لم يفز بشيء، حيث كان يطمع في ولايته للأندلس لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش في القصر الذي كان قد أهداه "موسى بن نصير" إليه والذي ظلّ يُعرف فيما بعد لمئات السنين باسم بلاط "مغيث". وأنجب عدة أولاد كان لأحفادهم فيما بعد شأن عظيم في تاريخ الأندلس الإسلامي[3].

ومهما بلغ من المرء الثناء على "طارق" فإنه لا يستطيع وفاءه حقه، ولو فكر الإنسان في الأمر لحظة لاستخرج من حياة "طارق" وأعماله سراً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحي امتيازه. فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح — بغير الإسلام — إلا قائداً خاملاً لجماعة من البربر منسيين في جهة من جهات

---

(1) المقري: نفح الطيب، 13/3. كذلك خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة) ص 169-170.

(2) خالد الصوفي: المصدر السابق، ص170.

(3) انظر المقري: المصدر السابق، 275/1. كذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 110، خالد الصوفي: المصدر السابق، ص169-170.

الأطلس، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محنكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين بالإعجاب فلو لم يكن للإسلام من أثر إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه، فكيف وقد نشر الإسلام في كل مكان أظلته رايته، وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت وحققه على أتم وجه[1].

و- تنظيم فتح الأندلس :

إن فتح المسلمين للأندلس معجزة من معجزات الإسلام، إذ لا يصدق المرء وهو يتتبع أخبار هذا الفتح أن معظم الذين كانوا يقومون به كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات[2]، كذلك لا يصدق أن تفتح هذه البلاد الشاسعة بهذه السرعة غير المتوقعة، حتى أن بعض المؤرخين الأجانب ذكروا أن العرب لم يكونوا يبغون فتح البلاد كلها وجعلها جزءاً من الإمبراطورية العربية الواسعة، وإنما كانت غايتهم القيام بغارات يحصلون منها على الفوائد الاقتصادية، ثم يعودون من حيث أتوا، إلا أننا رأينا أن مراحل الفتح قد تمت بدقة وتنظيم وأن سير الجيوش الإسلامية لم يكن مرتجلاً في أية من تلك المراحل، وهذا يدل على أن فكرة الفتح الشامل للأندلس كانت موجودة بالفعل منذ البداية لدى العرب[3].

لقد أدى فتح المسلمين للأندلس إلى تغيير الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية والإدارية والدينية في الأندلس ونتج عن كل ذلك نتائج مهمة ، هي :

أ- فمن الناحية السياسية كسب المسلمون إقليماً جديداً أضافوه إلى رقعة دولتهم الواسعة وحققوا كسباً جديداً لدعوتهم ورسالتهم ولمواردهم، وبذلك صار المسلمون سادة البلاد وحكّامها والمتصرفون في شئونها العليا وتلك هي عادة المسلمين وسلوكهم مع الأقاليم التي يفتحونها [4].

(1) حسين مؤنس : المصدر السابق، ص118.
(2) المصدر نفسه ، ص 188.
(3) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصره الولاة) ص171.
(4) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص180.

كما أن الفتح الإسلامي للأندلس غيرّ حال أهلها بوجه عام، فقد أزال الحكم القوطي وآثاره عن تلك البلاد، ولم يبق للقوط شوكة تذكر، إلا فريقاً معتصماً في "جبال جليقية" في الشمال الغربي، وقد آلت ممالكهم ومعظم أحوالهم إلى المسلمين الفاتحين، وأبقى المسلمون على بعض الذين أعانوهم من حكّام القوط فثبت "يوليان" في حكم مدينة "سبتة"، ورُدّت إلى أبناء "غيطشة" أموالهم وضياعهم[1].

ب- أما من الناحية الاقتصادية فإن المسلمين خفّضوا من الأعباء الضريبية الثقيلة التي كانت تفرض على الطبقات العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة، فأُلغيت الضرائب الفادحة وفُرضت الجزية على غير المسلمين، وقُدر الخراج على الأرض، وهو يتوقف على ما تنتجه الأرض فعلاً، ولذلك لم يكن عبئاً على الزراعة، وبذلك صار المزارعون والعبيد الذين يعملون في الأرض التي انتقلت إلى المسلمين أحراراً يستأجرون الأرض أو يعملون فيها ويدفعون جزءاً من غلتها إلى المسلمين، وقد نتج عن ذلك ازدهار جميع أوجه النشاط الاقتصادي، وعاد على الشعب بالرخاء والرفاهية متمثلاً في عدالة التوزيع على العاملين في حقول الزراعة حسب مجهود كل إنسان وطاقته[2].

جـ- ومن الناحية العسكرية نجد أن قوات المسلمين قد قضت على معظم القوات العسكرية للقوط التي كانت تعضد النظام السياسي المتسلط والاقتصادي الجائر الذي كان يحتفظ للنبلاء والكنيسة بامتيازاتهم، وقد أنزلت القوة العسكرية الإسلامية حسب البلاد القادمة منها في مختلف أرجاء الأندلس لتوطيد الأمن وسحق أية فتنة أو ثورة تعارض الفتوح الإسلامية[3].

د- وفي المجال الديني اتبع العرب الفاتحون سياسة التسامح الديني وحرية العبادة مع سكان الأندلس ، ولهذا فقد دان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت، وبذلك تخلصوا من عسف وجور حكم القوط ورجال الدين والكنيسة[4].

---

(1) انظر المقري : نفح الطيب، 265/1-266.

(2) Dozy. R. Histoire des Musulmans d'Espaghe. t1. pp228-230 ، كذلك محمد زيتون المسلمون في المغرب والأندلس، ص182-183.

(3) انظر ابن خلدون : العبر ، 117/4. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص183.

(4) محمد زيتون : المصدر السابق، ص 184-185. كذلك عبدالحميد العبادي، المجمل، ص51.

هـ- ومن الناحية الإدارية قسمت الأندلس في العصر الإسلامي إلى أربع ولايات كبرى يُعين لكل واحدة حاكم مسئول، أمام والي الأندلس عن إدارة شئون ولايته. أما الوالي العام للأندلس فكان تعيينه في البداية من قبل والي افريقية. وعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية أضيفت ولاية خاصة شمال "جبال البرنية"[1].

و- وإذا ما انتقلنا إلى الوضع الاجتماعي فإننا نجد أن الفتح الإسلامي للأندلس قد حقق أثراً عظيماً في هذا المجال، فقد أحسن العرب معاملة الرقيق الذين حلّ بهم البؤس والشقاء قديماً في عهد العرب كثيراً من حقوقهم المدنية، وكان همّ العرب منصبّاً على توطيد السلام بين الأجناس المختلفة من السكان، ولذلك انقاد السكان لحكمهم لما وجدوا فيه من تسامح كانوا ينشدونه. وعاملوا اليهود - الذين ذاقوا الذُلّ والهوان في حكم القوط - معاملة حسنة، فقد سمحوا لهم بمزاولة التجارة، وأمنّوهم على أنفسهم وأولادهم وأموالهم، وسمحوا لهم بحرية الملكية، واشتغل العديد منهم بالعلوم والآداب وقد نبغ بعضهم في عدد منها[2].

وقد نتج عن الفتح الإسلامي للأندلس تغيير شامل في الوضع الاجتماعي جعل الفرد يشعر بقيمته وبقيمة غيره وكرامته، فقد أثار الفتح الإسلامي العقول بما يحمله من قيم إسلامية إنسانية وحضارية سامية، وفتح العيون بمبادئه التي تشرع حقيقة الحياة (الدنيا والآخرة) ووضع أحقية كل فرد في الحصول على جزاء كده وعرقه وفي الحياة الكريمة.

وبذلك كان الفتح الإسلامي للأندلس بشير خير وبركة عليها وانتشالاً لها مما كانت تتردى فيه من الذُلّ والهوان وانتهاك كرامة الإنسان، وقد اعترف بذلك المنصفون وأشباه المنصفين من المؤرخين والكُتّاب الغربيين[3].

(1) محمد زيتون : المصدر السابق، ص 184-185.

(2) المقري : نفح الطيب 280/1-281 . كذلك أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص155، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، 319/1.

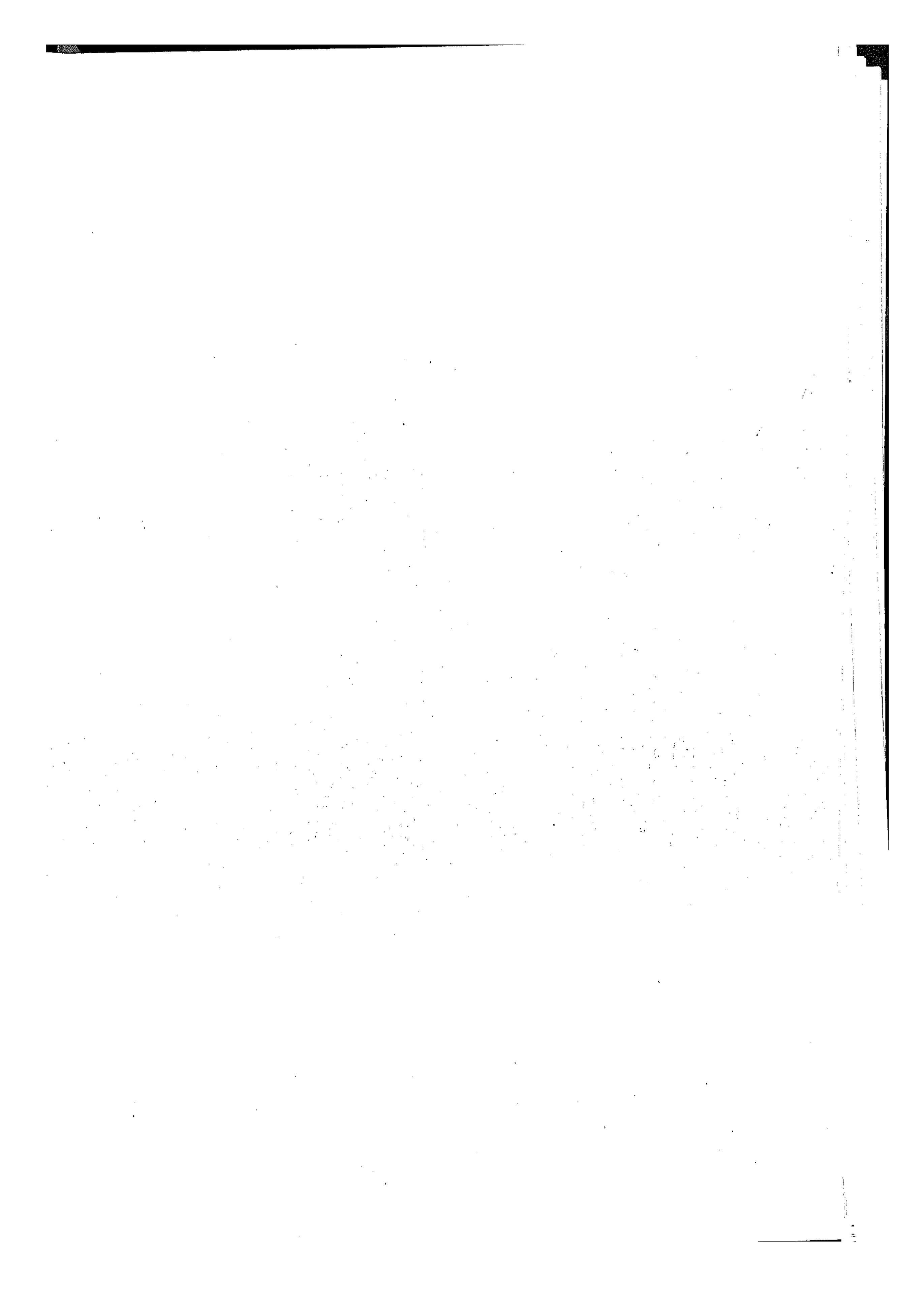
(3) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص186-187.



الفصل الثاني

عصر الولاة





عصر الولاة

بعودة القائدين – موسى وطارق – يبدأ في الأندلس ما يعرف بعصر الولاة (95-138هـ/ 714-755م) الذي استمر حتى وصول "عبدالرحمن الداخل" (الأول) ابن معاوية بن هشام، وما ترتب بعده[1]. وفي هذا العصر كانت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق.

لقد تولى حكم الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها "عبدالرحمن الداخل" حوالي عشرين أميراً في فترة قاربت نصف قرن من الزمن وكان أولهم "عبدالعزيز ابن موسى بن نصير" وآخرهم "يوسف بن عبدالرحمن الفهري". وقد استمر بعضهم في الحكم عدة أشهر والبعض الآخر بضع سنوات، وليس المهم معرفة أسماء الولاة ومدة حكمهم وإنما المهم معرفة الأعمال المهمة التي حدثت في عهدهم، والنتائج التي ترتبت عليها، ومدى تأثير ضعفهم وتمزيق شملهم. ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع بعض وبين العرب والبربر. وأخيراً محاولة التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامي في أوروبا والنتائج التي ترتبت عليه[2].

1- عبدالعزيز بن موسى بن نصير

ذو القعدة سنة 95هـ/ سبتمبر سنة 714م – رجب سنة 97هـ/ 716م

كان أول الولاة بعد الفتح الإسلامي للأندلس "عبدالعزيز بن موسى بن نصير" الذي أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل توجهه إلى المشرق وجعل "اشبيلية" مقراً لولايته، وأهم الأعمال التي قام بها هو تثبيت أقدام المسلمين في الأندلس، حيث يُنسب إليه فتح الجزء الجنوبي الشرقي من "شبه الجزيرة الإيبيرية". ففي هذا

(1) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص131.
(2) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص191.

الصـــدد يذكر "الرازي": ((لما قفل موسى بن نصير، استخلف ابنه عبدالعزيز على الأندلـــس، فضـــبط سلطانها، وسدّ ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة، وكان من خير الـــولاة، إلاّ أنّ مدته لم تطل، لوثوب الجند عليه وقتلهم له، لأشياء نقموها عليه. وكان قتله صَدْرَ رجب من سنة 97هـــ (716م) بمدينة "اشبيلية"... فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر"[1].

وتذكـــر بعـــض المراجع التاريخية أن سبب قتله راجع إلى زواجه من أرملة المـــلك القـــتيل "لذريق" وكانت تلك المرأة [2] "قد صالحت على نفسها في وقت الفتح وباءت بالجزية، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه"[3].

ويقال: "إنه سكن بها في كنيسة بإشبيلية، وإنّها قالت له : لِمَ لا يسجد لك أهـــل مملكتك كما كان يسجد للّذريق — زوجها الأول — أهل مَملكته؟ فقال لها: إن هـــذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفة بها أنه إذا لم يفعل ذلك، فإنه سينتقص قدره عندها، لهذا فقد اتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الـــناس مـــنه، فينحنون، وأوضح لها أن ذلك الفعل منهم تحية له، فرضيت بذلك، فوصل الخبر إلى الجند فقتلوه[4].

وتذهـــب بعـــض المـــراجع أن زوجته المذكورة آنفاً قد ملكت زمام أمره، فتابعها في كثير مما أرادت. ولهذا فقد عملت له تاجاً من الذهب والجوهر وطلبت مـــنه أن يلبســـه، لأن المـــلوك ((إذا لم يُتَوَّجوا ، فلا مُلْكَ لهم!))[5]، كما قالت، ومـــازالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ((فبينما هو ذاتَ يوم جالس معها، والتاج على رأسه، إذ دخلت عليه امرأة كان قد تزوجها "زياد بن نابغة التميميّ"، مـــن بنات ملوكهم؛ فعاينته والتاج على رأسه. فقالت لزياد: ألا أعمل لك تاجاً؟ فقـــال لها: ليس في ديننا استحلال لباسه: فقالت له: ودين المسيح! إنه على رأس

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 24/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 281/1.
(2) كان أسمها "أيلة أو Egilone ثم أصبحت تعرف باسم "أم عاصم".
(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 24/2. كذلك المقري: المصدر السابق، 281/1.
(4) المقري : المصدر السابق، 281/1.
(5) ابن عذاري : المصدر السابق : 23/2.

مـــلككم وإمامكم!. فأعلم بذلك "زياداً" "حبيب ابن أبي عبيدة" ثم تحدث بذلك حتى علمه خيارُ الجند، فلم يكن له همٌّ إلا كشف ذلك، حتى رأوه عياناً، فقالوا : قد تنصَّر! ثم هجموا عليه فقتلوه))[1].

ويعـــلق الدكتور حسين مؤنس على هذه الحادثة، بقوله ((لسنا نعلم كيف فســـر الجـــند لبسة التاج بأنه قد تنصرَّ ، هذا إذا كان قد لبسه أصلاً، وكيف قال عبدالعزيز إن لبس التاج ليس من الدين، مع أن شراط الدين ليس فيها ما يفهم منه ذلك، ثم إن الرجل لم يلبسه كشارة من شارات الملك، بل لبسه في خلواته مع أهل بيـــته. ولســـنا نفهـــم كذلك كيف ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر، وهم لم يكونـــوا يـــثورون عـــلى من يعب الخمر ويقترف المحرمات منهم، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً في هذه الأمور. ثم لماذا تكون زوجة زياد بن النابغة التميمي بالذات هي التي تكشف هذا الأمر))[2].

ويـــبدو مـــن سياق هذه القصة أنها ملفقة تلفيقاً، وأنها وضعت لكي تستر الأسباب، والدوافع الحقيقية، من وراء مقتله.

ويقال إن سبب مقتل "عبدالعزيز" سوء العلاقات بينه وبين الخليفة "سليمان بـــن عبدالملك" وذلك عندما علم بما حلّ بأبيه "موسى" على يد الخليفة "سليمان" مـــن الاضـــطهاد وسوء المعاملة، وجّه بعض النقد إلى تصرّفات الخليفة [3]. ونقل شـــيء مـــن كلام "عبدالغزيز" إلى الخليفة "سليمان" ، فاستاء منه وخاف أن يخلع طاعته فتخلص منه[4]. وذلك في رجب من عام 97هـــ/716، بعد حكم دام أقل من سنتين[5].

لقـــد اتصف "عبدالعزيز" بصفات حميدة، مثل: الورع والعزم والقوة، كما كـــان إدارياً عظيماً، وقائداً مظفراً. ومما يدل على ورعه وحسن خلقه، ما ذكره

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق ، 2/23-24.
(2) فجر الأندلس ، ص130-131.
(3) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، 2/95.
(4) ابن عذاري: ابن عذاري، المصدر السابق، 2/24. كذلك خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس "الفتح وعصر الإمارة" ص194.
(5) ابن عبدالحكم : فتوح مصر، ص 287. كذلك النويري: نهاية الأرب، 2/22، 32.

أبـــوه "موسى بن نصير" أمام الخليفة "سليمان" عندما رأى رأس ابنه أمامه بعد أن جُزَّ، فقال: ((هنيئاً له الشهادة! قَتَلْتُمْ والله صوَّاماً قواماً))[1].

وكيف كان الأمر، فإن أهل الأندلس بعد مقتله مكثوا ((شهوراً لا يجمعهم والٍ، حـــتى اجـــتمعوا عـــلى "أيـــوب بن حبيب اللّخمي "ابن أخت "موسى بن نصير"))[2].

2- أيُّوب بن حبيب اللّخمي

كـــان أول ولاة الأندلـــس بعد "عبدالعزيز بن موسى"، "أيوب بن حبيب اللخمي"، الذي يبدو أنه كان متورطاً في قتل "عبدالعزيز"، بالرغم من صلة القربى بيـــنهما، وهـــو مديـــن بتعيينـــه على ما يبدو لقادة الجيش، الذين نفذوا مؤامرة الاغـــتيال[3]، ولم يقـــم هذا الوالي بأعمال تذكر سوى نقله للعاصمة الإدارية من "اشـــبيلية"، مقر الوالي السابق، إلى "قرطبة"[4] المدينة الأكثر توسطاً في الأندلس، حيـــث أخـــذ مجدها السياسي في التألق منذ ذلك الحين، حتى بلغ ذروته في عهد الخلافـــة، خلافـــاً لـــلوالي الـــذي سرعان ما انطفأ نجمه بعد ستة أشهر فقط من تعيينه[5].

3- ولاية الحُرّ بن عبدالرحمن الثّقفي

(79هـ-100هـ/716-719م)

كـــانت ولاية الأندلس في ذلك الوقت تابعة لوالي إفريقية، وهو "محمد بن يـــزيد" (ذو الحجـــة سنة 97هـــ/ أغسطس سنة 716م - رمضان سنة 100هـــ/

(1) ابن عذاري : المصدر السابق، 25/2.
(2) المصدر نفسه ، 25/2.
(3) أخبار مجموعة ، ص 22، كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 25/2.
(4) ابن عذاري : المصدر السابق: 25/2.
(5) إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص94.

مـــارس ســـنة 719م) فـــلن يقر الجند على ما فعلوا من تولية "أيوب بن حبيب" وســـارع فبعث"الحُرّ بن عبدالرحمن الثقفي" والياً على الأندلس فقدم الأندلس في ذي الحجـــة سنة 97هـــ/ 716م، ومعه أربعمائة رجل من وجوه أفريقية، وبقي في الولايـــة مـــا يقـــرب من ثلاث سنوات، ثم استبدله الخليفة "عمر بن عبدالعزيز" "بالسمح بن مالك الخولاني"[1].

4- ولاية السمح بن مالك الخولاني

(100هـــ-102هـــ/719-721م)

وليّ **"عمـــر بـــن عبدالعزيز" "السَّمْحَ بن مالك"** على الأندلس فوصلها في رمضـــان في عام **100هـــ/719م، وقد أمره "أن** يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن نهج **الرفق، وأن يخمّس ما** غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها"[2].

ولعـــل أهم الأعمال **التي قام بها "السمح"** هو بناؤه للقنطرة على نهر الوادي الكبير في "قرطبة"، والتي ما زالت آثارها قائمة حتى هذا الوقت، ونظراً لأن مقالع الحجـــارة كـــانت بعيـــدة عن "قرطبة"؛ فقد استأذن "السمح" الخليفة "عمر بن عـــبدالعزيز" ببناء القنطرة من حجارة السور القديم الذي كان يحيط بقرطبة فسمح لـــه الخليفة بذلك على أن يجبر ما انهدم من السور باللبن، ففعل[3]، وقد تصدعت هذه القنطرة في عهد الإمام "عبدالرحمن الداخل"، وسنرى للمسلمين عناية عظيمة بهـــذه القنطرة التي سيكون لها أهمية كبرى في تاريخ الأندلس السياسي والفكري؛ لأنهـــا كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً، ولأنها كانت في الجمـــال والـــبهاء بحيـــث كانت منتزه أهل "قرطبة" ومدار خيال شعراء الأندلس

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب: 25/2 ، كذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص135، خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس "الفتح وعصر الإمارة " ص207.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 26/2.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق، 26/2. كذلك ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص38.

أجمعين[1]. كما أن عملية التخميس التي قام بها السمح اعتبرت أول أساس تنظيمي إداري هام في الأندلس [2].

وفي ربيـــع سنة 102هـــ (721م) خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء "الُــبرْت" الـــبيرنيه" فاستشهد في "طرسونة" في يوم عرفة من العام نفسه، فكانت ولايته ما يقرب من ثلاث سنوات[3].

وفي هـــذه الغـــزوة اســـتطاع "السمح" اجتياز "أربونة" مخترقاً بلاد الغال (فرنسة) حتى وصل إلى مقاطعة "اكيتانيا" وقد وقع على عاتق دوقها "أودو Eudes " عـــبء الدفاع عنها، حيث كان يقود جيشاً كبيراً من الجرمان والفرنجة، وكاد العـــرب أن ينتصروا على أعدائهم في المعركة التي دارت بينهم حول مدينة "تولوز Toulouse" لولا أن الفرنجة علموا بمكان "السمح" فتكاثروا عليه وأصابوه إصابات أودت بحياته، فانتشرت الفوضى بين الصفوف العربية فضّلوا العودة على أثرها إلى قاعدتهم في "أربونة" لتنظيم صفوفهم من جديد وإعادة الكرة على تلكم المقاطعة، وكـــان لابُـــدَّ للجيوش الإسلامية من قائد يتولى أمورها ويعود بها نحو الجنوب ، فـــأجمع الجند على اختيار "عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي" لقيادتهم في خلال تلك المرحـــلة، وسنرى أن عبدالرحمن هذا سيكتسب خلال تلك الغزوة تجربة ستخوله فـــيما بعد أن يعود إلى غزو المناطق على نطاق واسع والوصول بجنده إلى نقطة لا تبعد أكثر من مائة ميل جنوبي مدينة "باريس"[4].

(1) حسين مؤنس: فجر الأندلس ، ص139-140.
(2) خالد الصوفي: المصدر السابق، ص210.
(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 26/2. كذلك حسين مؤنس المصدر السابق، ص140.
(4) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس "الفتح وعصر الإمارة"، ص214-215.

5- ولاية عبدالرحمن الغافقي
(ذي الحجة سنة 102هـ/ 721م)

◈ **الولاية الأولى :**

عبدالرحمن الغافقي يعود نسبه إلى إحدى القبائل اليمنية ، وقد جاء مع الجيوش الإسلامية الفاتحة للأندلس.

بعد استشهاد "السمح بن مالك الخولاني" قدَّم أهل الأندلس على أنفسهم "عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي"[1]، قائداً لهم، وكان من الطبيعي أن يتحول هذا القائد المؤقت إلى وال دائم على أهل الأندلس، فالولاية آنذاك كانت تجمع بين القيادتين العسكرية والمدنّية. غير أن ولاية الغافقي هذه لم تدم طويلاً، حيث بقى أقل من شهرين، لم يستطع خلال هذه الفترة القصيرة أن يقوم بأي عمل يذكر، ولذا فإننا سنترك الحديث عنه وعن أعماله الداخلية وغزواته إلى فترة ولايته الثانية[2].

وقد استمر في ولايته هذه الأولى إلى أن يأتي "عنبسة بن سحيم الكلبي" والياً على الأندلس.

6- ولاية عَنْبَسة بن سُحَيْم الكَلْبي
(صفر سنة 103هـ/ 722م - شعبان 107هـ/ مطلع 726م)

وُلِّيَ "يزيد بن أبي مُسلم" والي افريقية "عنبسة بن سحيم الكلبي" والياً على الأندلس، وذلك في صفر في سنة 103هـ /722م [3]، وسار على سنة سلفه في العناية بالأمور الداخلية في الولاية، فقد نظم الخراج، وقسم الأراضي بين المسلمين بدون جور على الأراضي التي لها ملاك أصليون من الأهالي ، وكان يأخذ العُشْر

---

(1) انظر ابن عذاري : المصدر السابق، 26/2.

(2) خالد الصوفي : المصدر السابق، ص218.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 27/2.

مـــن الذيـــن خضعوا للمسلمين بدون قتال، والخمُس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف، وطـــاف "عنبســـة" في مختلف المقاطعات ينظر في مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفي الأديان[1].

وقـــد انتقض عليه أهالي "طرسونة" فزحف إليهم بجيشه، وتمكن من احباط ثورتهـــم ودكّ حصـــونهم واقتصّ من زعمائهم، وبذلك استقرت أحوال الأندلس داخـــلياً واســـتتب فيهـــا الأمن والنظام والعدل، وقد قضى في سبيل ذلك قرابة عامين[2].

غزا عنبْسَة الفرنجة وتوغل في بلادهم، ولكن لا نعرف متى ابتدأ جهاده وراء "الـــبُرْت" وكـــم استغرق، وهل خرج لذلك مرة واحدة أو أكثر، وهل قاده كله بنفسه أو أسبق إليه أحداً بواسطة القوات الإسلامية المرابطة في ثغر "أرْبُونَة"[3].

وقـــد أشار ابن "عذاري" إلى ذلك باقتضاب، حيث ذكر أنه "في سنة خمس ومائة، خرج "عنبسة" غازياً للروم بالأندلس، وأهلها يومئذ خيارٌ، فضلاً، أهل نية في الجهـــاد وحسبة في الثواب فألح على الروم في القتال والحصار، حتى صالحوه. وتوفي "عنبسة" في شعبان سنة سبع ومائة"[4].

اتبع "عنبسة" نفس خط السير تقريباً الذي اتبعه قبله "السمح بن مالك" في الوصول إلى "أربونة"، وفرض الحصار على مدينة قرقشونة Careasonne" الواقعة عـــلى نهر "الأود" وتمكن بعد معارك عنيفة وطويلة أن يستولي على المدينة فدخلها واستراح فيها بعض الوقت ثم ترك فيها حامية من الجند العرب وتابع طريقه متوغلاً نحـــو شمال البلاد. فاستولى على مدينة ""نيمش !Nimes" حيث فتحت له أبوابها دون مقاومة وسلّمت له نفراً من أهلها كرهائن لعدم خروجها فيما بعد على طاعة العـــرب، وقد نقلهم "عنبسة" معه لدى عودته إلى مدينة برشلونة[5] وعامل هؤلاء الأسرى معاملة حسنة[6].

---

(1) محمد زيتون : المسلمون في الغرب والأندلس، ص199-200.
(2) ارسلان : تاريخ غزوات العرب، ص85. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص200.
(3) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص190.
(4) البيان المغرب، 27/2.
(5) خالد الصوفي : المصدر السابق، ص224.
(6) محمد الزيتون : المصدر السابق، 224.

ومن مدينة "نيمش" تابع "عنبسة" سيره حتى وصل إلى نهر "ردونه" "الرون" فسار حذاءه بخطى سريعة دون أن يلقى أية مقاومة إلى أن وصل نهر "السون" وتمكن من التوغل في منطقة "بورغونية: Bourgogne" والاستيلاء على مدينة "أوتون: Autin" التي غنم الجند العرب كل ما فيها وذلك في أواخر سنة 106هـ (725م)، ولم تقف الجيوش العربية عند هذا الحد بل تابعت سيرها إلى أن وصلت مدينة "لوكسوي: Luxeui" المتقدمة فى موقعها شمالاً، حتى إذا رأى عنبسة بأن حملته قد تقدمت جداً، أمر جيوشه المظفرة بالعودة نحو الجنوب. وقد استشهد "عنبسة" في أثناء بعض المناوشات التي حصلت مع الأعداء وهو في طريق عودته وذلك في شهر شعبان عام 107هـ (مطلع 726م) فكانت مدة ولايته أربع سنوات وثمانية أشهر[1].

انسحب الجيش الإسلامي بعد استشهاد "عنبسة" إلى "أربونة" بقيادة "عذرة بن عبدالله الفهري" وتوقفت تلك الغزوات إلى أن تولى "الهيثم بن عبيد الكناني" الأندلس سنة 111هـ/ 729م، فأستأنف الفتوح في فرنسا.

لم يبق "عذرة" في الحكم سوى زمن قصير جداً إلى أن أنفذ والي افريقية[2]، والياً إلى الأندلس هو "يحيى بن سلمة الكلبي"، فقدمها في شوّال 107هـ (726م) وأقام عليها سنتين وستة أشهر، لم يقم خلالها بأية غزوة بنفسه. ثم ولي بعده "حذيفة بن الأحوص القيسي" في عام 110هـ/ 728م فكانت ولايته أقلّ من سنة. أعقب "حذيفة" في ولاية الأندلس "عثمان بن أبي نسعة الخثعمي" في نفس سن 110هـ/ 728م، وبقي في ولاية الأندلس حوالي خمسة أو ستة أشهر فقط. ثم ولي ولاية الأندلس "الهيثم بن عبيد الكناني فقدمها عام 111هـ/ 729م [3]. وكانت ولايته حوالي عشرة أشهر. وقد توفي الهيثم بعد سنتين من ولايته.

◈ تولى إمارة الأندلس بعد موت الهيثم بن عبيد الكناني :

"محمد بن عبدالله الاسجعي" ، وذلك لمدة شهرين حتى أسندت إلى

---

(1) خالد الصوفي : المصدر السابق، ص224.

(2) بشر بن صفوان الكلبي.

(3) خالد الصوفي: المصدر السابق، ص225-226.

"عبدالرحمن بن على الغافقي" إمارة الأندلس من قبل عبيدة بن عبدالرحمن السُّلَمِّي والي افريقية[1].

7- ولاية عبدالرحمن الغافقي الثانية

(صفر سنة 112هـ-رمضان 114هـ/ 73-732م)

تولى "عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي" إمارة الأندلس في صفر سنة 112هـ[2]/ 730م، وكان يتصف بحسن الإدارة وسياسة الأمور بحكمة، إلى جانب مهارته في القيادة العسكرية وطموحه وآماله العريضة في أن يأخذ بثأر من استشهد من المسلمين وقوادهم في فرنسا، وكان يأمل في تحقيق ما عجزوا عنه بالاستيلاء على فرنسا[3].

تذكر بعض الروايات الأجنبية أن "عبدالرحمن الغافقي"، بدأ ولايته بزيارته المناطق الأندلسية المختلفة للاطلاع على شؤونها وتنظيمها ، وأنه عهد بإدارتها إلى رجال أكفّاء عادلين، كما أنّه ردَّ إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغتصبة، وفرض الضرائب على الجميع بالتساوي وعني بتقوية الجيش، وزوده بعناصر جديدة وحصّن واستعدَّ لإخماد أية بادرة للثورة[4].

تولى "عبدالرحمن الغافقي" ولاية الأندلس في الفترة التي انبعثت فيها الفتنة بين العرب في الأندلس بسبب العصبيات القبلية، وكان "عبدالرحمن" معروفاً بحسن القيادة، والشجاعة وقوة الشكيمة، كما عرف بنزاهته وحياده، بحيث لا يتحيز لفريق دون الآخر، ولا يتعصب لعنصر على عنصر آخر، ولذلك قوبلت ولايته بفرحة عمّت قلوب أهل الأندلس، واستبشر الناس بولايته خيراً. وبدأ عهده برفع

(1) المصدر نفسه، 28/2.
(2) ابن عذاري: المصدر السابق، 28/2.
(3) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص206.
(4) Cond Josém Antonio, Historia de la Dominacion de les Arabes en Espana, Paris, 1840, P. 105.

المظالم عن النّاس، وكان يطوف في المدن ويحقق في شكايات الرعية، لا يميز بين مسيحي ومسلم، وعزل كثيراً من القواد والمسؤولين الذين ثبت ظلمهم للرعية[1].

◈ معركة بواتييه أو بلاط الشهداء :

قضى "عبدالرحمن الغافقي": ما يقرب من عام، نظّم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، فتجمعت حوله جموع المتطوعين الذين كانوا يتوقون للقتال تحت قيادته، وتكوّن من هذه الحشود الإسلامية جيش هائل يتراوح عدده ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف، جلهم من البربر، إذ إن العرب كانوا وقتئذ مشغولين بمنازعاقم القبلية[2].

جرت أحداث هذه المعركة التي استمرت حوالي عشرة أيام — في رمضان سنة 114هـــ، نوفمبر 732م[3]، واستشهد "الغافقي"نفسه في موضع يقع بين مدينتي تور (Tours) وبواتييه (Poitiers) حوالي 323 كم جنوبي باريس. وانتهت المعركة بانكسار الجيش الإسلامي وانسحابه من ميدانها[4]. وتتلخص أحداث هذه المعركة في الآتي:

بعد أن أتم "عبدالرحمن الغافقي" استعداداته في عام 114هـــ/ 732م أمر بالسير نحو بلاد الفرنجة ، مخترقاً ممر رونسفال : Roncesvalles ومتجهاً إلى مدينة بوردو: Bordeaux وفي أثناء ذلك حاول دوق اكيتانيا أودو" اعتراض زحفهم والتصدي لهم فالتقى الجمعان على نهر "الدردون"، غير بعيد من التقاء هذا النهر بنهر "الجارمون"، وهزم الدوق ومن معه شرّ هزيمة وقتل من جيشه أعداداً كبيرة وطارد الجيش الإسلامي جيش "أودو" حتى عاصمته "بوردو" واستولوا عليها بعد حصار قصير، وفرَّ الدوق مع عدد من أصحابه نحو الشمال وسقطت مقاطعة "اكيتانيا" كلها بيد الجيوش الإسلامية. ثم تابعت هذه الجيوش زحفها نحو الشمال مجتاحة كل ما أمامها، حتى امتلأت أيدي المسلمين بالثروات والمغانم من كل

---

(1) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص140.

(2) المصدر نفسه ، ص141.

(3) قارن : Histoire de l'Espagne Musulmane, 1, 62 (Sp. Tr., Iv, 37)

(4) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص193-194. كذلك عبدالحميد العبادي: المجمل، ص46-47

الحصون والأماكن التي افتتحوها، واستمروا في زحفهم إلى أن وصلوا مدينة "بواتييه Poitiers" ففتحوها، واتجهوا إلى مدينة أخرى قريبة منها هي مدينة "تور Tours" التي كانت تعتبر من أهم مدن بلاد الفرنجة وتتمتع بمركز دينّي خاص لكونها كانت تضم رفات القديس "مارتين San Martin". أما الدوق "أودو" الذي فرَّ بعد هزيمته، فقد استنجد بعد ذلك بخصمه "شارل مارتل Charles Martel"[1]، محافظ القصر في بلاط الأسرة الميروفنجية الحاكمة في بلاد الفرنجة، موضحاً له مدى الخطر الذي تتعرض له البلاد بأسرها إذا هو لم يقبل أن يهبّ إلى نجدته وإلى إيقاف الجيوش الإسلامية عند حدّها[2].

أخذ "شارل مارتل" (قارلة) يحشد كل ما استطاع من الإمكانات البشرية والمادية لمقابلة الجيوش الإسلامية. ولم يكتف بحشد كل المقاتلة الذين يستطيع حشدهم من قبائل الفرنجة، بل لجأ أيضاً إلى حشد القبائل الجرمانية نصف المتوحشة التي كانت تسكن فيما وراء "الراين"[3]، وكل جموع المرتزقة التي استطاع أن يأتي بها لمساعدته في المعركة، ثم انحدر بعد ذلك من الشمال نحو مدينة "تور"، وقد اصطدمت الجيوش المسيحية بالجيوش الإسلامية في أول لقاء على ضفاف نهر "اللوار"، ولكن هذا الاصطدام لم تُسفر عنه أية نتيجة تذكر إذ أن "عبدالرحمن الغافقي" فضّل على أثر ذلك أن يتقهقر نحو الجنوب إلى السهل الممتد بين "تور" و"بواتييه" لينظم صفوفه ويعدّ عدّته للقاء العدو[4].

وإذا ما حاولنا عمل مقارنة بين الجيشين فإنه يتضح لنا أن الجيش الفرنجي كان متوجساً متحسباً للخطر الكبير الذي أتى يتهدده في ناحية الجنوب والذي يتمثل في الجيش الإسلامي، الذي استطاع أن يبلع نهر "اللّوار" في وقت قصير، أما الجيش الإسلامي فقد استولى عليه التّعب من جرَّاء المسافة الطويلة التي قطعها منذ أن خرج من قرطبة، ونقص عدده بسبب ترك بعض الحاميات في المدن المفتوحة، وامتلأت أيدي الجند بالغنائم والثروات التي غنموها وحملوها معهم، والتي لا

(1) لم يلقب شارل "بمارتل" بالمطرقة إلا بعد هذه المعركة نظراً للشجاعة والقوة التي ظهرت منه خلالها.
(2) خالد الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس "الفتح وعصر الولاة"، ص323-233.
(3) فيليب حتى : تاريخ العرب، ص409.
(4) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس" الفتح وعصر والولاة"، ص233.

يقبلون التخلي عنها مطلقاً. وكان هذا العامل الأخير له الأثر السيء على الجيش الإسلامي[1]، وكان أحد الأسباب في هزيمة المسلمين، في هذه المعركة.

بدأت المعركة الحاسمة في سهل "تور" أو "بواتييه" في رمضان سنة 114هـ، نوفمبر 732م – كما ذكرنا – بمناوشات استمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الجمعان معركة عنيفة استمرت إلى أن أرخى الليل سدوله، واستراح الجمعان، ثم استؤنف القتال في اليوم العاشر بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على جيش الفرنجة حتى كادوا أن يقطفوا ثمار النصر[2]، غير أن "أودو" عرف نقطة الضعف في جيش المسلمين، فالتف مع فرقة من جيشه خلف جيش المسلمين وهاجم مؤخرته، وبلغ هذا الهجوم أفراد الجيش الإسلامي فتراجع الكثير منهم إلى المعسكر لاستخلاص الغنائم من أيدي الفرنجة، فأخل هذا التراجع بنظام الجيش، وحاول "عبدالرحمن الغافقي" عبثاً أن يعيد تنظيم صفوف جيشه، غير أن سهماً من الأعداء أصابه فسقط شهيداً في ميدان القتال، ولما رأى المسلمون قائدهم صريعاً، اضطربت نفوسهم، وارتبكت صفوفهم، وأحاط بهم الفرنجة من كل مكان، وراحوا يعملون فيهم السيف، وقد صمد المسلمون على مدافعة الفرنجة حتى أقبل الليل وأرخى سدوله، فحال بين الجيشين وعاد كل جيش إلى مواقعه. واجتمع كبار رجال الجيش وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون، ثم اجمعوا على الرجوع إلى ديار الإسلام متجهين إلى "سبتمانيا" "أربونة" في ظل الليل مخلفين خيامهم وجرحاهم الذين لم يستطيعوا حملهم، وغنائمهم. وهكذا عاد فل الجيش الإسلامي إلى "أربونة" بعد أن دمر في طريقه ما صادفه من كنائس وأديرة، مثل دير "سولينياك"[3] Solignac. أما الفرنجة، فقد باتوا ليلتهم تلك وهم ينوون القضاء على المسلمين في صباح اليوم التالي، فلما أدركهم الصباح، نظروا إلى معسكر المسلمين، فوجدوه خالياً من أصحابه، ولم يحاول الفرنجة تتبع فلول المسلمين، لأنهم خافوا من أن يكون من وراء تراجعهم كميناً نصبوه لجيشهم، أو لأنهم لقوا صعوبة في قتال المسلمين، فآثر قائدهم "شارل مارتل" العودة بجيشه نحو

---

(1) المصدر نفسه، ص234.
(2) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص210.
(3) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب، ص103. كذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص275.

الشمال[1]. وقد سمىّ المسلمون هذه الموقعة ببلاط الشهداء، لكثرة من استشهد فيها من عظماء الرجال مع "عبدالرحمن"[2].

أما من حيث نتائج المعركة، فعلى الرغم من أنّ بعض المؤرخين قد اعتبرها حاسمة بالنسبة للتقدم العربي في القارة الأوربية، فإنّ البعض الآخر لم يعطها أهمية كبرى من الناحية العسكرية باستشهاده على أن العرب قد عادوا للإغارة على بلاد الفرنجة بعد سنتين فقط من معركة بلاط الشهداء (أي عام 116هـ/734م) فوصلوا من جديد إلى "أفنيون" كما تمكنوا بعد تسع سنوات من ذلك أن يصلوا إلى مدينة "ليون" ويستولوا على كل ما فيها ويحتلوا "ناربونة" التي ظلّت قاعدة استراتيجية لعملياتهم العسكرية حتى عام 142هـ/ 759م[3].

هذا وقد أحاط بعض المؤرخون الأوربيون هذه المعركة باهتمام كبير، بحيث قال بعضهم" إنه لو انتصر المسلمون في هذه المعركة لرأينا القرآن يتلى ويدرس في جامعات الغرب[4]، أي أن هذه البلدان كانت ستصبح مسلمة.

وأظهر رأيه في هذه المعركة العديد من الكتّاب الغربيين، الذين أدركوا شيئاً من روعة الإسلام وصدق عقيدته ورفعة شريعته وسمو مبادئه وجمال روحه. وقد رأوا ما أثبته وبثه في كل أرض حلّها من الخير والنور وما جلبه لها من الحضارة والإنسانية الكريمة، فاعتبروا نتيجة "بلاط الشهداء" نكبة كبيرة أصابت أوربا، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان[5].

وقد اعتبر آخرون أن هذا اللّقاء انتصارٌ كبيرٌ وإنقاذٌ وخلاصٌ للدولة الفرنجية من خطر المسلمين، ولو أنه لم يمنع المسلمين من إعادة الكرة على "غاليا"[6]، كما اعترف البعض الآخر أن انتصار "شارل مارتل" في هذه المعركة على المسلمين جعلهم أقل جرأة على غزو شمال فرنسا[7].

---

(1) شكيب أرسلان : المصدر السابق، ص103. كذلك السيد عبدالعزيز: تاريخ المسلمين، ص144، 145.

(2) محمد زيتون : المصدر السابق، ص 211.

(3) فيليب حتى : تاريخ العرب، ص410. كذلك خالد الصوفي : المصدر السابق، ص235-236

(4) Gibbon, the decline and fall of the Romanempire, III, 223.

(5) محب الدين الخطيب: مع الرعيل الأول، ص9-10. كذلك عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 199-202.

(6) عبدالرحمن الحجي : المصدر السابق، 202.

(7) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص383-388.

وعلى أيّ حال ومهما كان شأن معركة بلاط الشهداء، وأهميتها في التاريخ، فإنّ الهجمة الإسلامية كان مقدراً لها أن تقف بعد أن توغلت أكثر من ألف ميل شمال جبل طارق، كما أن العرب استطاعوا أن يحافظوا ردحاً من الزمن على ممتلكاتهم في جنوبي بلاد الفرنجة وظلّت الأندلس في أيديهم ما يقرب من ثمانية قرون، ولو كانت معركة "بواتيه" بتلك الأهمية التي يحلو لبعض المؤرخين أن يجعلوها بها، لما تمكّن العرب من أن يرسّخوا أقدامهم في تلك الأنحاء طيلة المدة التي مكثوها بعد ذلك هناك[1].

8- ولاية عبدالملك بن قطن الفهري

(شوال 114- رمضان 116هـ "الولاية الأولى)

كان لاستشهاد "عبدالرحمن الغافقي"، وانسحاب المسلمين من بلاط الشهداء دون تحقيق النصر هزة كبيرة في نفوس المسلمين، لهذا أرسل والي افريقية (عبيدة بن عبدالرحمن) "عبدالملك بن قطن الفهري" والياً على الأندلس في جيش من خيرة جند افريقية، وأمره بالعمل على حماية الأندلس واسترجاع هيبة المسلمين وتثبيتها في جنوب فرنسا[2]. وقد دخلها في شوال من سنة 114هـ، وكانت مدة ولايته سنتين[3].

هذا وقد قام بغزو أرض "البشكنس" سنة خمس عشرة ومائة، فأوقع بهم وغنم، ثم عُزل في رمضان سنة ست عشرة ومائة للهجرة[4]، وولي "عقبة بن الحجّاج السَّلولي" من قبل "عبيد الله بن الحبحاب" والي افريقية في شوال سنة 116هـ، فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً، حتى بلغ المسلمون "أرْبونة" في الشمال وصار رباطهم على نهر "ردونة"، ثم وثب عليه "عبدالملك بن قطن الفهري" سنة إحدى وعشرين ومائة فخلعه وقتله[5]. وقيل إنّ "عقبة بن

(1) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس، الفتح وعصر الولاة"، ص236-237.
(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 28/2. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص214.
(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 28/2.
(4) المقري: نفح الطيب، 236/1.
(5) المصدر نفسه، 236/1. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 29/2.

الحجّاج" لما حانت وفاته استخلف "عبدالملك الفهري" على الأندلس[1].

9- ولاية عبدالملك بن قطن الثانية

(122-123هـ/ 739-740م)

ولي "عبدالملك بن قطن الفهري" الأندلس ولايته الثانية خلال سنة 122هـ، 739م[2].

صاحب فترة ولايته هذه قيام الثورات وانتشار الفتن ، واضطراب الأحوال في الأندلس، وكانت أسباب الاضطراب من خارج الأندلس وداخلها، فمن خارج الأندلس نجد أن المغرب الأقصى اضطربت الأمور فيه لانتشار مذهب الخوارج الصفرية، وتزعم "ميسرة المدغري" ثورة البربر ضد الحكّام المسلمين العرب، فقتلوا حاكم طنجة "عمر بن عبدالله المرادي" وحاكم السوس "إسماعيل بن عبدالله ابن الحبحاب" — وهو ابن والي افريقية — ونادوا "لميسرة" بالخلافة، وقاتلهم والي افريقية "عبيد الله بن الحبحاب" الذي جعل على رأس جيشه "خالد بن حبيب الفهري"، وقد التقت الجيوش العربية مع جيوش البربر بالقرب من طنجة في معركة كبيرة اشتد فيها القتال، كان النصر فيها حليفاً للبربر، وقتل في هذه المعركة التي دارت رحاها سنة 123هـ/ 740م نفراً عظيماً من أشراف عرب افريقية، وبذلك سمّيت بمعركة الأشراف[3].

ولي الخليفة "هشام بن عبدالملك" على افريقية" كلثوم بن عياض القشُري" (جمادى الآخرة، 123هـ) وبعث معه جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً، وذلك لضبط افريقية والقضاء على الثورات بها، وكان "كلثوم" قد اصطحب معه ابن أخيه "بلج بن بشر القشيري" وقد التقت الجيوش العربية بجيوش خوارج البربر، الذين كانوا تحت قيادة "خالد بن حميد الزناتي" بوادي "سبو"، ودارت بين الطرفين معركة

(1) ابن عذاري : المصدر السابق، 30/2.
(2) انظر : المصدر نفسه، 30/2.
(3) المصدر نفسه، 30/2. كذلك مؤنس : فجر الأندلس، ص166-167.

رهيبة، رجحت فيها كفة البربر واستشهد "كلثوم بن عياض"، فتولي بعده ابن أخيه "بلج بن بشر" ولاية افريقية، حيث سبق أن عهد له بها، وقد تشتتت جموع العرب بعد هذه المعركة، فلحق بعضهم بالقيروان، ولجأ "بلج بن بشر" في عشرة آلاف من أهل الشام إلى "سبتة" فتحصنوا بها فحاصرهم البربر وشددوا عليهم الحصار فطلبوا من "عبدالملك بن قطن" أن يساعدهم في العبور إلى الأندلس فماطلهم في البداية خوفاً منهم على مركزه وسلطانه[1].

وفي الوقت الذي كاد اليأس أن يستحوذ على تفكير هؤلاء المحاصرين، ويطرد كل آمالهم في الحياة، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح ممهدة، بعد اندلاع ثورة البربر بالأندلس، وعدم استطاعة "عبدالملك بن قطن" إخمادها[2].

لما رأى والي الأندلس اتساع ثورة البربر وازدياد نفوذهم في الأندلس اضطر إلى السماح "لبلج" وأصحابه بالعبور إلى الأندلس، فكاتبهم بذلك واشترط عليهم ، أن لا يقيموا أكثر من سنة في الأندلس ، وأن يحاربوا معه البربر الثائرين ضد الحكم الإسلامي، كما اشترط عليهم أن يأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة "أم حكيم"[3].

عبر "بلج" ومن معه إلى الأندلس سنة 123هـ/ 740م وقدم لهم ما يحتاجون إليه من الطعام واللّباس، وانضموا إلى جيش "عبدالملك"، ثم اتجهوا نحو البربر المجتمعين في "وادي الفتح" "بشذونة" فهزموا البربر، وغنم "بلج" وأصحابه منهم غنائم كثيرة، ثم اتجهوا إلى "قرطبة" حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف، "ثم ساروا بأجمعهم إلى جهة "طليطلة"، وقد اجتمع هناك معظم البربر؛ فكانت هزيمتهم العظمى هناك "بوادي سليط من حَوْز "طليطلة"، بعد أن زحف "عبدالملك" و"بلج" إليهم بعرب الأندلس، حاشا عرب "سَرَقُسْطة" وثغورها . وزحف البربر بأجمعهم ، فهزمهم العربُ، وقتلوا منهم في هذه الهزيمة آلافاً"[4] وبذلك قُضى على فتنة البربر في الأندلس، واشتد ساعد "بلج" وأصحابه[1]

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 30/2. كذلك محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص220.

(2) إبراهيم بيضون : الدولة العربية في اسبانية، ص128.

(3) ابن عذاري ، المصدر السابق، 30/2.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب.

10- ولاية بَلْج بن بِشْر القُشيْريّ

(123هـ/ 740م)

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشيراً باستقرار الأمور بالأندلس، وإنما أعقب ذلك فتنة بين العرب أنفسهم، فقد طلب "عبدالملك بن قطن" من "بلج" وأصحابه الرحيل عن الأندلس حسب الشرط الذي اشترطه عليهم قبل عبورهم. فرد عليه "بلج" بقوله : "أحملنا إلى ساحل "إلبيرة" أو ساحل "تُدْمير"، فقال لهم"عبدالملك": ليست لنا مراكب إلا بالجزيرة!، فقالوا له: إنما تريد أن تردَّنا إلى البربر ليقتلونا في بلادهم!، فلما ألحَّ عليهم في الخروج نهضوا إليه، فأخرجوه من قصر "قرطبة" إلى داره بالمدينة (تعرف بدار أيوب) ودخل "بلج" القصر. عشية يوم الأربعاء في صدر ذي القعدة من السنة"[2]. أي سنة 123هـ/ 740م. ثم قبضوا على "عبدالملك" وقتلوه نتيجة لموت أحد الرهائن الذين لديه من أصحاب "بلج"[3].

لقد حشد "أمية" و"قطن" ابني "عبد الملك" – وكانا قد هربا من قرطبة وقت إخراج أبيهما منها – جموعاً كثيرة في "سرقسطة" بلغت أكثر من مائة ألف من العرب، فخرج إليهم "بلج" في جيش أقل من خُمس عددهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم أسفرت المعركة عن انهزام أبنا "عبدالملك" ومن معهما وقد أصيب "يلج" بجراح توفي منها بعد أيام. فولي أصحابه عليهم "ثَعْلَبة بن سلامة العامليّ" ليكون واليا على الأندلس[4].

---

(1) محمد زيتون : المصدر السابق، ص221.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 31/2.

(3) المصدر نفسه، 32/2 كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص221.

(4) ابن عذاري : البيان المغرب، ، 32/2.

11- ولاية ثَعْلبَة بن سَلاَمة العامِليّ

(شوال سنة 124هـ - 742م)

عندما توفي "بلج"، وليّ أهل الشام [1] على أنفسهم "ثعلبة بن سلامة العاملي" بموجب عهد الخليفة "هشام بن عبدالملك"، الذي أمر بأن يتولى أمر الجيش إذ جهَّزه من الشام "كلثوم بن عياض" فإن أصيب فابن أخيه "بلج"، فإن أُصيب "فثعلبة"[2]. وهكذا تولى "ثعلبه" ولاية الأندلس في شوال من عام 124هـ/ 742م.

حاول "ثعلبة" في الفترة الأولى من حكمه اصلاح البلاد ونشر العدل بينهم، ولكنه ما لبث أن مالت به العصبية اليمانية ففسد أمره وهاجت الفتنة. وقد جمع له أهل البلد من العرب والبربر جمعاً "بماردة" فخرج إليهم فجاشوا عليه بما لا طاقة له به وقاتلهم قتالاً شديداً، فلم يغنه ذلك واعتصم بمدينة "ماردة" وبعث إلى خلفه "بقرطبة" أن ينجده ببقية أصحابه لمناجزة أهل البلد، ثم باغت محاصرية صبيحة يوم عيد الأضحى (10 ذي الحجة 124هـ/ أكتوبر 742م) فهزمهم هزيمة كبرى، وقتل منهم أعداداً هائلة وأسر منهم ألف رجل، وسبي ذريتهم وعيالهم ، وأقبل مع من معه من السبي والذين بلغ عددهم حوالي عشرة آلاف إلى "قرطبة"، ونزل بهم بظاهر "قرطبة"، وقد أراد أن يعمل فيهم السيف بعد صلاة الجمعة[3]، وكان يبيع ذراري أهل البلد، ويحملهم أسرى، ويرهقهم من أمرهم عسراً"[4]. واستمر "ثعلبة" على هذا الحال إلى أن ورد عليه "أبو الخطّار بن الحسام الكلبي" والياً من قبل "حنظلة بن صفوان" والي افريقية.

---

(1) أصبح بلج وأصحابه يعرفون "بالشاميين" بينما كان عرب الأندلس الأولون يعرفون "بالبلديين" أي إنهم قد مضى زمن على وجودهم في الأندلس.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 32/2-33.

(3) المقري : نفح الطيب، 221/1، ابن خلدون : العبر ، 119/4.

(4) ابن عذاري : البيان المغرب، 32/2.

12- ولاية أبي الخطَّار بن ضرار الكلبي
(125-128هـ / 742 - 745م)

ولّي الإمارة في عام 125هـ/ 742م من قبل "حنظلة" والي افريقية "لهشام ابن عبدالملك" ثم "للوليد بن يزيد بن عبدالملك"، وقد غادر تونس عن طريق البحر فوصل الأندلس ومعه كتاب "حنظلة" بتوليته ولاية الأندلس، فقدم إلى "قرطبة" وتسلم السلطة من "ثعلبة"[1].

وكان أول عمل قام به "أبو الخطّار" بعد وصوله هو إطلاق الأسرى والسبي الذين كان يريد "ثعلبة بن سلامة" قتلهم أو بيعهم وإذلالهم، فسرّ الناس وسُمي ذلك المعكسر "بمعسكر العافية" لأنه ظهر التسامح منذ اللحظة الأولى، وعمل على إحلال السلام فصارت الكلمة جامعة [2]. وحاول أن يعيد الأمن والسكينة إلى البلاد ونادى بالتسامح والعدل، فأحبه الناس واجتمع عليه أهل الشام وعرب الأندلس، ومن أهم الأعمال التي قام بها تفريقه للجند على عدة مدن حيث كانوا متمركزين في العاصمة "قرطبة" لهذا عمل على توزيعهم، وأنزلهم في مدن مختلفة تشبه بلدهم الأصلي، فكان توزيعهم على النحو التالي:

أنزل أهل دمشق بالبيرة	Elvira
وأهل الأردن برية	Reyyo
وأهل فلسطين بشذونة	Sidonia والجزيرة Algeciras
وأهل حمص باشبيلية	Sevilla ولبله Nieble
وأهل قنسرين بجيان	Jean
وأهل مصر بباجه	Beje وبعضهم بتدمير Tudmir

وكان إنزالهم على أموال العجم من أرض ونعم، وأبقى البلدين على أرزاقهم وأراضيهم لم ينقصهم شيء فسّروا بذلك، كما سرّ بذلك فيما بعد جند الشام إذ وجدوا أنفسهم في بلاد تشبه بلادهم فاستقر بهم المقام وتحسنت أحوالهم المعاشية[3].

---

(1) ابن عذارى : البيان المغرب ، 33/2.
(2) أخبار مجموعة، ص24-25. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 33/2.
(3) انظر ابن الأبار : الحلة السيراء، 63/1. كذلك ابن القوطية: تاريخه افتتاح الأندلس، ص44

هذا وقد أساء "أبو الخطّار" إلى زعيم من زعماء المضرية هو "الصُميل"[1] بن حاتم بن شمر ذي الجوشن"، وكان "الصميل" شجاعاً سخياً فالتف حوله المضرية وبعض الناقمين على "أبي الخطّار" من اليمنية كجذام" و"لخم"، فلما أهانه "أبو الخطّار" بعث "الصميل" إلى خيار قومه فشكا إليهم ما حلّ به من هوان فثاروا معه، وأيدته لخم وجذام من اليمينة. فقدموا عليهم "ثوابة بن سلامة الجُذامي اليمني" واتجهوا نحو "قرطبة" فخرج إليهم "أبو الخطّار" فهزموه وأسروه واتجه "ثوابة" ومن معه نحو"قرطبة" فدخل قصر الإمارة وأعلن اختيار "ثوابة" — وهو يمني — أميراً على الأندلس سنة 128هـ/ 745م. بدلاً من "أبي الخطّار"، ووافق على ذلك والي افريقية "عبدالرحمن بن حبيب الفهري". سنة 129هـ (رجب)، الذي انتزع ولاية افريقية من "حنظلة بن صفوان"، وقام ثوابة بضبط الأمور في الأندلس يعاونه "الصُميل" فاجتمع عليه جند الأندلس[2].

13- ولاية ثواب بن سلامة الجذامي

(رجب - شعبان سنة 128هـ/ 746م) (سنة واحدة تقريباً)

كانت ولايته متداخلة مع ولاية "أبي الخطّار" إذ أنّ هذا كان لا يزال يعتبر نفسه هو الوالي الشرعي للبلاد بعد أن تمكن من الفرار من سجنه، بينما كان "ثوابة" يتربع في الواقع على عرش السلطة ويسعى للقضاء على "أبي الخطّار" قبل أن يتفاقم خطره من جديد ويتمكن من انتزاع الولاية منه[3].

وقد أخذ "أبو الخطّار" يسعى لجمع الناس حوله بعد فراره من السجن، فانضمّ إليه الكثيرون، خاصةً وأن العصبية كانت تلعب دورها وأنّ أبا الخطّار كان يُعتبر زعيماً لليمانية. وما لبث أن نظم أولئك الأنصار وسار بهم نحو "قرطبة" لقتال

(1) كان جده شمر من أشراف عرب الكوفة، وهو أحد قتلة الحسين بن علي والذي قدم برأسه على يزيد بن معاوية. وقتل المختار بعد ذلك جماعة منهم، فهرب شمر بولده وعياله ولحق بالشام فأقام فيها وقد قيل إن المختار قتل شمراً وفرّ ولده إلى أن خرج كلثوم بن عياض القشيري غازياً إلى المغرب، فكان الصميل ممن بُعث في أشراف أهل الشام ودخل الأندلس في طاعة بلج بن بشر = ابن عذاري: البيان المغرب، 50/2.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 34/2-35. كذلك المقري: نفح الطيب، 237/1-238، محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص323.

(3) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة)، ص283.

"ثوابة". وعلم الأخير وأصحابه بقدوم "أبي الخطّار" فأخذوا يستعدون لقتاله. وعندما وصل "أبو الخطّار" أمام أسوار المدينة، خرج إليه "ثوابة" و"الصميل" بقواهما وحاولا أن يفضّا عنه الجموع قبل بدء القتال، لعلهما يستطيعان حقن الدّماء وإلحاق الهزيمة به دون قتال. فأمر أحد رجالهما أن يخاطب جماعته ويقنعهم بالانفضاض عنه، فقام الرجل وأقنع أصحاب "أبي الخطّار" بتركه والانفضاض عنه، وقد نجح في ذلك، وبذلك وجد "أبو الخطّار" نفسه مع نفر قليل من أصحابه لا يستطيع معهم خوض أية معركة ففضّل الانسحاب والاستعداد من جديد لمعركة قادمة، سنرى بأنه سيخوضها فعلاً في ولاية "يوسف بن عبدالرحمن الفهري" وستكون من أعنف المعارك التي عرفتها الأندلس[1].

بعد هذه الحادثة توفي "ثوابة" ، وإننا لا نستطيع التأكد من المدة التي ظل خلالها في الحكم، ولكن من المرجح أنها كانت سنة واحدة [2]، أو سنتين على قول "ابن عذاري"[3].

وعندما توفي عادت الحرب إلى ما كانت عليه، فقد أراد اليمانيون إعادة "أبي الخطّار" إلى إمارة الأندلس، ورفض ذلك المضريون بقيادة "الصميل بن حاتم، وحدث بين الفريقين صراع وقتال ظلت بسببه خلافة الأندلس أشهراً بدون أمير، إلا أنهم قدّموا "عبدالرحمن بن كثير اللخمي" للنظر في الأحكام[4]. وعلى الرغم من أن النظر في الأحكام لا يعني الولاية بل يعني القضاء ، فإن تسليمه ذلك المنصب كان نوعاً من الاعتراف بسلطته، كي لا تظلّ الأمور فوضى لا ناظم لها، وظل الحال على ما هو عليه لا يتفق القوم على تنصيب واحد منهم ولا يرضون "بأبي الخطّار" أو "بابن حريث" أو "بعمرو بن ثعلبة" إلى أن ظهر بينهم رأي جديد، يرجح أن يكون صاحبه زعيم المضرية الداهية "الصميل بن حاتم"، وفحواه أن يتراضى القيسيون واليمنيُّون فيما بينهم فيقتسمون الإمارة بحيث تكون عاماً لقيسيّ وأخر ليمنيّ، فوافق الجميع على ذلك الرأي، واعتقدوا فيه نهايةً للنزاع فيما بينهم ،

(1) المقري : نفح الطيب، 23/4. كذلك خالد الصوفي: المصدر السابق، ص283-284.
(2) المقري : نفح الطيب ، 237/1، كذلك أخبار مجموعة ، ص90.
(3) انظر البيان المغرب ، 35/2.
(4) ابن عذاري ؛ المصدر السابق، 35/2. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص224.

وبقي على الفريقين أن يتفقوا على أول وال ينصبونه على الأندلس، وقد اتفقوا على أن ذلك الوالي هو "يوسف بن عبدالرحمن الفهري" على أن يعود القوم إلى الاجتماع بعد عام من ذلك التاريخ 129هـ/ 747م ليقرروا من هو اليماني الذي سيلي "يوسف" في الولاية[1].

14- ولاية يوسف بن عبدالرحمن الفهري

(آخر ولاة الأندلس) (129-138هـ/747-755م)

بعد تولية "يوسف الفهري" ولاية الأندلس واستقامت له الأمور غدر "يحيى بن حُرَيْش" وعزله عن كورة "ريَّة" فغضب ودعا اليمنيين إلى الثورة معه، وكاتب "أبا الخطّار"، فقال "أبو الخطّار" "أنا الأمير المخلوع، فأنا أقوم بالأمر. وقال ابن حُرَيْش: بل أنا أقوم به، لأن قومي أكثر من قومك"[2]. وقد زحف الاثنان بحشودهما العسكرية على "قرطبة" فخرج إليهما "يوسف الفهري" و"الصّميل" في جموع المضرية والتقوا في قرية تدعى "شقندة" حيث حدث اللّقاء بين الفئتين المتنازعتين، وذلك في سنة 130هـ، 747م، وقد دارت بينهما معركة رهيبة انتهت بهزيمة اليمنية وقتل "أبي الخطّار" و"ابن حُرَيْش" وكثير من زعماء اليمنية، واستتب الأمر "ليوسف الفهري" بعد هذه المعركة ورضى عنه جند اليمن ومضر وعلا شأن "الصّميل" وأصبح قائد "يوسف الفهري" الأعلى "وقدْحةَ المُعلَّى، يُقرِّب منه ما شاءَه، ويدفع عنه ما ساءه، إلى أن تمكن بالدولة، وتملَّك رقاب تلك الحملة، فشَرِقَ به "يوسف" وقَلِقَ، وخشي من جانبه وأرِقَ، فرأى أن يبعده من مكانه، ويولِّيه بعض سلطانه، فولاّه "سرقُسْطة" وبلادها سنة 132هـ"[3].

وقد وجه "يوسف الفهري" جهوده إلى إصلاح شئون الإمارة بعد هذه الفتن التي مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية لمحاولة استقلال كثير من العمَّال بولاياتهم، مما شجع النصارى في الولايات الشمالية من الأندلس إلى السعي

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 35/2، كذلك خالد الصوفي: المصدر السابق، ص285، 286.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 36/2.

(3) المصدر نفسه، 37/2.

لاسترجاع السلطة في أقاليمهم، وزاد الطين بلة حلول القحط بالأندلس لفترة زادت على أربع سنوات من سنة 131هـ إلى سنة 135هـ، مما حمل كثيراً من المواطنين على ترك الأندلس والتروح إلى شمال افريقية وخاصة من الولايات الشمالية، فكان ذلك مشجعاً للنصارى في الشمال على الاستقرار في الأماكن التي رحلوا عنها[1].

وبالإضافة إلى الثورات التي سبق ذكرها، فقد قامت ضده ثورات أخرى قام بها أناس آخرون منهم "عبدالرحمن بن علقمة اللّخمي"، الذي كان حاكماً "لأربونة"، فأرسل إليه "يوسف" جيشاً حاربه ولم يمكث في حربه إلا يسيراً، حتى انتصر عليه وقتله وحُمل رأسه إلى "يوسف الفهري" في "قرطبة"، وقامت عليه ثورة ثانية في مدينة "باجة" تزعمها رجل اسمه "عروة" اعتمد على عدد من العرب وعدد آخر من أهل البلاد الذين لا زالوا على دينهم المسيحي، فأرسل إليه "يوسف" جيشاً هزمه وقتل الكثير من أتباعه، وثار عليه كذلك في "سرقسطة" رجل اسمه "تميم بن مَعْبَد" في سنة 136هـ/ 753م وتحالف مع "عامر بن عمرو بن وهب" في سنة (137هـ/ 745م) فتولى "الصّميل" محاربتهما، إلا أنه لم يتمكن من فتح "سرقسطة" والقضاء عليهما في هذه السنة "بسرقسطة" فحاصرهما ، وتمكن من الانتصار عليهما وقتلهما، وبذلك استطاع "يوسف" القضاء على كل الثورات التي قامت ضده في الأندلس، ولكنه لم يكد ينتهي من إخماد تلك الثورات حتى فوجئ بخطر جديد جاءه من المشرق ألا وهو خطر الأمير الأموي "عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام ابن عبدالملك" (الملقب بصقر قريش)، وذلك في غرة ربيع الأول سنة 138هـ/ 755م، حيث استطاع نزع الإمارة منه وإنهاء عصر الولاة[2].

---

(1) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص225.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، ج38/2. كذلك خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس (الفتح وعصر الولاة" ص302، محمد زيتون المصدر السابق، ص226،

الفصل الثالث

قيام الدولة الأموية في الأندلس
ووصول
عبدالرحمن الداخل إلى الحكم



قيام الدولة الأموية في الأندلس

(138-172هـ/ 755-788م)

كانت سيطرة الخلافة الأموية على الأندلس خلال فترة عصر الولاة سيطرة اسميـــة فقط إذ لم يصل إلى بيت مال الدولة الأموية شيء مما يُجبى من موارد هذه الـــبلاد، يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الولاة قتلوا أو عُزلوا بدون أمر من الخلافة، كما أن بعض الولاة تسلموا زمام الحكم في الأندلس بدون أمر منها، أيضاً جرت أحـــداث كثيرة بدون علمها، وعندما سقطت الخلافة الأموية في المشرق وانتقلت إلى بني العباس في سنة 132هـــ/ 749م خرجت الأندلس وشمال أفريقية من قبضة الخلافة رسمياً[1].

وبعـــد انتصار العباسيين على الأمويين في موقعة "الزاب" في 11 من جمادى الآخـــرة ســـنة 132هـــ/ 749م أخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية حيث ما وُجدوا وحلوا، يقتلوهم أينما وجدوهم، فقد أمر الخليفة العباسي الأول أبو العباس الســـفاح (132-136هـــ، 479-753م) بتتبع بني أمية وقتلهم والقضاء عليهم، ولذلـــك تفرقوا في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين لهم، وكان فـــيمن فـــرّ مـــنهم "عبدالرحمن بن معاوية بن هشام"، وقد اتجه نحو افريقية لعدة أسباب، منها لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية، واستقلال "عبدالرحمن بن حبيب الفهـــري" بولايتها[2]، ولتأثره بنبوءة "مسلمة بن عبدالملك" له وهو صبي بأن دولة بني أمية ستحيى على يديه[3]. ولوجود أخواله هناك.

(1) خير الله طلفاح : حضارة العرب في الأندلس، ص62.

(2) ثار عبدالرحمن بن حبيب الفهري على والي افريقية حنظلة بن صفوان واستقل بولاية افريقية والمغرب وخرج عن طاعة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

(3) عن هذه الرواية انظر أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، ص51.

قاســى هذا الشاب الطريد مرارة العيش في بلاد المغرب دون كلل واحتمل الآلام دون ضــعف أو استســلام، واستقر به المطاف أخيراً عند أخواله من قبيلة "نَفْزَة" وكانت تقيم قريباً من طنجة[1]، وقيل في طرابلس[2].

أقــام عــبدالرحمن عند أخواله النفزيين، وبقى معه مولاه "بدر"، أما "أبو الشــجاع سالم" فقد عاد إلى مولاته "أم الأصبغ" [3]. بالشام، ورأى "عبدالرحمن" أن يبادر بالاتصال بزعماء بني أمية في الأندلس، فبعث مولاه بدراً رسولاً إلى "أبي عــثمان عبيد الله بن عثمان" و"عبدالله خالد بن أبّان بن أسلم" زعيمي موالي بني أميــة وأرســل إليهما كتاباً يعرض عليهما فيه رياسته للأندلس، وذلك في أواخر سنة 136هــ/ 753م فترل بدر بقرية "طُرّش Torrox" من ساحل "إلبيرة" وكانت مــترل جــند الشام ويجتمع فيها موالي بني أمية. وكانت رياستهم إلى "أبي عثمان عــبيد الله بــن عثمان" وصهره، "عبدالله خالد بن أبان" فاجتمع بدراً بهما وقدّم إليهمــا كتاب عبدالرحمن[4]، "يشكو فيه ما ابتلوا به ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به "ابن حبيب" وبقومه بأفريقية ويعلمهم أنه إن دخل إلى "يوسف" (الفهري) لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه وأن تهيأ لهم ما فيه طلب سلطان الأندلس أن يعلموه"[5].

وقد نشط موالي الأمويين لهذا الأمر واستشاروا "الصّميل" زعيم القيسية في معاونــة "عــبدالرحمن" وتــأييده، ولكــن "الصّــميل" بعد أن استجاب لنصرة "عــبدالرحمن"، عاد فأبدى تردداً وفتوراً، واقترح أن يتزوج "ابن معاوية" من ابنة "يوسف الفهري"، وأن يترل آمناً في ظله، ثم صرفهما ، وقال : إن عبدالرحمن "من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله"[6].

---

(1) حسين مؤنس : فجر الإسلام ، ص664.
(2) المقري : نفح الطيب، 328/1.
(3) أخت عبدالرحمن بن معاوية.
(4) ابن عذاري : البيان المغرب، 42/2-43. كذلك المقري. المصدر السابق، 328/1.
(5) أخبار مجموعة ، ص67.
(6) المصدر نفسه، ص73 وما يليها. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص243.

ابتاع بعد ذلك أصحاب عبدالرحمن بن معاوية مركباً وجّهوا فيه "بدراً" مع أحد عشر رجلاً منهم فعبروا المضيق إلى المغرب واجتمعوا لدى نزولهم بعبدالرحمن، الـــذي تلقّاهم بالترحيب والبشاشة، بعد أن كان قد انتابه القلق لتأخرّ عودة مولاه بـــدر[1]. وبشروه بما تمّ لهم بالأندلس، مما خلفوا فيه أبا عثمان وعبيدالله ابن خالد وغيرهما من رجال الأندلس من الاجتماع عليه والرضاء به[2]. ثم ركب عبدالرحمن معهـــم الـــبحر حـــتى أرسوا بثغر المنكب Almunecar في آخر ربيع الثاني سنة 138هـــ/ 750م[3]، فأقبل إليه بداية الأمر نقيباه "أبو عثمان" وصهره "عبيدالله بن خالد" فنقلاه إلى قرية طُرُّش Torrox، حيث يترل "أبو عثمان" فجاءه "يوسف بن بخـــت" وتوالت عليه الوفود الأموية فبدأ يعدّ العدة للسير إلى قرطبة [4]. "وقد أعد للأمير ما يصلحه من المركب والمترل والملبس، فغلظ أمر "ابن معاوية" وأقبل الناس من كلّ مكان إليه"[5].

ويصـــف "المقري" الوفود التي أتت إليه ومبايعتهم له، بقوله " "أتاه قوم من أهـــل "إشـــبيلية" فـــبايعوه، ثم انتقل إلى "كورة" رَيّة" فبايعه عاملها "عيسى بن مُساور"، ثم إلى "شذونة" فبايعه "عتاب بن علقمة اللخمي" ثم إلى "مُورُور" فبايعه "ابن الصباح"، ونَهَد إلى قرطبة فاجتمعت إليه اليمنية"[6].

وفي هذه الأثناء كان "يوسف بن عبدالرحمن الفهري" المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في "سرقسطة" وبدأ يتخلص من خصومه الذين كانوا يعارضـــون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولولده من بعده، ولكنه فـــوجئ بقدوم "عبدالرحمن بن معاوية" إلى الأندلس وتأييد موالي الأمويين والقبائل اليمنية له، لهذا بدأ يضع الخطط للتخلص منه، وقد شاور "الصميل" في أمره فأشار عـــليه بالمكر به ومخادعته وهوّن عليه ذلك، وذلك لحداثة سنه، "وقال له هو قريبُ

---

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، 44/2. كذلك أخبار مجموعة ، ص74.
(2) أخبار مجموعة ، ص75.
(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 44/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 328/1.
(4) خالد الصوفي : تاريخ العرب في الأندلس "الفتح وعصر الإمارة" ص308.
(5) ابن عذاري : المصدر السابق، 44/2.
(6) نفح الطيب ، 328/1.

عهـد بـزوال النعمة ، فهو يغتنم ما تدعو إليه؛ ثم أنت بعد ذلك متحكّمٌ فيه وفي الذين سعوْا له بما تُحبُّ"[1].

رجع "يوسف الفهري" إلى "قرطبة" ينتظر انتهاء فصل الشتاء الذي قد بدأ، وقـد رأى أن يرسل إلى موالي الأمويين يحذّرهم ويخوفهم من مناصرة "عبدالرحمن ابـن معاويـة" والخـروج عليه فقالوا له: "إنما أقبل" ابن معاوية" إلينا وإلى جماعة مواليـه، يُـريد المـال، ليس فيما يظن الأمير – أصلحه الله – ولا فيما رُفع إليه، واعـتذروا له بمـا أمكنهم)[2]. ولم يخبروه بحقيقة بيعتهم "لعبد الرحمن بن معاوية" أميراً عليهم[3].

كذلك أرسل "يوسف الفهري" إلى "عبدالرحمن بن معاوية" كتاباً يحذّره فيه مـن أتباعه الذين انضموا إليه وأنهم أهل غدر ونقض للإيمان المؤكدة ويعرض عليه المـال وسعة السلطان والحماية، وأنه لا يغدر به وقد أورد "ابن عذاري" نصوصاً منها على النحو التالي: ((أما بعد، فقد انتهى إلينا نزولُك بساحل المُنكَّب، وتأبُّش من تأبَّش إليك ونزع نحوك من السُّرَّاق وأهل الخَتْر (الختل) والغَدْر ونقْض الأيمان المؤكَّـدة، التي كذبوا الله فيها وكذبونا وبه – جلّ وعلا – نَسْتَعينُ عليهم، ولقد كانوا معنا في ذَرَى كَنفَ ورفاهيَّة عيش، غمصوا (غمطوا) ذلك واستبدلوا بالأمن خوفـاً، وجـنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيطٌ، فإن كُنْتَ تريد المال وسَعَة الجـانب، فأنا أَولى لك ممَّنْ لجأتَ إليه، أكْنفُكُ وأصلُ رَحمَك، وأُنزلك معي إن أردتَّ وبحيـث تُريد، ثم لَكَ عهدُ الله وذمَّتُهُ في ألاَّ أغْدرِ بكَ، ولاَ أُمَكِّنَ منْك ابن عَمِّي صاحب إفريقية ولا غَيره"[4].

أ– موقعة المُصارة والاستيلاء على قرطبة :

بـدأ كـل من الفريقين يستعد عندما انتهى فصل الشتاء وبعد أن فشلت محـاولات الصـلح بيـنهما، وقد تعجل "يوسف الفهري" و"الصُميل" السير من

---

(1) البيان المغرب، 45/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 328/1.
(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 44/2-45.
(3) المصدر نفسه، 45/2.
(4) البيان المغرب، 46/2-45.

"المورور" شمالي قرطبة وانحدرا بمن معهما إلى ناحية مقابلة "الطشانة Tocina" على الشاطئ الغربي للوادي الكبير، وذلك في أول ذي الحجة سنة 138هـ/ 755م فتناوشا والنهر بينهما وكان ماء النهر فائضاً فمنعهما من عبوره ، وقيل "لعبد الرحمن" إن عامة من في قرطبة من موالي بني أمية هم يؤيدونه فرأى أن يسبق يوسف إليها، وحاول إيهام "يوسف الفهري" بالبقاء، فأوقد نار معسكره بليل، ثم ترك النار مُوقدة ومضى بعسكره، وكادت تنجح الحيلة ، لولا أن تنبه لها "يوسف" وصاحبه فأسرعا عائدَيْن إلى قرطبة، فكان مع جيش "عبدالرحمن" في سباق، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما إلى الآخر عند "المُصارة" على مقربة من قرطبة ، وكان جند "عبدالرحمن" في ضيق من العيش حتى أصبحوا يقتاتون بالفول الأخضر، بينما جند "يوسف الفهري" في رفاهية من العيش، ومع ذلك فقد انضم إلى "عبدالرحمن" كل من استطاع اللّحاق به من اليمنيين وبني أمية من أهل قرطبة[1].

وأقبل يوم الخميس التاسع من ذي الحجة سنة 138هـ (13 مايو 756م) فاستبشر به عبدالرحمن، لأنه يقابل اليوم الذي وقعت في غده معركة مرج راهط[2]، وانتصر فيها "مروان بن الحكم" على "الضحَّاك بن قيس الفهري"، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع "يوسف الفهري" يوم الجمعة التالي، ومن ثم أمر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل[3].

وفي صباح يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة 138هـ، 14 مايو سنة 756م نظّم "عبدالرحمن بن معاوية" جيشه ورتبه ترتيباً محكماً، ثم عبر الوادي الكبير وأفضى إلى الضفة المقابلة دون أن يعرض له "يوسف" أو أحد من رجاله، ويبدو أنه كان ما يزال يؤمل في الصلح، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره، لم يخوضوا المعركة إلا بعد أن وضعهم "عبدالرحمن" أمام الأمر الواقع، فلم يجدوا عن القتال مندوحة[4].

---

(1) أخبار مجموعة ، ص86. كذلك حسين مؤنس : فجر الإسلام، ص681.
(2) وقعت المعركة يوم عيد الأضحى سنة 64هـ.
(3) ابن القوطة : تاريخ افتتاح الأندلس، ص48-49.
(4) حسين مؤنس : المصدر السابق، ص682.

دارت المعـــركة عـــلى مقـــربة مـــن "المُصارة" من أرباض قرطبة وانتصر "عبدالرحمن" على خصومه، فسار إلى قرطبة فدخلها، وقد قُتل في هذه المعركة ابني كـــل من "يوسف الفهري" و"الصميل" وكبار قوادهما ووجوه القيسية والفهرية، وفـــرَّ "يوســـف" إلى "طليطلة و"الصميل" إلى جنوب جيانا[1]، ثم لحق "الصميل" "بيوسف الفهري" في "طليطلة" مع عدد من أصحابه، فقوي أمرهما وانضم إليهما مـــن بقـــى من مضر في تلك الجهات فأخذا يستعدان من جديد للعودة إلى قرطبة والاستيلاء عليها[2].

وكان لابدَّ "لعبدالرحمن" منذ اليوم الذي استقر فيه بدار الإمارة بقرطبة. أن يقضي على مقاومة "يوسف الفهري" و"الصميل"، فلم تكن هزيمتهما في "المصارة" كافية للقضاء على آمالهما في الظفر بالإمارة، وبالفعل زحف "يوسف" و"الصميل" بجيشـــهما إلى "إلـــبيرة"، ففر عامل "عبدالرحمن" على "إلبيرة" منها، واجتمع أهل "إلـــبيرة" من القيسية "ليوسف"، فبادر "عبدالرحمن" إلى التحرك نحو معقل الثائرين في "إلـــبيرة" قبل أن يستفحل أمرهما وتزداد دائرة نفوذهما، وتابع سيره إلى هناك، حـــتى وصل إلى قرية صغيرة تسمى "أرملة Armilla"[3]. على مقربة من معسكر "يوســـف" و"الصـــميل". ولم يكد "عبدالرحمن" يصل بمن معه من الجند إلى قرب "إلـــبيرة" حتى أحسَّ "الصميل" و"يوسف" أنهما لم يستطيعا له حرباً، فعرضا عليه الصـــلح عـــلى أن يـــدع لهمـــا مـــا كان لهما من الأموال والأملاك، وأجابهما "عـــبدالرحمن" إلى ذلـــك، عـــلى أن يســـتودعه "يوسف الفهري" ابنيه أبا زيد عبدالرحمن" و"أبا الأسود محمد"، واتفق الطرفان كذلك على تبادل الأسرى، وقد تمَّ ذلك في سنة 140هـــ/ 757م[4].

ونتـــيجة لتســـامح "عبدالرحمن" مع خصومه، وعدم معاقبتهم ، وسياسته الحكـــيمة، فقد أقبل عليه من المشرق في سنة 140هـــ/ 757م الكثير من بني أمية

(1) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص252.
(2) خالد الصوفي : المصدر السابق، ص313.
(3) أخبار مجموعة ، ص92-93.
(4) المصدر نفسه، ص93-94. كذلك ابن عذاري : البيان المغرب 48/2، حسين مؤنس فجر الأندلس، ص 687.

ومواليهم، فاستقبلهم الأمير استقبالاً جيداً، وأكرمهم، وأحسن جوائزهم، وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات[1].

ولم يطمئن "يوسف الفهري" إلى أمان "عبدالرحمن بن معاوية" ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فرَّ من "قرطبة" في سنة 141هـ، وحاول أن يستميل "الصميل" والشامية إلى جانبه فلم يوفق ، فمضى إلى جماعات من البلديين في "اللقنت" و"ماردة" وطليطلة"، ومازال بهم حتى أغراهم بالانضمام إليه، فثاروا ضد "عبدالرحمن" في هذه المناطق، واستبعد "عبدالرحمن" أن يكون "يوسف" قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه واتهم الصميلِ بالتدبير عليه، وعبثاً حاول الرجل تبرئة نفسه، واتهم الصحيل بالتدبير عليه، وعبثاً حاول الرجل تبرئة نفسه وانتهى أمره بأن ألقى به في السجن، وسجن معه ابني يوسف وكانا عنده رهينتين[2].

استطاع "يوسف الفهري" أن يُكوِّن جيشاً قوامه عشرين ألفاً، واتجه نحو "اشبيلية" وحاصرها وكان واليها "عبدالملك بن عمر المرواني"، الذي طلب من ابنه "عبدالله" والي "موررور" التقدم إليه لفك حصار "يوسف" عنه، فلبى "عبدالله" طلب والده، وأقبل على رأس حشد كثيف انضم إلى جموع ابيه "عبدالملك". وفي هذه الأثناء زحف "عبدالرحمن بن معاوية" من "قرطبة" بجيش كثيف حتى نزل بمحلة يقال لها "برج أسامة"[3]، وزحف "عبدالملك" وولده بجيوشهما وراء "يوسف الفهري"، بينما تقدم "عبدالرحمن" بجيشه حتى وصل منطقة "المدور"، فخاف "يوسف" أن يقع بين جيشي "ابن معاوية" و"عبدالملك، ولكن "عبدالملك"، ومن معه حملوا حملة رجل واحد على "يوسف" وجيشه، فانهزم الأخير من ساعته وتفرق من معه، وسار "يوسف" إلى "طليطلة" ليحتمي بها عند "ابن عروة" والي "طليطلة" فأدركه "عبدالله بن عمر الأنصاري" قبل "طليطلة" بأربعة أميال فقتله، وذلك في سنة 142هـ/ 759م، وأراح الناس من شره، واحتز رأسه وأقبل به إلى

---

(1) ابن عذاري : المصدر السابق، 49/2.
(2) ابن عذاري :. المصدر السابق، 49/2. كذلك حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص688.
(3) أخبار مجموعة ، ص96.

"عبدالرحمن بن معاوية"[1]، فأسرع الأخير بقتل "أبي زيد بن يوسف"، وأبقى على أخيه "أبي الأسود" لصغر سنه، ولما أقبل الليل بعث إلى "الصُميل" من خنقه ليستريح من أمره جملة[2].

هكذا صفا الجو "لعبد الرحمن" وصار له أمر الأندلس كله دون منازع، وانتهى على يديه العصر الأول من أعصر الأندلس وهو عصر الولاة. واختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر في تاريخ الأندلس، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبية وأوضار القبلية، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامي بعد أن كاد ينهار. وكان من حسن حظ بلاد الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب، ولو استمر لكان في ذلك بوار أمر الأندلس الإسلامي جملة، ولو لم تطأ قدم "عبدالرحمن" أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها إلى اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهي أمر الإسلام في أقل مما انتهى إليه[3] فيما بعد.

ب- الثورات التي قامت ضده :

قامت ضده ثورات عديدة استطاع عبدالرحمن القضاء عليها وتوطيد حكمه، وأهم هذه الثورات[4] هي :

1- ثورة "العلاء بن مُغيث الجُذامي" (أو اليحصبي أو الحضرمي) "بباجة"، الذي قام بثورته سنة 146هـ/ 763م، ودعا إلى طاعة "أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السوداء واستطاع عبدالرحمن الانتصار عليه وقتله مع ستة[5] آلاف من أتباعه، وأمر "عبدالرحمن" بحز رأس "العلاء" ورؤوس أشراف أصحابه ووضعت فيها صكوك بأسمائهم وحمل بعضها إلى "القيروان" فطرح في الليل في

---

(1) المصدر نفسه ، ص99-100.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص51-52. كذلك أخبار مجموعة، ص100-101، ابن عذاري: المصدر السابق، 2/49-50.

(3) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص690.

(4) عن هذه الثورات انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 2/51-58.

(5) ذكر صاحب أخبار مجموعة أنهم سبعة آلاف - أخبار مجموعة، ص103.

الأسواق وحمل البعض الآخر إلى "مكة" مع بعض التجار الثقة وفيها رأس العلاء ومعه السجل واللواء الذي أرسله إليه المنصور فوضعوه أمام سرادق المنصور، الذي كان يحج ذلك العام (147هـ/ 764م) فلما نظر إليه المنصور، قال: ((إنا لله عرَّضْنا بهذا المسكين للقتل، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان))[1].

وبذلك استطاع "عبدالرحمن" أن يقضي على هذه الثورة الخطيرة التي كانت تدعهما الخلافة العباسية.

2- **ثورة البربر في شمال شرقي الأندلس**، حيث كان يقود هذه الثورة داعية بربري خطير يدعى "شقنا بن عبدالواحد" من بربر "مكناسة" وادعي أنه من نسل "الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد قامت هذه الثورة في سنة 152هـ/ 769م، وقد استطاع "عبدالرحمن" أن يقضي على ثورة "شقنا"، حيث قتله في سنة 160هـ، 776م[2].

3- **ثورة عبدالرحمن بن حبيب الفهري المعروف الصقبلي سنة 162 هـ :** قام "عبدالرحمن بن حبيب الفهري" بثورة ضد "عبدالرحمن بن معاوية"، وقد استعان ببعض البربر من افريقية، وعبر إلى "تُدمير" وثار فيها، ودعا للعباسيين، فخرج إليه الأمير "عبدالرحمن"، وقاتله قتالاً شديداً، مما اضطر الفهري إلى الاحتماء بالجبال، فبسط الأمير "عبدالرحمن" سلطانه في كورة "تُدمير"، وتقدم إلى كورة "بلنسية"، بعد أن أغرق المراكب بساحل البحر، حتى لا يتمكن هذا الثائر من الهرب والرجوع إلى افريقية، ثم استطاع الأمير "عبدالرحمن" تأليب أحد البربر ضده وهو "مشكار البربري" فقتله وحمل رأسه إلى الأمير "عبدالرحمن"، وبذلك انتهت ثورته في سنة 162 أو 163 هجري[3].

4- **ومن الثورات التي قامت ضده، ثورة "سليمان بن يقظان"**، الأعرابي والي "برشلونه"، كما ثار معه "بسرقسطة" "حسين بن يحيى الأنصاري"، من ولد

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 52/2. كذلك أخبار مجموعة، ص101-103، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص54-55.

(2) أخبار مجموعة : ص107. كذلك ابن خلدون: العبر، 123/2.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق، 55/2-56. كذلك أخبار مجموعة ، ص110-111.

"سعد بن عبادة"، وذلك في سنة 165هـ/ 781م كذلك ثار عليه "الرُّماحس بن عبدالعزيز الكناني" والي الجزيرة الخضراء، وذلك في سنة 164هـ/ 780م وقد حاصر الأمير الجزيرة الخضراء بسرعة مذهلة ، وفي أثناء ذلك استطاع "الرُّماحس" الهروب والنجاة إلى افريقية، وبذلك قضى على "الرُّماحس" وثورته[1].

أما بالنسبة "لسليمان بن يقظان الأعرابي"، "والحسين بن يحيى الأنصاري" فقد أرسل إليهم الأمير "عبدالرحمن" جيشاً بقيادة "ثعلبة بن عبيد الجذامي" فهزمه "سليمان" وأسر "ثعلبة"، واتسعت الثورة في الشمال، ولكن سليمان لم يطمئن إلى هذا النصر خوفاً من الأمير "عبدالرحمن"، ورأى الاستعانة بملك الفرنج "شارلمان"، فأرسل إليه يستقدمه إلى شمال الأندلس واعداً إياه بتسليمه "برشلونة" أو "سرقسطة" وبعث إليه بالقائد المأسور ثعلبة، لذلك تشجع "شارلمان" وعبر "جبال البرانس" بجيش كبير واستولى على بنبلونة" من البشكنس،، وكان يطمح إلى السيطرة على شمال الأندلس، وقد استقبله "سليمان" وسار معه إلى "سرقسطة" وهما يعتقدان أنها ستفتح أبوابها "لشارلمان". ولكن حاكمها "الحسين بن يحيى الأنصاري" خشى عاقبة مخالفة الأفرنج، كما أن أهل "سرقسطة" صمموا على الصمود والقتال وقدَّموا الشهداء دفاعاً عن مدينتهم، مما جعل "شارلمان" يفكر في العودة بعد عجزه عن الاستيلاء على "سرقسطة"، وقد شكّ في نية "سليمان" وموقفه فقبض عليه . وفي أثناء عودته تعرضت مؤخرة جيشه لهجمات المسلمين بقيادة "ابني[2] أغرق "والبشكنس في جبال البرنية فخلّصوا الأسرى منهم، كما فتكوا بمؤخرة الجيش وقتلوا عدداً كبيراً من كبار القواد[3]، وذلك في سنة 161 هـ/ 778م.

---

(1) أنظر ابن عذاري : المصدر السابق، 56/2. كذلك أخبار مجموعة ، ص111.

(2) هما عَيْشُون ومَطروح = ابن الأثير : الكامل، 5/6.

(3) كان ممن قتل القائد رولان Roland. وفيه كانت الأنشودة المعروفة بـ "أنشودة رولان Chanson de Roland القائد الأسير عند سيده الذي سقط في كمين البشكنس. فأصبحت على كل لسان يتغنى بها الشعراء الجوّالون، ويضيفون إليها أخباراً تدخل في عالم الأساطير أكثر من الواقع. ومع الزمن ظهر "رولان: Roland للأوربيين، كأحد الرموز المقدسة في تاريخ العلاقات بينهم وبين العرب، تتمثل فيها بنظرهم أسمى مراحل التضحية والاستشهاد من أجل العقيدة = إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص113-114، ابن الأثير: الكامل، 14/6، محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص263-264.

عـــاد "سليمان بن يقظان" إلى "سرقسطة" وبعد فترة قتله "الحسين بن يحيى الأنصـــاري"، الذي ظل ثائراً ضد الأمير "عبدالرحمن"، الذي خرج إليه في جيش كبير وحاصره حصاراً شديداً اضطر "الحسين "إلى طلب الصلح، وأرسل ابنه رهينة فقـــبل منه "عبدالرحمن" ذلك وفكّ الحصار عن "سرقسطة"، ولكنه عاد وغدر في عهـــده فعـــاد الأمير إلى حصاره ونصَّب على المدينة ستة وثلاثين منجنيقاً من كل جـــانب، وضيّق على أهلها الحصار، أشد الضيق، فاتصلوا "بعبد الرحمن"، وسلموا إليـــه "الحسين بن يحيى" فقتله في سنة 166هـــ وبذلك استطاع القضاء على هذه الثورة[1].

وكـــانت آخـــر حلقة من سلسلة هذه الثورات، ثورة "المغيرة بن الوليد بن معاوية" ابن أخت الأمير "عبدالرحمن الداخل"، الذي قام بثورته في سنة 168هـــ/ 784م بالرُّصـــافة، وقد ساعده فيها "هذيل بن الصميل بن حاتم"، واستطاع الأمير "عبدالرحمن" القبض عليهما ثم قتلهما[2].

وكـــانت مؤامـــرة "محمد بن يوسف الفهري" المعروف بأبي الأسود، الذي أعلن ثورته على الأمير "عبدالرحمن" بمدينة "قسطلونة: Cazlona" بشرق الأندلس، فهـــزمه "عـــبدالرحمن" في "مخاضـــة الفتح" في مستهل ربيع الأول سنة 169هـــ/ 785م، ففـــر إلى "قوريـــة"، فطـــارده "الأمير عبدالرحمن" وأرغمه على الفرار إلى "المفاز"، بأقصى شمال أسبانيا، وكان ذلك آخر ما قام به "عبدالرحمن الداخل" من حروب، إذ مات في جمادى الأولى سنة 172هـــ/ 788م. ودفن بالروضة من قصر الإمارة[3] بقرطبة.

جـــ- أهم أعماله الداخلية :

بعـــد عُمْـــر قارب الستين عاماً توفي "عبدالرحمن بن معاوية الأموي" يوم الـــثلاثاء لســـت بقين من ربيع الآخر، وقيل لعشر خلوْن من جُمادي الأولى سنة

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 1/56-57 . كذلك أخبار مجموعة ، ص114-116، محمد زيتون: المصدر السابق، ص263-264.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 2/57. كذلك السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين، ص205.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق، 2/57. كذلك أخبار مجموعة ، ص116، السيد عبدالعزيز سالم : المصدر السابق، ص205.

172هـ/ 788م وكان مولده بدير "حسينة" من دمشق سنة 113هـ/ 731م، ودفن بقصر قرطبة، فكانت مدة حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر ونصفاً[1].

ومما قاله عنه "ابن حيان" : "ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غُفْلاً من حلْية الملك عاطلاً، فأرهْف أهلها بالطاعة السلطانية وحَنَّكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمَّا قليل المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدوَّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عُدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وَحَذرُوا جانبه، وتحاموا حَوْزَته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقلّ له الأمر فيها"[2].

هذا وقد شهد بحسن تصرفه وذكائه وشجاعته وتصرفاته الحميدة واخلاقه المجيدة، أعداؤه قبل أصدقائه، فهذا أبو جعفر المنصور ((136-158هـ/ 753-774م) وصفه بصقر قريش. فقد قال المنصور يوماً لبعض جلسائه: ((أخبروني مَنْ صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك، وسكّن الزلازلَ، وأباد الأعداء، وحسم الأدواءَ!. قال: ما قلتم شيئاً!. قالوا: فمعاوية؟. قال: لا!. قالوا: فعبد الملك بن مروان؟. قال : ما قلتم شيئاً! قالوا : يا أمير المؤمنين: فمن هو؟. قال : صقر قريش "عبدالرحمن بن معاوية" الذي عبر البحر، وقطع القَفْر، ودخل بلداً أعجمياً، منفرداً بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوّن الدواوينَ، وأقام مُلكاً عظيماً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدَّة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عُمر وعثمان، وَذَلَّلا له صَعْبَهُ، وعبدالملك ببيعة أُبْرم عقدُها، وأمير المؤمنين بطلب عتْرته، واجتماع شيعته، وعبدالرحمن منفردٌ بنفسه، مؤيَّدٌ، مستصحب لعزمه، وَطّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين وأذلّ الجبابرة الثائرين))[3].

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، 2/47-48.
(2) المقري : نفح الطيب، 1/331.
(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 2/59-60.

وهـــذه شـــهادة عظيمة من خصمه تدل على أنه يستحق لقب صقر قريش دون أبـــو جعفـــر المنصور نفسه ومعاوية وعبدالملك بن مروان، وذلك لشجاعته وصفاته الحميدة.

عمل "عبدالرحمن بن معاوية" على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الانقياد والخضوع للدولة وليس للعصبية أو القبيلة وقد بذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً منذ دخولـــه قرطـــبة منتصراً، كما عمل على تنظيم الجهاز الحكومي فأنشأ منصب الحجابة وأسندها إلى "تمام بن علقمة"، ثم ولاّها "يوسف بن بخت"، ثم "عبدالكريم ابن مهران"، ثم عبدالحميد بن مغيث"، ثم "منصور" فتاه الذي ظل فيها حتى وفاته. وكـــان يختص بمشورته ومعاونته في شؤون الحكم أربعة يطلق عليهم "ابن عذاري" وزراء[1]، وهـــم "عبدالله بن عثمان"، و"عبدالله بن خالد"، و"يوسف بن بُخت"، و"حسّـــان بـــن مالك". وقد تولى قيادة عسكره مولاه "بدر"، و"تمام بن علقمة"، و"عبدالمـــلك المـــرواني" و"ثعلبة بن عبيد"، وغيرهم، وقد كان "عبدالرحمن" يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي قامت بينه وبين خصومه. كما أسند الولاية على المدن والأقاليم والثغور إلى من يثق فيهم من مؤيديه وذوي رحمه الوافدين عليه. وسار على سياسة الاعتدال والمهادنة بالنسبة للنصارى (المستعربين) وعـــين رئيســـاً خاصـــاً لهـــم باسم القمص (القومس) يقيم إلى جواره في قرطبة ويستشيره في كثير من الأمور[2].

واهـــتم عـــبدالرحمن الداخل بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزقة من كل صوب، وقد بلغت قواته نحو مائه ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من الموالي والبربر والرقيق ويبلغ قرابة أربعين ألفاً، واهتم في أواخر عهده بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن، في طسكونة وطرطوشة، وقرطاجنة واشبيلية وغيرها[3].

---

(1) البيان المغرب، ، 48/2، كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب، ص267.

(2) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص58. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص267

(3) المقري : نفح الطيب، 67/2. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص267-268.

وفي مجـــال الحضـــارة يعدّ "عبدالرحمن" الداخل أول من نثر بذور الحضارة الإســـلامية في الأندلس، فقد عمل منذ قيام دولته في هذه البلاد على تجديد ما زال مـــن حضـــارة بني أمية في المشرق، وما انقرض من آثارها، وكان ولاة الأندلس الســـابقون لـــه قد أدخلوا بعض النظم الأموية في الإدارة في أرض الأندلس ولكن بنسبة محدودة، مثل تقسيم البلاد إلى كور، يتولى كل منها عامل يقيم في قاعدتها، ومـــثل النظام الحربي للدولة، فلما استقرت أركان دولة "عبدالرحمن" في الأندلس عمـــل عـــلى توثيـــق نظم الإدارة المعروفة في المشرق الإسلامي في عهد بني أمية، وتطـــبيقها تطبيقاً عملياً، وقد تمّ ذلك على نحو يثير الإعجاب، وسرعان ما ارتقت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة إلى مصاف الدولة الكبرى المستقلة[1].

لقد حرص "عبدالرحمن" الداخل على جعل "قرطبة" صورة من "دمشق" في مـــنازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية، المزينة بالأزهار والورود ونافورات المياه. كذلـــك عرف عن "عبدالرحمن" أنه كان يرسل عملاءه إلى المشرق لجلب أشجار الفاكهة من الشام. فنسمع عن عميل له أردني اسمه "سفر بن عبيد الكلاعي"، وهو الـــذي تنســـب إليه أسماء بعض الفواكه التي غرسها وأثمرت مثل : التين السفري والرمان السفري. ولا يزال هذا النوع من الرمان معروفاً في أسبانيا بحلاوته وصغر حجمه، ويسمى بنفس الاسم أيضاً[2].

لقـــد بنى "عبدالرحمن" في شمال غرب "قرطبة" قصراً صيفياً على سفح جبل قرطـــبة سمـــاه "قصر الرصافة"[3] محاكياً في ذلك قصر جدّ "هشام بن عبدالملك"، الـــذي بناه خارج "دمشق" في بادية الشام سنة 110هـــ/ 728م وسماه بهذا الاسم أيضاً، ولا زالت توجد من هذا المكان "بقرطبة" قرية تحمل هذا الاسم La Ruzafa وقـــد قلّده في ذلك أمراء بني أمية، حيث بنى ابنه "عبدالله قصراً في مدينة "بلنسية"

---

(1) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص206.

(2) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص318.

(3) لعل كلمة الرصافة جاءت من الرصف أي ضم الشيء إلى الشيء كما يفعل في رصف الشوارع. والمعنى هنا المدينة مثل رصافة بغداد، وهي بغداد الشرقية التي بناها الخليفة العباسي المنصور على الضفة الشرقية لنهر دجلة مقابل بغداد الغربية ، ومثل رصافة دمشق ورصافة قرطبة = أحمد العبادي: المصدر السابق، ص318.

وأطلق عليه نفس الاسم "الرصافة" ولا يزال موجوداً بهذه المدينة وبنفس الاسم[1].

وذكـــر "الرازي" أن "عبدالرحمن الداخل" عندما نزل "الرصافة" لأول مرة شاهد نخلة أهاجت شجنه، فتذكر وطنه الشامي، فقال بديهة :

بـــدَتْ لـــنا بـــين الرصـــافة نخـــلة

تـــناءت بـــأرض الغـــرب عن بلد النخل

فقـــلت شـــبيهي في الـــتغرب والـــنوى

وطـــول ابـــتعادي عـــن بـــني وعن أهلي

نشـــأتِ بـــأرض أنـــتِ فيهـــا غريـــبة

فمثـــلك في الإقصـــاء والمنـــتأى مثـــلي

ســـقاك غـــوادي المـــزن من صوبها الذي

يسح[2] ويستمري[3] السماكين[4] بالوبل [5]

ومما قيل في قرطبة وحسنها وجمالها :

بـــأربعٍ فـــاقت الأمصـــار قُرْطُـــبَةٌ

مـــنهنَّ قـــنطرة الـــوادي، وجامعُهـــا

هاتـــان ثنـــتان، والزهـــراء ثالـــثة

والعِـــلم أعظـــم شـــيء، وهو رابعُها[1]

---

(1) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص318.
(2) يسح : شدة المطر.
(3) يستمري : استحلاب أو استخراج الشيء المقصود هنا نزول المطر.
(4) السماكين : النجوم.
(5) راجع ، ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص10. كذلك المراكشي : المعجب، ص41-42، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص 91-92، السيد عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، ص208.

وقيل فيها أيضاً :

أقرطُبَةُ الغَرَّاء هل ليَ أوبَةٌ ... إليك؟ وهل يَدْنُو لنَا ذلك العَهْدُ

سقي الجانب الغربيَّ منك غمامةٌ ... وقعْقع في ساحات دوحاتك الرَّعدُ

ليـاليكِ أسحارٌ، وأرضُك رَوْضَةٌ ... وتُربكِ[2] في استنشاقها عَنْبرٌ وَرْدُ[3]

وفي مجال الفن المعماري استطاع عبدالرحمن إعادة بناء جامع قرطبة سنة 169هـ/ 785م، بعد أن ضم إليه كنيسة "سنت بنجنت "متبعاً في ذلك ما فعله "الوليد بن عبدالملك" عند بنائه لجامع دمشق، كما اتضحت في هذا الجامع تأثيرات الفن المعماري السوري[4].

كذلك وسع "عبدالرحمن" قصر الإمارة، فأنشأ لنفسه ولعياله أجنحة جديدة، إذ رفض السكن في الأجنحة التي كان يسكنها من سبقه من الأمراء، فصارت تلك سُنّة سار عليها من جاء بعده من الحكّام وإليه ينسب إيصال الماء إلى القصر من عيون تنبع من الجبال المجاورة لقرطبة[5].

ولم تمر فترة طويلة حتى سطعت "قرطبة"، وأصبحت كعاصمة لدولة مستقلة عظيمة تعج بالحركة الدائمة وأصبحت تنافس العواصم العربية في المشرق في كافة المجالات الحضارية والفكرية، فقد ازدهرت فيها العلوم النقلية والعقلية، واشتهر فيها العديد من العلماء الأفذاذ الذين أصبح يشار إليهم بالبنان، كما أنها لعبت دوراً

---

(1) المقري: نفح الطيب، 153/1.
(2) وتربك : أي ترابك.
(3) المقري : المصدر السابق، 155/1.
(4) السيد عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، ص209.
(5) خير الله طلفاح : حضارة العرب، ص127، 128.

مهمـــاً في نقـــل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، حيث أسست فيها مدارس عديدة قامت بترجمة المصنفات العربية إلى اللغات الأوروبية، ثم نشرها في أوروبا.

د- المجتمع الأندلسي في أوائل عصر الإمارة :

لقد كان المجتمع الأندلسي يتكون من عنصرين رئيسين هما الفاتحون وسكان الـــبلاد، وقـــد تألف كل من هذين العنصرين من شتات متكون من أصول مختلفة وأديان متباينة، فكان الفاتحون (الحكام) ، يتألفون من عرب دينهم الإسلام، وبربر اختلف في أصلهم واعتنقوا الإسلام على يد العرب. أما أهل البلاد وسكانها فكانوا يـــتكونون من مولّدين، وهـم سكان الأندلس الأصليون ومن متغربين؛ وهم أقوام جـــاؤوا إلى الأندلس في فترات زمنية متباينة، فمنهم من اندمج مع سكان الأندلس الأصـــليين، وأصـــبح منهم، ومنهم من حافظ علىأصله وتراثه[1] وفيما يلي شرح لذلك:

1- العرب :

وهم أقوام نزحت من جزيرة العرب على شكل دفعات في أثناء الفتوحات العربية الإسلامية ومن هؤلاء العرب أبناء القبائل الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أرفع مكانـــة وأعلى منزلة من كل ما عداهم لكنهم فيما بينهم متساوون. وبقى الوضع كذلـــك إلى أن أسس "عبدالرحمن الداخل" دولته، وكان محتاجاً إلى عصبة تدعمه وتثـــبت دعـــائم ملكه، فاستقدم أقرباءه الذين وجدوا في كنفه ملجأ أميناً لهم من مطـــاردة العباسيين، كما أن قسماً منهم توافدوا على الأندلس من تلقاء أنفسهم، بعد أن علموا بانتصارات الداخل، و لم يلبث هؤلاء أن كونوا في المجتمع الأندلسي طـــبقة خاصـــة من نبلاء الدم عرفت بطبقة (القرشيين) وكانت هذه الطبقة تحيُط بالأمير في بلاطه احاطة السوار بالمعصم، ولها حق الأولوية والتقدم في الاحتفالات الـــرسمية، كمـــا كانت تتمتع بامتيازات منها : الإعفاء من الضرائب وكان لبعض أفـــرادها مرتـــبات كبيرة، ولهذه الغاية أنشأ "عبدالرحمن الداخل" ديوانه المعروف

---

(1) خير الله طلفاح : حضارة العرب في الأندلس، ص86.

بديـــوان قريش، وقد نظمت هذه الطبقة تنظيماً دقيقاً حتى أصبح للقرشيين نقيب خـــاص على شاكلة نقيب الهاشميين في المشرق. وإلى جانب الأمويين برزت جماعة أخـــرى تعـــرف بمـــوالي الأمويين، وقد خصّهم الداخل منذ أيامه الأولى ببعض العطـــاءات والوظـــائف، واشتهر منهم في عصر الإمارة كبار الموظفين في البلاط فكـــانوا نواة لتلك الطبقة النبيلة التي فضلّت نبالتها على الوظيفة ولعبت هذه النواة دوراً بارزاً في تقلبات الأحداث خلال عصر الخلافة[1].

2- البربر :

وصـــلت إلى الأندلس أعداد كبيرة من البربر في حملة "طارق بن زياد"، وقد اســـتقرت هـــذه الأعداد وتوطنت في المنطقة الشمالية، وعندما أثاروا على العرب ونكّل بهم بعد فشل ثورتهم ، غادر قسم منهم الأندلس عائداً إلى افريقية. وعندما حدث القحط والجدب عام 132 هجرية تأثرت مناطقهم بهذا الجدب فحمل ذلك قســـماً منهم على ترك الأندلس والعودة إلى افريقية، وبقي قسم هناك، لم يقو على صـــد هجمـــات الدولة الأسبانية المسيحية. فلما حكمهم الأسبان تفرقوا في بقاع الأندلـــس الأخرى، وسكنوا عدة مناطق، وكان وجودهم عاملاً مساعداً ومشجعاً لـــبعض جماعـــات افريقية على الإيفاد إلى الأندلس بأعداد متفاوتة؛ منهم من أتى بدافـــع الولاء للأمراء الأمويين، ومنهم مرتزقة جاءوا طلباً للرزق. وبالرغم من أن العـــرب يحتفظون لأنفسهم بالمقام الأول إلا أنه برزت في سياسة الدولة أمور تدعو إلى الحـــدِّ مـــن الفوارق وخصوصاً عندما انتشر المذهب المالكي في الأندلس حيث ظهـــرت طبقة من الفقهاء ضربت وجهات النظر وأزالت أسباب الفرقة فبرز بين البربر رجال كانت لهم مراكز حساسة في الدولة وامتد نفوذهم إلى البلاط[2].

3- المولدون :

يطـــلق هذا الاسم على الذين دخلوا في الإسلام من سكان أسبانيا الأصليين ويســـمون أيضـــاً "المسالمة" وقد برز من بينهم في المجتمع الأسباني أناس كثيرون

---

(1) خير الله طلفاح : المصدر السابق، ص86-87.
(2) المصدر نفسه، ص87-88.

اندمج قسم منهم بالفاتحين وانصهر فيهم ونسي أصله الأسباني وانتحل لنفسه نسباً عربياً واحتفظ القسم الآخر بأصله ونسبه واسم عائلته[1].

4- المستعربون :

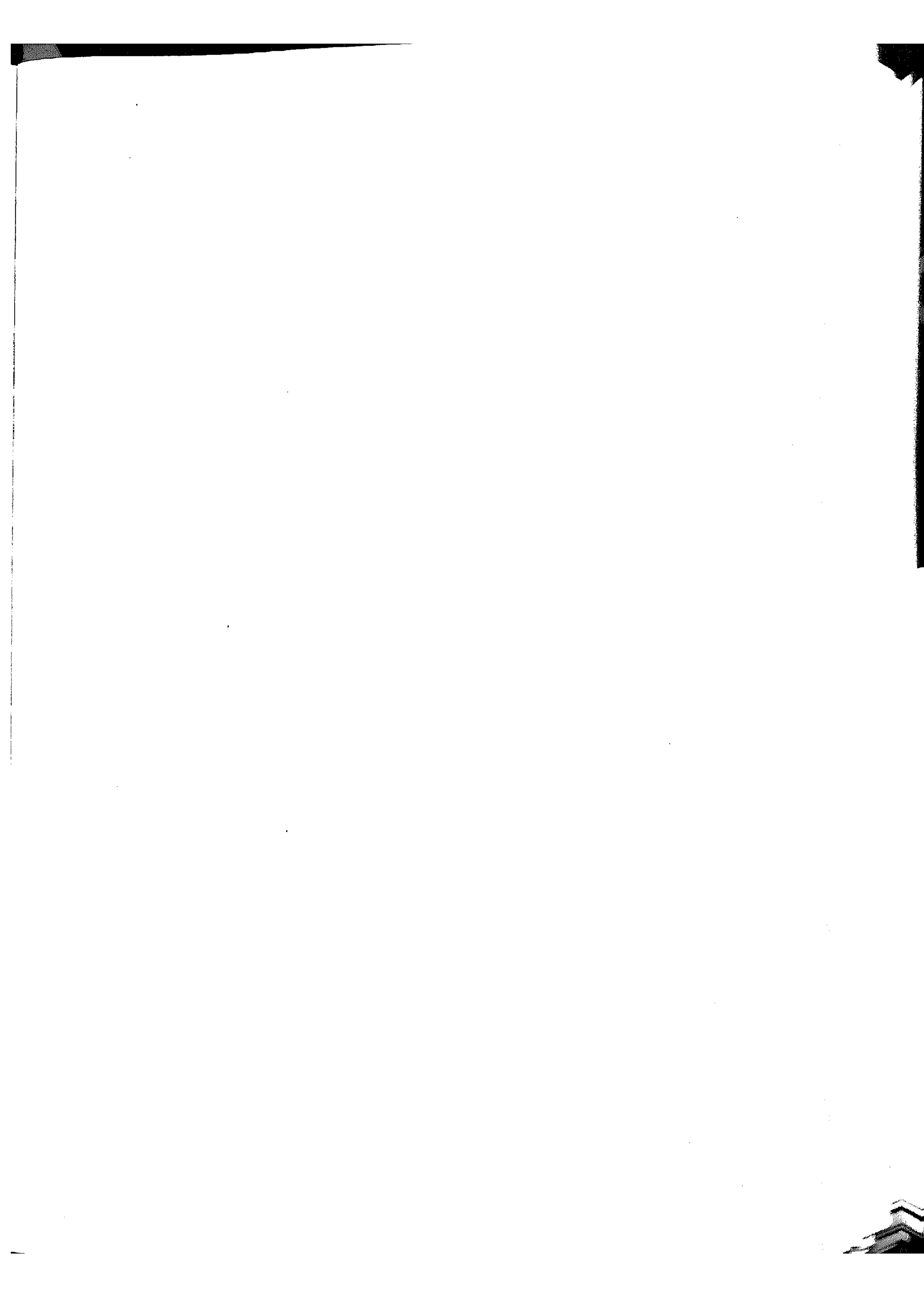
وهم مسيحيو الأسبان ويهودهم الذين بقوا على دينهم ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم الأسبان الشماليون الذين لم يخضعوا للعرب، أما كتّاب العرب فأطلقوا عليهم اسم "العجم" أو "النصارى"، وكانوا يتمركزون في المدن المهمة "كطليطلة واشـــبيلية" و"قرطـــبة"و"ماردة"، وتعتبر "طليطلة" مركزهم الرئيسي وفيها مطران الكنيســـة الأسبانية وكان تعيينه وتعيين أساقفة المراكز الأخرى يخضع لمصادقة أمير الـــبلاد أو خليفـــتها. أما اليهود فنظراً لما لاقوه من اضطهاد على يد القوط ، فقد وقفـــوا إلى جـــانب العـــرب مؤيدين، فاستخدمهم العرب في حاميات المدن التي فتحوها، ولهذا عاملهم العرب بلطف ورفق كبيرين، ونعموا وترفهوا في ظل حكم العرب، وبالرغم من انتشارهم في معظم المدن الأسبانية، إلا أن مركز ثقل سلطانهم كـــان في "غـــرناطة" وكـــورة "إلـــبيرة" حتى كان يطلق على "غرناطة" (غرناطة اليهود)[2].

---

(1) خير الله طلفاح : المصدر السابق، ص88.
(2) المصدر نفسه ، ص88.

الفصل الرابع

أمراء بني أمية في الأندلس
بعد عبدالرحمن الداخل



1- هشام بن عبدالرحمن (الرضا) أو المُرْتَضَى

(172-180هـ / 788-796م)

هو أبو الوليد هشام الرضا بن عبدالرحمن الداخل، ولد عام 139هـ، وأرتقى عرش الحكم في أول يوم من جمادى الأولى عام 172هـ (788م)، وامتد حكمه أكثر من سبع سنوات، إذ توفي في الثالث من شهر صفر عام 180هـ (796م)، واشتهر بثقافته العالية وعلمه الواسع وبتقواه التي أهلته لينال لقب الرضا، وفي عهده بدأ المذهب المالكي ينتشر، وبدأ فقهاء هذا المذهب يلعبون دوراً بارزاً في السيطرة على أمراء الحكم وتوجيه شؤون الدولة(1).

◈ الثورات الداخلية في عهده :

عندما تمت البيعة "لهشام" وتولى مقاليد الإمارة في "قرطبة" ثار عليه أخوه الأكبر "سليمان"، الذي كان والياً على "طليطلة" فدعا لنفسه فيها وفيما جاورها، ثم لحق به أخوه "عبدالله" المعروف "بالبلنسي" في "طليطلة"، مما حمل "هشاماً" على أن يذهب بجيش لحصارهما في "طليطلة"، ولكن "سليمان" خرج مستخيفاً إلى "قرطبة" ليتولى الأمور فيها، وقد فشل في ذلك لأن "هشاماً" أرسل إليه ابنه "عبدالملك" في جيش لمطاردته، ففر إلى "ماردة" فطارده عامل هشام فلجأ إلى "تُدمير" (مرسية) وبعد حصار دام شهرين "لطليطلة" عاد "هشام" إلى "قرطبة" وشعر "عبدالله" بفشل الثورة فقدم إلى "هشام" في "قرطبة" يلتمس صفحه، فعفا عنه، وأكرم مثواه. وأرسل "هشام" جيشاً بقيادة ابنه "معاوية" إلى "تُدمير" لتعقب أخيه "سليمان"، وضيَّق عليه الحصار، مما جعل "سليمان" يطلب الأمان، فوافق "هشام" على طلبه شريطة أن يعبر "سليمان" بأهله وولده إلى المغرب، وقد أعطى الأمير "هشام" أخاه "سليمان" ستين ألف دينار مقابل ذلك، وسار معه أخوه

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 2/61. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص271.

"عـبدالله" وأقاما بعدوة المغرب وانتهت بذلك ثورة الأخوين سنة 174هـ (790م)[1].

كذلك قامت ضده عدة ثورات داخلية أخرى، فقد ثار "سعيد بن الحسين الأنصارى" "بطرطوشة" وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه الأنصاري وأخرج عامل "هشام" "يوسف العبسي" فعارضه "موسى بن فرتون" في "المضرية" داعياً لهشام حتى تمكن من قتله[2]، كما ثار عليه "مطروح بن سليمان" بن يقطان" (كان أبوه الأعرابي قد تواطأ مع شارلمان لغزو الأندلس كما مر بنا) بمدينة "برشلونة"، وكثر جمعه فاستولى على "سرقسطة" و"وشقة" فبعث إليه "هشام" جيشاً بقيادة "عبيد الله بن عثمان" فضيق الحصار على سرقسطة حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار، فخرج مطروح في بعض الأيام متصيداً فاغتاله أحد أصحابه وذلك في سنة 175هـ/ 791م وبذلك انتهت هذه الثورة في الشمال[3].

كذلك قام البربر بثورة في منطقة "رُندة" المعروفة بإقليم تاكُرُنَّا سنة 178هـ/ 795م، حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فأعادهم "هشام" إلى الطاعة، فلم يمتثلوا فسير إليهم جيشاً كبيراً بقيادة "عبدالقادر بن أبّان" مولى "معاوية بن أبي سفيان" فشتت جموع البربر وقتل كثيراً منهم وخرّب ديارهم. وبالقضاء على تلك الثورة استقرت الأمور الداخلية في البلاد[4].

◈ الحروب الخارجية :

كانت الثورات الداخلية التي قامت في الأندلس أيام "عبدالرحمن الداخل" دافعاً للدول والإمارات المسيحية في الشمال لكي تُغير على حدود الأندلس، وتقتطع منها بعض الأجزاء، كما كان لبعض هذه الدول أصابع في تحريك بعض هذه الثورات وتشجيعها على مواصلة الفتنة، لذلك كان على "هشام" بعد أن

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 61/2، 63. كذلك محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص272.
(2) ابن الأثير : الكامل ، 117/6، 118. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 63/2.
(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 63/2.
(4) المصدر نفسه ، 64/2.

استقرت أموره الداخلية أن يتوجه بجيوشه إلى تلك الدول التي تعمل على إثارة الفتن الداخلية، وتعمل على إضعاف المسلمين والاستيلاء على أراضيهم[1].

ففي سنة 175هـ/ 791م سيّر "هشام" إلى الشمال جيشاً كبيراً تحت قيادة "عُبيد الله بن عثمان"، حيث وصل "سرقسطة"، واحتل مدينة "طرسونة"، وفي سنة 176هـ/ 792م وصل هذا القائد إلى "ألبة: Alva". والقلاع؛ حيث اصطدم بالنصارى فانتصر عليهم وشتت جموعهم، وقتل منهم تسعة آلاف، كما سيّر في نفس السنة جيشاً آخرا تحت قيادة "يوسف بن بُخْت" إلى "جلّيقيّة" حيث التقى بملكها برمود الكبير ملك آستوريش، فدارت بينهم معركة كبيرة انتصر فيها المسلمون وقتلوا من جيش عدوهم عشرة آلاف ، وغنموا منهم مغانم كثيرة[2].

وفي سنة 177هـ/ 793م أعد الأمير هشام جيشاً كبيراً بقيادة حاجبه "عبدالملك بن عبدالواحد بن مغيث"، فتوجه إلى الشمال حيث وصل إلى "جرندة"، وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها، ثم استولى على عدد من المعاقل والحصون، ونفذ إلى "سبتمانيا" وزحف على"أربونة" قاعدة الثغر الإسلامي القديم، فاستولى عليها وبقي الجيش شهوراً يجوس خلال بلادهم. ثم عاد الجيش إلى قرطبة منتصراً محملاً بالغنائم الكثيرة. وتعد هذه الغزوة من أشهر مغازي المسلمين بالأندلس، وأرغم أسرى النصارى على حمل وجرّ أحجار من سور أربونة حتى قرطبة، حيث بنى من هذه الأحجار جزءاً من جامع قرطبة تخليداً لهذه الغزوة[3].

وفي سنة 179هـ/ 795م، أرسل الأمير "هشام" جيشاً كبيراً بقيادة "عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث" إلى "جليقية"، فتوغل فيها حتى بلغ "أسْتُرقة"، وكان "أذفونش" ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين، واستعان بحلفائه من "البشكنس" وأهل تلك النواحي، وأمر سكان السهل بالصعود إلى الجبال، ووضع كمائن ضخمة من فرسانه في قمم الجبال حتى تأخذ المسلمين على غرة، ولكن

---

(1) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ، ص273-274.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 63/2. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص274.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 64/2. كذلك ابن الأثير : الكامل، 135/6؛ محمد زيتون: المصدر السابق، 274.

قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده "فرج بن كنانة" في أربعة آلاف فارس وسار على أثره فالتقوا بكمين الجلالقة وتمكنوا من هزيمته ، وبثوا الخيل في القرى، ثم تقدموا إلى "وادي كُوثِّية" فالتقوا بكمين آخر من ثلاثة آلاف فارس بقيادة "غُنْدُ مـــاره" فانتصر المسلمونَ عليهم وأسروا قائدهم، ثم تتبعوا "أذفونش" ملك جليقية حتى وصل عاصمة ملكه فتبعه "فرج بن كنانة" في عشرة آلاف فارس، فلما قرب مـــنه انهزم وأسلم جميع عدته ودخائره فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مـــزقت قوى الجلالقة وقد حققت هذه الغزوة الغرض منها ببث الذعر في نفوس الجلالقة فسكنوا إلى حين، وساد الأمن في الولايات الشمالية[1].

◈ الإصلاحات في عهده :

لقـــد استطاع "هشام" القضاء على الفتن الداخلية، فساد الأمن والاستقرار في ربـــوع بـــلاد الأندلس، وحمى حدود الدولة ورفع راية الجهاد ووجه الحملات المتتالية إلى أعدائه في الشمال فارتفعت راية الإسلام عزيزة خفاقة، وهابه جيرانه[2].

وفي مجـــال العمـــارة اهـــتم الأمير "هشام" بذلك اهتماماً جيداً، حيث أتم مسجد قرطبة الجامع، الذي كان أبوه قد بدأ بإنشائه، وتوفي قبل إتمامه، كما أنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بعدد من الأبنية والحدائق الفخمة وجدّد قنطرة قرطبة، وأنفق في بنائها أموالاً كثيرةً[3]، وفي عهده جعلت اللّغة العربية لغة التدريس في مـــدارس ومعـــاهد النصارى واليهود، وكان لذلك أثره البالغ في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة، وبثّ روح التفاهم والوئام بينها ولا سيما بين المسلمين والنصارى ، مما جعل العديد من النصارى يعتنقون الدين الإسلامي، بعد أن وقفوا عـــلى أصـــوله وتفاصـــيله[4]، كما كان لهذا العمل دوره المهم في نشر الحضارة الإسلامية فيما بعد في أوروبا.

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 64/2-65. كذلك ابن الأثير : الكامل، 146/6، محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص274-275.

(2) محمد زيتون : المصدر السابق، ص275-276.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق، 66/2.

(4) محمد عنان : دولة الإسلام، ص226. كذلك محمد زيتون، المصدر السابق، ص276.

لقــد عمل الأمير "هشام" على نشر العدل في كافة بلاد الأندلس، وطبّق في ذلك الكتاب والسنة، "قبض الزكوات من طُرقها، ووضعها في حقّها؛ لم يأخذه في الله لــومٌ، ولا تعــلّم به ظلمٌ.. وكان هشام يبعث إلى الكُورَ قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العُمَّال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم، فيقع نظره بهدم ما تكشفه المحنة له عندهم"[1]. أي يصادر كل مال حرام.

وفي عهده انتشر مذهب الإمام مالك[2] الذي كان معاصراً له، حيث كان "هشــام" يجــلّ هــذا الإمام ومذهبه، لهذا انتشر هذا المذهب في الأندلس انتشاراً واســعاً، وكــان أهــل الأندلس قبل ذلك يعملون بمذهب "الأوزاعي" إمام أهل الشام[3]. أحد أئمة الإمام الشافعي (سنة: 157هـ/ 774م) في الأندلس.

تــوفي الأمــير "هشام" في صفر سنة180هـ/ 796م، ودفن بقصر قرطبة، وتولى ابنه الحكم الأول الربضي الحكم من بعده[4].

---

(1) ابن عذاري : المصدر السابق، 66/2.

(2) توفي الإمام مالك سنة 179هـ، وكام معارضاً للعباسيين لاضطهادهم العلويين. محمد زيتون المصدر السابق، ص276-277.

(3) محمد زيتون : المصدر السابق، ص276-277.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق، 66/2.

2- الحكم الأول بن هشام (الربضي)

(180-206هـ / 796-821م)

بويـــع الحكـــم[1] بن هشام[2] بعد وفاة أبيه بليلة واحدة يوم 8 صفر سنة 180هـــ/796م، وعمره ست وعشرون سنة، وذلك بعهد من والده.

كـــان "الحكم" شديد الحزم، ماضيٍ العزيمة، عظيم الصوْلة، حسن التدبير، وكان يُسلّط قضاته وولاته على نفسه، فضلاً، عن ولده وخدمه[3].

وهـــو أول من جند الأجناد، واتخذ العدّة، وكان أعظم بني أمية بالأندلس، وأشـــدهم إقداماً ونجدة، وقد تشبَّه "بأبي جعفر المنصور" من خلفاء بني العباس في شـــدّة الملك وتوطيد الدولة، وقمع الأعداء[4]. وقد عمل على حماية الدولة ونشر الأمن فيها فحارب الثوار في الداخل ودافع المهاجمين من الخارج بجيش عظيم قوي أعده لذلك، وحرص على العدل والإنصاف بين الرعية، حتى أذعنت له معظم بلاد الأندلس بالطاعة[5].

أ- الثورات الداخلية في عهده :

1- ثورة عميه سليمان وعبدالله ابني عبدالرحمن بن معاوية :

فقـــد نُفـــي عماه في عهد أبيه بالمغرب، فأقام "سليمان" بطنجة بينما كان "عبدالله" يمضي وقته متجولاً في بلاد المغرب، فزار "إبراهيم بن الأغلب" بالقيروان، كمـــا زار الإمام "عبدالوهاب بن رستم الأباضي" في تاهرت، وهناك، علم بموت

---

(1) كنيته أبو العاصي، وأمه زخرف، ولد سنة 154هـــ، وتوفي سنة 206هـــ بعد أن حكم ستًّا وعشرين سنة وأحد عشر شهراً = ابن عذاري البيان المغرب 68/2.

(2) انظر ترجمته في كل من : ابن عذاري: البيان المغرب 68/2 – 80، ابن الخطيب ، لسان الدين : تاريخ أسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف (لبنان 1956) ص14-18، أخبار مجموعة ص124-135، المقري: نفع الطيب، 338/1-334، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص64-74.

(3) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص14.

(4) المقري: نفع الطيب، 240/1.

(5) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص277.

أخيــه هشام وتولية ابن أخيه الحكم، فأسرع بالجواز إلى الأندلس، علّة يسبق أخاه "ســليمان"، فــتزل بالــثغر الأعلى، إذ كان يعلم كراهية سكان هذا الثغر للأمير الجديــد، ونــزل "بسرقسطة" عند "بهلول بن مرزوق" الثائر على الأمير الحكم في ناحية الثغر [1]، وقد حدث ذلك في سنة 181هـــ/ 797م[2]، ولكنه لم يجد هناك من يؤيده في توليته الحُكْم وعزل الأمير الحكم، وباءت جهوده بالفشل، فرحل مع ولديــه "عبيد الله" و"عبدالملك" لمقابلة شارلمان في "إكس لا شابل"، وهناك قابله وحثّه على مهاجمة الأندلس[3]. أما "سليمان" فقد عَبَرَ إلى الأندلس سنة 182هـــ/ 798م، واســتطاع أن يجمــع جيشاً ليُهاجم به "قرطبة"، ولكن "الحكم" استطاع التغــلب عــليه ، فعــاود "سليمان" القتال والتقى جيشه مع جيش "الحكم" في "بــنجيطة" فانهزم "سليمان" وجيشه، ولكنه مع ذلك عاد إلى القتال للمرة الثالثة، وجمع جيشاً من البربر سنة 183هـــ/ 799م وتوجه إلى "استجه" فسار إليه الحكم بجيشــه، فدارت بينهم حروبٌ شديدة لعدة أيام، ثم دارت الدائرة على "سليمان" وجــنوده، ثم عاود سليمان الكرة في نفس العام ولكنه انهزم أيضاً، وفي سنة 184 هـــ/ 800م حشد "سليمان" جيشاً من المشرق، فاستولى على "جيان"، ثم "إلْبيرة"، فانضــم إليــه أعداد من سكانهما ، فتوجه إليه "الحكم" بجيشه ودارت معركة بين الطــرفين اســتمرت عــدة أيام، كادت الهزيمة أن تحل خلالها "بالحكم" ، إلا أنه استطاع في النهاية التغلب على عمه "سليمان"، الذي فرّ من المعركة، بعد أن ترك على أرض المعركة أعداداً هائلة من القتلى من أنصاره، وبعث الحكم في أثره "أصبغ بــن عبدالله"، فلحقه في جهة "ماردة" فقبض عليه وأتى به إلى الحكم فأمر بقتله ، وبعث برأسه إلى "قرطبة"[4]، أما عمه "عبدالله" فبعد عودته من بلاد الفرنجة توجه إلى "بلنســية"، وهناك وجد تأييداً له من أهاليها، وأقام بها شبه مستقل عن قرطبة

---

(1) Lévi – provencal, op. cit. p.p. 152, 153.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 69/2.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص220.

(4) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 70/2 وكذلك ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص15، محمد زيتون المسلمون في المغرب والأندلس، ص278-279.

بعد أن عفا عنه الحكم[1]، وصالحه سنة 186هـ/ 802م، مقابل بقائه طول حياته "ببلنسية"، وبالفعل قضى "عبدالله" بقية حياته في "بلنسية"، حتى عُرف "بعبدالله البلنسي"، وهو الذي أقام ربض الرصافة ببلنسية[2]، وبعث "عبدالله" إلى "الحكم" بإبنيه فزوّج أحدهما وهو "عبيدالله" أخته (أخت الحكم) وولاه قيادة جيوشه، فعرف لذلك بصاحب الصوائف، وبذلك استطاع الحكم التخلص من أولى الثورات المعارضة لحكمه[3].

2- ثورة أصبغ بن وانسوس :

ومن الثورات التي قامت ضده ثورة "أصبغ بن عبدالله بن وَانْسُوس" في "ماردة"، وذلك في سنة 190هـ/ 805م، بسبب وشاية قام بها أحد أعداء "أصبغ" بين "الحكم" وبينه فخاف أصبغ وتوقع العقوبة والسطوة من الحكم، فدخل "ماردة" وثار بها والتف حوله البربر، فخرج إليه "الحكم" وحاصره ولكنه اضطر لفك الحصار عنه والعودة إلى "قرطبة" لفتنة قامت فيها، ثم تابع "الحكم" حملاته على "ماردة" لمدة سبع سنوات، وأخيراً استمال جماعة من أهل "ماردة" وبعض ثقاة "أصبغ" فمالوا إلى الحكم، وفارقوا أصبغ مما دعاه إلى طلب الأمان من الحكم ، فأمّنه وخرج من "ماردة" وأقام عند "الحكم" في "قرطبة"[4].

3- ثورة طليطلة :

وفي سنة 191هـ/ 806م تمكن "الحكم" من الإيقاع بأهل طليطلة التي كانت مركزاً للثورة وملجأ لكل خارج على الدولة منذ قيام الدولة الأموية نظرا لحصانتها وكثرة المولدين بها والنصارى المعاهدين، وكان أهلها يعتزون بكثرتهم

---

(1) كاتبه عبدالله طالباً الأمان فأمّنه سنة 186هـ، ثم صالحه سنة 187هـ بإجراء الأرزاق عليه، وذلك بأن يعطى ألف دينار كل شهر، فعقد الصلح على ذلك، على أن يسكن عبدالله بلنسية، ثم بعث الحكم في ولدي عبدالله فزوّج أحدهما أخته أم سلمة=ابن عذاري: البيان المغرب، 70/2.

(2) Levi-provenc, al, op. cit, p 136, N,ote 2.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 70/2-71. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص221.

(4)ابن عذاري : المصدر السابق، 77/2. كذلك محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص279.

وثـــروهم وحصـــانة مدينـــتهم، وأنها كانت دار ملك القوط مما يدعوهم للتمرد والخـــروج عـــلى حكومة قرطبة، وقد ثار فيها سنة 181هـــ/ 797م "عُبيدة بن حُمَيْـــد" ، وتمكن "عمروس بن يوسف" حاكم طَلَبيرة – وهو من المولدين – من القضاء عليه بطريق الغيلة، بعد عدة وقائع خاضها ضده، فسكنت الثورة مدة، مما دعـــا "الحكم" إلى إعمال الحيلة في الظفر بهم، واستعان "بعمروس بن يوسف" من أهـــل وشـــقة، الذي خضع للحكم فبالغ الأخير في إكرامه وأطلعه أنه عازم على الإيقـــاع بأهل "طليطلة"، فولاه طليطلة فمضى إليها وأنس به أهلها واطمأنوا إليه وأحســـن معاملتهم، وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية وبموافقتهم على خلع طاعتهم فمالوا إليه، ووثقوا به ، فأنشأ بموافقتهم قلعة حصينة في ظاهر طليطلة لإيواء الجند والموظفـــين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم، ثم سير الحكم جيشاً بقيـــادة ولده "عبدالرحمن" لقتال نصارى الشمال في الظاهر، ثم عرج هذا الجيش أثـــناء العودة على طليطلة وخرج "عمروس" ومعه أعيان المدينة للقاء قائد الجيش فأكـــرمهم "عبدالرحمن" وأحسن إليهم، ثم أقام "عمروس" وليمة عظيمة في القلعة الجديـــدة دعـــا إليهـــا ألوفاً من أعيان وكبراء طليطلة وقرر أن يدخلوا من باب ويخرجوا من باب آخر ليقل الزحام، فأتى الناس أفواجاً وكان المستقبلون يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام فوجاً فوجاً، وكلما دخل فوج أخذ إلى ناحية معينة من القـــلعة فضربت أعناقهم وألقيت جثثهم في حفرة كبيرة أعدت لذلك، وأصوات الطـــبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم، فلما تعالى النهار أتى البعض فلم ير أحـــداً فقـــال أيـــن الناس، فقيل إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر، فقال ما لقيني منهم أحد. وعلم بالمكيدة فأعلم الناس هلاك أصحابهم فنجّى مـــن بقى منهم، وهلك في تلك المذبحة التي عرفت بواقعة "الحفرة" سنة 191هـــ/ 806م عـــدد كبير من وجوه طليلطة وأعيانها يقدره ابن عذاري[1] بسبعمائة وابن القوطيـــة وابن الأثير[2] بخمسة آلاف، وكانت ضربة قوية لأهل هذه المدينة قضت عـــلى زعمائهم وأضعفت شوكتهم، فحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام ولده عبدالرحمن.

(1) انظر البيان المغرب، 2/69-70.

(2) انظر تاريخ افتتاح الأندلس ، ص65، 67، الكامل في التاريخ ، 6/199-201.

4- ثورة الربض(*) الأولى :

في سنة 189هـ/ 804م صلب الحكم اثنين وسبعين رجلاً بقرطبة، وذلك لأنهم أرادوا الغدر به والثورة عليه [1].

5- ثورة الربض الثانية :

وفي رمضان سنة 208هـ / 817م قامت ثورة خطيرة في الربض، وكان سببها على ما يبدو راجع إلى تشاغل "الحكم" باللّهو والصيد والشرب وقتل جماعة من أعيان قرطبة في الثورة الأولى، في رواية ابن الأثير [2]. أما ابن عذاري، فيخالف ذلك حيث يرى أن أسباب هذه الثورة كانت بطراً بالنعمة ومللاً للعافية، وطبعاً جافياً وعقلاً غبياً وسعياً في هلاك أنفسهم [3].

وهذا يدل على تطاول العامة والغوغاء للانتقاص من سلطة الأمير والغض من مكانته، فشرع في تحصين قرطبة وعمارة أسوارها، وارتبط الخيل على بابه واستكثر من المماليك ورتّب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح فزاد ذلك من حقد أهل قرطبة وبغضهم له [4].

ثار العامة بقرطبة ، واجتمع أهل الأرباض بالسلاح وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر، وهي ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة "شقندة" وزحف الثوار إلى قصر الإمارة من كل ناحية، واجتمع الجند والأمويون والعبيد بالقصر وفرّق "الحكم" الخيل والأسلحة وجعل أصحابه كتائب ووقع القتال بين الفريقين فغلبهم أهل الربض فنزل الحكم من أعلى القصر ولبس سلاحه وركب وحرض الناس فقاتلوا بين يديه قتالاً شديداً. عند ذلك لجأ الأمير إلى الحيلة، فأرسل "عبيدالله بن عبدالله البلنسي" المعروف بصاحب الصوائف

(*) الربض ضاحية من ضواحي قرطبة على ضفة النهر الأخرى مقابل قرطبة.

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 71/2.

(2) ابن الاثير : الكامل ، 198/6، 199.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 76/2.

(4) المقري : نفح الطيب، 341/1-342. كذلك محمد زيتون : المصدر السابق، ص282.

و"إسحاق ابن المنذر القرشي" فثلم (فتح) في السور ثلمة وخرج منها ومعه قوة من الجيش وأتوا الربض فأشعلوا النار فيه، وما كادت ألسنة النار تظهر حتى هرع الكثير من أهل الربض إلى ديارهم لحماية أهلهم ومنازلهم فأخذتهم السيوف من أمامهم ومن خلفهم، وقتلوا قتلاً ذريعاً، وطاردوهم في كل مكان، ونجا منهم العدد القليل، وأُسّر منهم عدد كبير انتقى منهم الحكم ثلاثمائة رجل؛ من وجوههم فقتلهم وصلبهم على الوادي، صفاً واحداً من المَرْج إلى المُصَارة[1]. وقد استمر القتل والنهب والحريق في أرباض قرطبة ثلاثة أيام . ثم أمر الحكم جنده بالكف عنهم ونودي بالأمان على أن يرحلوا عن قرطبة، ومن بقى بعد ثلاثة أيام قتل وصلب[2]، وتفرق أهل الربض في جميع أقطار الأندلس، فعبر جماعة منهم إلى المغرب بالأهل والولد، فأقاموا في عدوة الأندلس في مدينة فاس[3]، وتوجهت جماعة كبيرة منهم قوامها خمسة عشر ألفاً في عدد من السفن إلى مدينة "الإسكندرية"، واستقروا فيها، وبعد عشر سنوات غادروا الإسكندرية وتوجهوا إلى جزيرة "أقريطش" (كريت) وأسسوا دولة استمرت زهاء قرن وثلث حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة 350هـ/ 961م[4]، وهرب مجموعة كبيرة أخرى من علمائهم إلى ناحية "طليطلة" ثم أمنّهم الحكم، وكتب لهم أماناً على الأنفس والأموال، وأباح لهم التفسح في البلدان حيثما أحبُّوا من أقطار مملكته، ما عدا قرطبة أو ضواحيها[5]. وبذلك استطاع الحكم التخلص من هذه الثورة التي كادت أن تقوض عرش حكمه.

ب - الحروب الخارجية :

لما بويع الحكم بالإمارة سنة 180هـ/ 796م واستوثق له الأمر، وجه حاجبه "عبدالكريم بن عبدالواحد" غازياً بالصائفة إلى "ألبة" و"القلاع" بجيش

---

(1) ابن عذارى : البيان المغرب، 2/76-77.

(2) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص283.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 2/77.

(4) محمد زيتون : المصدر السابق، ص283.

(5) ابن عذاري : المصدر السابق، 2/77. كذلك ابن الأثير : الكامل، 6/299-300، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص68-69.

عظـيم، قسمه إلى ثلاثة أقسام، وقدَّم على كل قسم قائداً، وأمر كل واحد منهم بالإغارة على ناحية من النواحي التي قصدوها، فانطلقوا إلى تلك النواحي فأغاروا، واسـتباحوا وأثخنوا في القوم، ورجعوا غانمين ظافرين ، ثم عادوا ثانية إلى الإغارة فجـاوزوا خليجاً من البحر كان الماء قد جزر عنه وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج، ظناً منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم فجاءهم ما لم يكن في حسبانهم، فغنم منهم المسلمون جميع أموالهم وأسروا الرجال وسبوا النساء وعادوا سالمين(1).

وفي سـنة 193هـــ/ 808م جمع "لويس بن شارلمان" جموعه وزحف بها لحصار "طرطوشة"، فبعث الحكم جيشاً كثيفاً بقيادة ابنه "عبدالرحمن"، وانضم إليه "عمـروس" و"عبدون" عاملا الثغر ومعهم أهل الثغر وتبعهم كثير من المتطوعين، واشتبك المسلمون مع "لويس" ودارت بين الطرفين حرب شديدة انتهت بانتصار المسـلمين انتصاراً حاسماً على جيش الفرنجة(2)، وهكذا انهزمت قوات الفرنجة، ولم يعاود "لويس" الكرة مرة ثانية على "طرطوشة". ومع ذلك فقد حاول الفرنجة بعد ذلك بسنوات الاستيلاء على "وشقة"، ولكن هذه المحاولات لم تأت بنتيجة(3).

وفي أثـناء انشـغال "الحكـم" بالقضاء عليه ظل الفرنجة يعيثون في الثغور الفسـاد، ممـا دعـا "الحكـم" إلى الخروج بنفسه لملاقاة الفرنجة، وذلك في سنة 196هـــ/ 811م "فافتـتح الثغور والحصون، وخرَّب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب، وعاد إلى قرطبة ظافراً"(4).

وفي سـنة 196هــ/ 811م غزا الحكم بلاد الفرنجة، وأوغل فيها، وانتصر عـليهم، ثم قفل راجعاً (5). وفي سنة 199هــ/ 814م أغزى الحكم عمه "عبدالله البلنسـي" الغـزوة المشهورة إلى "برشلونة"، فانتصر على الفرنجة وهزمهم "وقتل عامـتهم وفرّق جمعهم. فلما أقْلع عن القتال وانْجَلَتْ الحرب، نصب قناة طويلة،

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 69/2 . كذلك ابن الأثير الكامل، 149/6، 150.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 72/2-73. كذلك المقري: نفح الطيب، 340/1.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص226.

(4) المقري : المصدر السابق، 340/1.

(5) ابن عذاري : المصدر السابق، 72/2.

فأثبتت في الأرض؛ وأمر بالرؤوس، فجمُعت وطُرحت حَوَالَيْها حتى غابت القناة فيها و لم تظهر"[1].

وكانت آخر غزوة غزاها المسلمون إلى الشمال في عهد "الحكم"، هي الغزوة التي كلف بقيادتها الوزير "عبدالكريم بن مغيث" إلى "جليقية"، حيث قاد هذا الوزير جيشاً ضخماً فتوغل في أرض العدو وأهلك معائشها ومرافقها وحطّم زروعها وهدم منازلها وحصونها انتقاماً لما أنزلوه بالمسلمين، وقد تجمع "الجلالقة" وحلفاؤهم "البشكنس" ونزلوا بعدوة نهر "أرون" وصار النهر حاجزا بينهم وبين المسلمين، فلما أصبح نهض "عبدالكريم بمن معه إلى مخائض الوادي، ونهض الفرنجة إليهم فقاتلوهم على كل مخاضة منها، فجالدهم المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين، واقتحم الفرنجة النهر إليهم، فاقتتلوا على مخاضته، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فأدخلوهم في المضايق، فأخذتهم السيوف والطّعنُ بالرماح، والغرق في المياه، فقتل من الأعداء الفرنج عددٌ عظيمٌ لا يُحصى لكثرته، ومات أكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضاً، وصاروا بعد المُطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف إلى القذف بالحجارة ، وأكثر الفرنج الحُرَّاس على ضفتي النهر، وحاولوا منع المسلمين من جوازه، حيث حفروا الحفائر، وخندقوا الخنادق، ثم نزلت الأمطار، وتعذر جواز النهر وضاقت الحال بالمسلمين، فقفل "عبدالكريم" بجيشه ظافراً في سابع ذي الحجة سنة 200هـ (815م)[2].

توفي الحكم في آخر سنة ست ومائتين 26 ذي الحجة (821م) بعد أن وطّد ملك بني أمية ، وقضى على أعدائه. لقد كان الحكم على عكس أبيه رجلاً شديد البأس قوي الشكيمة، استعمل العنف والشدة في مواجهة خصومه[3]، كذلك اهتم بنشر العدل وسيادة الإنصاف بين الرعية.

وقبل وفاته أخذ البيعة لابنه "عبدالرحمن" ثم "المغيرة" من بعده ، وكان ذلك في الحادي عشر من ذي الحجة سنة 206هـ (821م) وبعد وفاته صلى عليه ابنه عبدالرحمن ودُفن في مقبرة القصر المعروفة بالروضة[4].

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 74/2.
(2) المصدر نفسه، 75/2. كذلك بن الأثير: الكامل، 318/6، ابن خلدون: العبر، 127/4.
(3) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص226.
(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 77/2.

3- عبدالرحمن الثاني الحكم (الأوسط)

(206-238هـ / 821-852م)

هـو أبو المُطَرِّف عبدالرحمن بن الحكم ، الابن الأكبر للحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، ولد بطليطلة في شعبان سنة 176هـ / 792م، عهد إليه أبوه بولاية العهد باعتباره أكبر أولاده، ثم لأخيه المغيرة من بعده، فلما توفي الحكم عام 206هـ/ 821م خلفه ابنه الأمير عبدالرحمن ، وكان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين سـنة وتسعة أشهر، وتوفي ليلة الخميس الثالث من شهر ربيع الآخر سنة 238هـ (852م) عن عمره قد بلغ اثنتين وستون سنة[1]. وعُرف بعبدالرحمن الأوسط، لأنه ثـاني ثلاثـة سمـو بهذا الاسم، وقاموا بأمر الأندلس، وهما : عبدالرحمن الداخل، وعبدالرحمن الناصر[2].

كـان عالمـاً بعلوم الشريعة والفسلفة، وكانت أيّامه أيام هدوء وسكون ، حيـث اسـتطاع القضاء على الثورات والفتن الداخلية، كما كثرت الأموال في عهـده، واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب إليها المياه من الجبال، وأقام الجسور، وبـنى الجوامع، وزاد في جامع قرطبة رواقين[3]، ومات قبل أن يستتمه، فأتمه ابنه محمد من بعده[4].

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 80/2، كذلك المقري: نفح الطيب، 344/1-347، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص75.

(2) المقري : المصدر السابق، 347/1.

(3) قال ابن حيان في المقتبس (نسخة القرويين: 140) نقلاً عن الرازي: وزاد الأمير عبدالرحمن ابن الحكم الزيادة الأولى الظاهرة من قبلته للداخل عليه...، وقد كانت أبهاء المسجد تسعة أبهاء زاد عليها عبدالرحمن بهوين من كل جانبيه فكملها أحد عشر بهواً، وكان الشروع في هذه الزيادة سنة 234...، وقال ابن القوطية: مات الأمير عبدالرحمن وقد بقي عليه في هذه الزيادة بقايا يسيرة من تنجيد وزخرفة أتمها الأمير ابنه محمد الوالي في مكانه = انظر ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص84.

(4) المقري : نفح الطيب، 347/1.

كـــان الأمـــير عـــبدالرحمن شاعراً أديباً ذا همّة عالية، اشتهر بكثرة غزواته وفتوحاته العظيمة، لم يَلْقَ المسلمون معه بؤساً، و لم يروا في أيامه يوماً عبوساً، وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل، وترتيب الخدمة، وكسا الدولة أبهـــة العظمة، فأحدث الطُّرُز، واتخذ السّكة بقرطبة، وفخمّ مُلكه. وفي أيامه دخل الأندلس أنفس الأشياء وغرائبها، وجاءه ذلك من بغداد وغيرها، وعند قتل الخليفة العباسي "محمد الأمين" ، ابن هارون الرشيد (198هـــ/ 813م) سيق إلى الأندلس أشـــياء جديـــدة ثمينة من مجوهرات ومتاع، من بينها العِقْد المعروف بعِقْد الشِّفاء، الذي كان "الزبيدة" أم جعفر[1].

أ- الثورات والفتن الداخلية :

في أوائل عهده خرج عليه عم أبيه "عبدالله البلنسي" – وكان لم ييأس بعد في الظفـــر بالإمـــارة – وسار إلى "تُدمير" يريد قرطبة، والتف حوله جمع، فتجهز "عـــبدالرحمن" للقائه ولكن "عبدالله" اضطر إلى العودة إلى بلنسية، حيث مات سنة 208هـــــ/823م[2]، ونقل عبدالرحمن أولاده وأهله إليه بقرطبة وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبدالرحمن[3].

وفي سنة 207هـــ/ 822م قامت في "تدمير" فتنة بين المضرية واليمنية بسبب قـــتل يماني لمضري أخذ ورقة دالية من جنان يماني فقتله اليماني [4] فقامت الحرب بـــين العصـــبيتين ودامت سبع سنوات حتى سنة 213هـــ/ 828م، واضطر الأمير "عـــبدالرحمن" أن يتدخل في هذه الحرب، فأغزى إلى الفريقين المتقاتلين سنة 207 هـــ/ 822م قائده "يحيى بن عبدالله بن خلف" فالتقى معهم في موقعة تعرف بوقعة "المصارة" أو "بلورقة" قتل منهم حوالي ثلاثة آلاف، وكانوا إذا أحسُّوا بقرب يحيى تفـــرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال، وقد تزعم اليمانية "أبـــو الشماخ"، واستمرت الفتنة – كما ذكرنا – سبع سنوات، وكانت الدائرة

---

(1) ابن عذاري " البيان المغرب، 91/2.
(2) ابن خلدون " العبر، 128/4. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، 230.
(3) ابن الأثير : الكامل، 370/6.
(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 81/2.

تدور على اليمانية والقتلى منهم حتى فنى من المسلمين خلق كثير ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة 213هـ/ 828م عندما أرسل الأمير قائده "أميه بن معاوية بن هشام" فتغلب عليهم وخضع "أبو الشماخ" وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة وصار "أبو الشماخ" من ولاة الأمير عبدالرحمن وثقاته، وقد أمر الأمير بهدم "إلة" حاضرة تُدمير التي انبعثت منها الفتنة وصارت "مرسية" مقراً لوالي تُدمير[1]، وذلك بعد بنائها في سنة 216هـ/ 831م.

وفي سنة 211هـ/ 826م ثار "بتاكُرنَّا" "طوريل البربري"، فبعث إليه الأمير "عبدالرحمن بن معاوية بن غانم" فظفر به وقطع دابره[2]، كذلك ثار أهل "ماردة" في سنة 213هـ/ 828م على حاكم المدينة "مروان الجليقي" وقتلوه، وكان يقود هذه الثورة رجل بربري اسمه "محمود بن عبدالجبار"، وانضم إليه أحد المولدين واسمه "سليمان بن مرتين" ويُعرف باسم "قعنب"، وعاثوا في الأرض فساداً فسير إليه عبدالرحمن جيشاً فحاصرهم وأفسد زرعهم وأشجارهم فعادوا إلى الطاعة وأخذت منهم رهائن لضمان طاعتهم وخرب سور المدينة كي لا يعودوا إلى المعصية، ثم طلب الأمير عبدالرحمن أن تنقل حجارة السور إلى النهر حتى لا يطمع أهلها في عمارة السور، فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان، وأسروا عامل المدينة، وجددوا بناء السور وأتقنوه، فسار إليهم الأمير عبدالرحمن بجيوشه سنة 214هـ/ 829م ومعه رهائن أهلها فافتكَّ عامل المدينة، ومن أسر معه برهائنهم ، ثم حاصرهم فامتنعوا عليه، فرجع عنهم، ثم تابع إرسال الجيوش إليهم حتى كانت سنة 220هـ/ 835م، فسار إليهم الأمير عبدالرحمن بجيوشه، وشدد الحصار عليهم ودارت حرب بينهم انتصر فيها الأمير عبدالرحمن، وافتتح "ماردة" وقتل الكثير من الثائرين[3].

هذه بعض الثورات التي قامت في عهده قد نكتفي بذكرها.

---

(1) ابن الأثير الكامل، 384/6. كذلك محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص291-292.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 82/2.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 83/2-84، كذلك ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص83، محمد زيتون: المصدر السابق، ص292.

ب - الحروب الخارجية في عهده :

قـام الأمير "عبدالرحمن" بعدة غزوات خارجية، وذلك تأميناً لحدود الدولة ودفعاً للطامعين فيها، وسوف أقصر الحديث هنا على بعض منها.

ففي سنة 208هـ / 823م سير الأمير عبدالرحمن جيشاً لغزو أَلَبَة والقلاع بقيادة "عبدالكريم بن مغيث"، حيث تمكن من التوغل فيهما وحاصر عدة حصون وفتح بعضاً منها وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وقد غنم أموالاً كثيرة وأظهر هيبة المسلمين في تلك المناطق، ثم عاد غانماً ظافراً[1]. كذلك أرسل الأمير عبدالرحمن سنة 223هـ/ 837م أخاه "الوليد بن الحكم" في غزوة إلى منطقة "جليقية"، ففتح العديد من حصونها، وفي سنة 225هـ/ 839م غزا الأمير عبدالرحمن بنفسه هذه المنطقة، ففتح حصونها وجال في أرضها يغنم ويقتل ويسبي، وطال مقامه في هذه الغزوة، ثم عاد إلى قرطبة، وفي العام التالي (226هـ) وجه عبدالرحمن ابنه "مُطَرِّفا" إليها بجيش ومعه القائد "عبدالواحد بن زيد الاسكندراني" فتوغل فى بلاد جليقية" وبسط هيبة المسلمين فيها[2]. وفي سنة 231هـ/ 845م أرسل الأمير "عبدالرحمن" إليها جيشاً بقياده ابنه "محمد" فحاصرها وانتصر على أعدائه وغنم الكثير منها ، ووصل في زحفه إلى مدينة "ليون" فحصرها ورماها بالمجانيق، فتركها أهلها وخرجوا هاربين إلى الجبال، فغنم المسلمون منهم ما أرادوا وأحرقوا الباقي، وأرادوا هدم سورها فوجدوا سعته سبع عشرة ذراعاً فثلموا فيه ثُلماً كبيراً وتركوه وعادوا سالمين بعد أن حفظوا هيبة المسلمين في تلك المناطق[3].

وفي عهده غزا النورمانيون [4] (المجوس) أو "الفيكنج Vikings" الأندلس

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ، 2/81-82. كذلك محمد زيتون: المسلمون في المغرب واللأندلس، ص296

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 2/86.

(3) ابن الأثير : الكامل، 6/516، 7/24، كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 2/85-88، المقري: نفح الطيب، 1/346.

(4) النورمان أو المجوس : كانوا يغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية؛ وقد سماهم العرب المجوس لأنهم كانوا يشعلون النيران كثيرا فظن العرب أنهم يعبدونها . ويرجع النورمان إلى أصل جرماني، وينقسمون إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون = المقتبس، ص27، 28، 58، الحلة السيراء، 2/372، المغرب في حُلى المغرب 1/49، البيان المغرب، 2/87-88.

وتصدى لهم المسلمون، وذلك في سنة 230هـ/ 844م حيث جاءوا بثمانين (80) سفينة وهاجموا أشبونة فتصدى لهم المسلمون فاتجهوا نحو قادس ثم إلى شذونه ثم اخترقوا النهر (الوادي الكبير) إلى "اشبيلية"، ودارت بينهم وبين المسلمين معارك ضارية انتصر في نهايتها النورمان، فأكثروا في المسلمين القتل والأسر والنهب ومكثوا فيها سبعة أيام يعيثون في الأرض فساداً، ثم انسحبوا إلى قرية طليطلة الواقعة غربي "اشبيلية"، وعندها اتصل الخبر بالأمير عبدالرحمن فبعث بقوات من الخيل على عجل لنجدة اشبيلية بقيادة "عبدالله بن كُلَيْب" و"محمد بن رُسْتم" وغيرهما من القواد تحت قيادة حاجبه عيسى بن شهيد وكتب إلى عمال الكور لاستنفار الناس فحلّوا بقرطبة ونفر بهم "نصر الفتى"، وتلقى النورمانيون مدداً في سفن جديدة قدمت عليهم، ودارت بين الفريقين معارك ضارية تفوق فيها النورمان، وعندما تجمعت القوات التي أرسلها الأمير عبدالله إليهم دافعوهم ونصبوا المجانيق وقذفوهم بها فانهزم النورمان وقتل منهم نحو من خمسمائة رجل، وأصيبت أربع مراكب من مراكبهم فأمر "ابن رستم" بإحراقها وبيع ما فيها، ثم كانت المعركة الفاصلة معهم في 25 صفر سنة 230هـ (844م) بقرية طليطلة فانتصر المسلمون على النورمان بعد قتال عنيف وقتلوا منهم ألفاً وأسروا أكثر من أربعمائة وأحرقوا لهم ثلاثين سفينة، وقد قتل قائدهم في هذه المعركة وارتد النورمان إلى سفنهم وتحصنوا بها وقتل المسلمون أسراهم وأقلعت سفن النورمان منسحبة والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وقد حاولوا الانتقام لأنفسهم أثناء انسحابهم، فأغاروا على "لبله" و"باجة"، ثم انتقلوا إلى "أشبونة"، حيث غادروا شواطئ الأندلس مع باقي سفنهم بعد أن مكثوا اثنين وأربعين يوماً أشاعوا خلالها الرعب والفزع بين المسلمين، وعانى المسلمون منهم عناءً شديداً، وعند انقشاع الغمّة أرسل الأمير "عبدالرحمن" بالكتب إلى جميع الآفاق معلناً انتصار المسلمين على العدو المغير، وأرسل إلى من "بطنجة" من صنهاجة يُعلمهم بما صنع الله في النورمان ، وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة، وبعث إليهم برأس أمير النورمان ورؤوس بعض أكابر قتلاهم. ونتيجة لهذا الغزوة اهتم الأمير عبدالرحمن بالأسطول والتحصينات البحرية فابتنى حول اشبيلية سوراً ضخماً، وأنشأ بها داراً لصناعة السفن واهتم بإقامة السفن الحربية وحشد لها المقاتلة والمدربين من سائر أنحاء الأندلس حتى نما الأسطول الأندلسي وعظمت قواته

البحرية[1]. وهكذا أصبحت اشبيلية منذ ذلك الحين الميناء الأول في الأندلس، وقد كـــان لميلاد البحرية الأندلسية نتائج مهمة، لأن الأسطول الأندلسي لم يلعب دوراً خطـــيراً في فـــتح جزر "ميورقة ومنورقة ويابسة" سنة 848/234م فحسب بل في تاريخ الأندلس وحوض البحر المتوسط بوجه عام[2].

جـ - الإصلاحات في عهده :

قام الأمير عبدالرحمن بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمعمارية والصناعية والزراعية، فهو أول من رتَّبَ اختلاف الوزراء إلى القصر وإبداء آرائهم فيما يعرض عـــليهم من الأعمال، ورفع من شأن الوظائف العامة وأحاطها بالهيبة والمسؤولية ، وجعل أحكام السوق منصباً مستقلاً عن ولاية المدينة، وقد زادت أموال الجباية في عهـــده فبلغت ألف ألف دينار في السنة وأنشأ داراً لسك النقود في قرطبة وجعلها أندلسية بقيم وأوزان جديدة[3].

وفي مجال العمارة أنشأ الأمير "عبدالرحمن" القصور والمتنزهات وجلب إليها الميـــاه مـــن الجبال وجعل لقصره حوضاً يجتمع فيه ماء المطر، وأقام الجسور وعبَّدَ الطـــرق، وبنى العديد من المساجد الجامعة في كافة أنحاء الأندلس، وزاد في قرطبة رواقـــين، وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها وجعل له حوضاً كـــبيراً يرده الناس ليستقوا منه، وأقام دار صناعة باشبيلية، وأنشأ المراكب لتكوين أســـطول بحري قوي لحماية السواحل الأندلسية وأمده بالآلات والنفط. كما كان له خمسة آلاف مملوك من الموالي والصقالبة ثلاثة آلاف فارس يرابطون بإزاء القصر فوق الرصيف،وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون الخرس لعجمتهم[4].

وقد ارتفع شأن الإمارة الأموية في عهده، وأصبحت الدُّول الأجنبية تطلب ودهـــا وتقـــيم معهـــا علاقات سياسية متينة، ففي سنة 225هـــ/839م. أرسل

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، 16/7، 17. كذلك ابن عذاري : البيان المغرب 87/2، 88، المقري: نفح الطيب، 345/1-346، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص78-83. محمد زيتون المسلمون في المغرب والأندلس، ص299-300.

(2) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص237-238.

(3) ابن القوطية : المصدر السابق 77-78. كذلك محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص300-301.

(4) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس 80، 81، 82، المقري : نفح الطيب ، 254/2.

الإمبراطور البيزنطي "ثيوفيلوس" (829-842م) سفيراً يدعى "قرطيوس" إلى الأمير عـــبدالرحمن، ومعـــه كتاب وهدية ويطلب منه التعاون معه ضد الخليفة العباسى المعتصـــم بالله (218-227هـــ/ 833-841م) غير أن الأمير عبدالرحمن أظهر النية الحســـنة مما جعله يرسل مع السفارة صديقه وكاتبه الشاعر "يحيى الغزال"، وطلب إليـــه أن يذكـــر للإمبراطور، بأنه سوف يرسل إليه أسطولاً إذا هدأت الأمور في الأندلس، غير أن ذلك لم يتم(1).

وقـــد حدث ذلك بعد انتصار "المعتصم بالله" على الإمبراطور البيزنطي في أنقرة وزبطره وعمورية(2).

ولقد تألقت في عصر الأمير "عبدالرحمن الأوسط"، عدة شخصيات كان لها أثـــر كبير في التقدم الحضاري الذي شهدته الأندلس في هذه الفترة. ومن أهم هذه الشخصيات:

1- يحيى بن يحيى الليثي :

وهـــو من أبرز شخصيات هذا العصر، أصله من بربر مصمودة، كان فقيهاً محدّثاً يروي كتاب الموطأ للإمام مالك عن "زياد بن عبدالرحمن اللّخمي" المعروف "بشـــبطون"، كما سمع من "يحيى بن مضر القيسي الأندلسي"، ثم رحل إلى المشرق وهـــو في الثامـــنة والعشرين من عمره، فذهب إلى الحجاز، فسمع من "مالك بن أنـــس" إمام المدينة وأعجب به مالك وسمّاه عاقل الأندلس، ولذلك قيل : "إن يحيى هـــذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبدالملك بن حبيب عالمها"(3). وتعتبر روايته من أصح الروايات التي بقيت حتى عصرنا هذا عن مالك وموطئه(4).

لقـــد توجه "يحيى " إلى مكة بعد سماعه من الإمام مالك بالمدينة فسمع من "ســـفيان ابـــن عيينة"، وقد تفقه على أيدي بعض الفقهاء المدنيين، "كعبد الله بن

---

(1) السيد : الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص286، كذلك ابن دحية: المطرب، ص138؛ Andaolusion diplomatic relations p.p, 166-168

(2) وقعة عمورية حدثت في (25 شعبان سنة 223هـــ) 13 أغسطس سنة 838م.

(3) المقري : نفح الطيب، 217/2. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص232.

(4) خير الله طلفاح : حضارة العرب، ص141.

وهـــب"، و"عـــبدالله بـــن نافع"، وعند عودته إلى الأندلس نزل بمصر، فسمع من "الليث بن سعد"، وتفقه بفقهه، ولما عاد إلى "قرطبة"، انتهت إليه الرئاسة في الفقه والفقهاء، وروي عنه عدد كبير من الفقهاء والمحدّثين، ونال يحيى مكانة سامية عند الأمير عبدالرحمن، وأصبح بيده تعيين القضاة في مدن الأندلس، وبرز على غيره من الفقهـــاء، وكـــان الأمير عبدالرحمن يجلّه ويحترمه ويأخذ بفتواه. وقد توفي يحيى في رجب سنة 234هـــ (848م)[1].

2- الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب :

وفـــدت على قرطبة مع مجيء عبدالرحمن الثاني إلى الإمارة، شخصية طريفة كـــانت لصيقة بالأمير شديدة التأثير ببلاطه، عاكسة ملامحها المتنوعة على المجتمع بصورة عامة، فإذا هو مطبوع بمادة جديدة من الترف الاجتماعي والذوق الأنيق، عـــدا المواهب الأصلية التي جاءت معه وكانت سبب مجيئه، كالموسيقى المتجددة والغناء الرفيع. وأعني بذلك "الحسن بن علي بن نافع" المعروف بـــ "زرياب"[2].

وهـــو مـــن أعظم شخصيات هذا العصر وأجلّها قدراً، وكان زرياب عبداً أســـود لإبراهـــيم الموصـــلي، عـــلّمه الغناء، وكان يغني في مجلس "الرشيد"، ثم انـــتقل إلى القـــيروان في عهـــد بني الأغلب، فدخل على "زيادة الله بن الأغلب" (210-223هـــ/ 825-837م). فغناه بأبيات عنترة الفوارس ، التي تقول :

فـــان تـــك أُمِّـــي غُـــرابيةً	مـــن ابـــناءِ حـــام بهـــا عِبـــتَني
فـــإني لطيـــفٌ بـــبيض الظُّـــبا	وسُـــمر العـــوالي إذا جئـــتَني
ولـــولا فـــرارُكَ يـــوم الوغَـــى	لقُدتُـــك في الحـــربِ أو قُدتـــني

فغضب "زيادة الله"، وأمر بصفع قفاه وإخراجه من بلاده وأمهله مدة ثلاثة أيـــام فـــإن وجد بعدها ضربت عنقه، فجاز البحر إلى الأندلس[3] فاستقبله الأمير عبدالرحمن بنفسه استقبالاً حاراً وبالغ في إكرامه[4].

(1) المقري : المصدر السابق، 2/217-219.
(2) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص252.
(3) وصل إلى قرطبة على الأرجح ما بين سنتي 206، 207هـــ.
(4) ابن عبدربه : العقد الفريد ، 7/37.

كــان "زرياب" تلميذاً للمغني والموسيقي الكبير "اسحاق الموصلي"، رئيس الموســيقيين والمغــنيين في بلاط الرشيد، وقد نبغ "زرياب" في فن الألحان على يدِّ أســتاذه اسحاق الموصلي، وتميّز بفهم هذا الفن وصدق العقل مع طيب الصوت، فــتفوق على أستاذه دون أن يدري هذا إلى أي درجة من الإجادة وصل تلميذه . وأثبــتت الظــروف لإسحاق بروز تلميذه عليه، فثارت به الغيرة والحسد، فخلا بــزرياب، وهدده بالموت أو مغادرة البلاد على الفور، فآثر زرياب أن يفر بنفسه وأسرته إلى افريقية، ومنها إلى الأندلس، فأكرم وفادته الأمير عبدالرحمن، وأنزله في دار مــن أعظم الدور بقرطبة، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وأجزل له العطاء، ورتّــب لــه ولأفراد أسرته الرواتب، وأقطعه الإقطاعات، واستمتع بسماع غنائه، وقدّمــه عــلى جميــع المغنيين في بلاطه، وقرّبه منه، وفتح له باباً خاصاً في قصره يســتدعيه مــنه متى شاء. وأسس "زرياب" مدرسة في الغناء والموسيقى، ووضع الأسس الراسخة التي قام عليها هذا الفن في الأندلس. و لم يكن "زرياب" صاحب ثــورة في تاريخ الموسيقى الأندلسية فحسب، بل كان مجدداً اجتماعياً، كما كان شاعراً أديباً، فأجاد فنون الآداب كما أجاد آداب المجالسة والمحادثة[1].

ولعل شهرة "زرياب" في قرطبة مبنية أساساً على أنه كان رائداً في التجديد الموســيقى، حيــث أضاف إلى العود – آلة الغناء الرئيسية في ذلك الوقت – وتراً جديــداً لم يكــن مــتداولاً من قبل[2]، هذا فضلاً عن امتلاكه الخارق لهذه الآلة وســيطرته المطــلقة على أوتارها يساعده صوت عذب وشجن. كذلك فهو رائد اســتخدام التــنويع الغنائي في الموسيقى العربية بإشراك عدة مغنيين أو مغنيات إلى جانب المغني الرئيسي[3].

بالإضــافة إلى الغــناء الــذي اشتهر به "زرياب"، فقد أحدث هو وأسرته انقلابــاً في الحياة الاجتماعية الأندلسية، استهدف كل جانب من جوانبها الكثيرة، سواء في الأطعمة، حيث انتقل معه الذوق الشرقي وتعدد الأصناف، وآداب الموائد

(1) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص83-84، كذلك المقري: نفح الطيب، 344/1، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص233-237.

(2) لين بول : العرب في اسبانية ، ص69-70.

(3) إبراهيم بيضون : الدولة العربية ، ص253.

التي لازالت في كثير من ملامحها سائدة هذه الأيام، أو في مظاهر الأناقة حيث ابتكر هو وأسرته طريقة خاصة لتصفيف الشعر، والتنويع في الألبسة فأصبحن يلبسن الثياب فاتحة الألوان في الربيع، والملابس البيضاء في الصيف، والمعطف والقبعات من الفرو في الشتاء.

وفيما بعد شوهد الأسبان المسيحيون يلبسون الزي العربي الأنيق. ومن ناحية ثانية فقد نظم "زرياب" أسلوب تقديم الأطعمة وعمل على إضافة مأكولات جديدة نقلها من الشرق. كما أدخل إلى الأندلس أنواعاً من الخضروات لم تكن شائعة فيها من قبل وحرض هو وعائلته على تعليم الفتيات والوصيفات الأندلسيات أسلوب الجلوس على طاولة الطعام وتراتيب تقديم الأطعمة[1].

وهكذا لم يخل جانب ما في المجتمع الأندلسي، إلا وكان له نصيب من ذوق "زرياب" وابتكاراته، هذا المغني الطموح الذى طبع عصره بشخصيته المتميزة الفذة، حتى أصبح أحد رموزه الحضارية المشعة[2].

3- طروب :

وهي إحدى جواري الأمير "عبدالرحمن"، وأم ولده "عبدالله"، الذي وُلي الإمارة بعد "المنذر". وكان الأمير يحبها حباً ملك عليه نفسه [3]، وقد روى بعض المؤرخين [4]، أن الأمير عبدالرحمن أغضبها يوماً فهجرته ولزمت مقصورتها، فأرسل إليها فامتنعت عليه وأغلقت على نفسها بابها، فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذَرْعهُ من شوقه إليها وحاول إرضاءها بكل وسيلة، ولكن دون جدوى، فأمر بسدّ الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم[5]، استرضاء لها واستعطافاً بوصلها، فلما فتحت الباب تساقطت البدر من كل جانب فأخذتها[6]، وأكبّت على رجله

(1) حسان حلاق : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص291.

(2) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص89. كذلك المقري: نفح الطيب، 4/120-122، إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص253-254.

(3) المقري : المصدر السابق، 1/349.

(4) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 2/92. كذلك المقري: المصدر السابق، 1/349-350، ابن القوطية: المصدر السابق، ص91-92.

(5) بدر الدراهم — أجودها وأحسنها.

(6) ذكر ابن عذاري أن عدد تلك الدراهم عشرين ألفاً، وأمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف: انظر البيان المغرب، 2/92. بينما يجعلها المقري مائة ألف دينار، انظر نفح الطيب، 1/349.

تقبـــلها، ويذكر "ابن عذاري" أن عدد تلك الدراهم عشرون ألفاً إضافة إلى عقد قيمته عشرة آلاف دينار "فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظّم الأمر عليه؛ فقال لـــه الأمير عبدالرحمن" "إن لابسه أنفس منه خطراً وأرفع قدراً! ولئن راق من هذه الحَصْباء منظرها، ورصف في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهراً يغشى الأبصـــار، ويذهـــب بالألـــباب. وهل على وجه الأرض من زبرجدها وشريف جوهـــرها أقـــر لعين وأجمع لزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن، ونضرته، وألقى عليه الجمال بهجته"[1].

ومن شعره فيها ، قوله :

إذا مـــا بَـــدَتْ لي شَـــمْسُ النّها	ر طالِعَـــةً ذكّـــرَتْني طَـــرُوُبا
أنـــا ابـــن المَيـــامين مـــن غالبٍ	أشُـــبُّ حُرُوباً وَأُطْفي حُرُوبا[2]

ولم تكـــن طروب هي الجارية الوحيدة التي أحبها الأمير عبدالرحمن، فهناك مدثرة والشفاء وقلم[3] (أوفلّة).

كانت "طروب" تطمع في ولاية ابنها "عبدالله" الإمارة بعد أبيه بدلاً من ولي عهده "محمد"، وكانت من أجل ذلك تسعى إلى الحصول على المال لتستميل الناس إليها. وقد حاولت تدبير مؤامرة لقتل الأمير عبدالرحمن بالاشتراك مع أحد غلمان القصر ألا وهو "نصر الصقلبي" ولكن هذه المؤامرة لم تنجح، حيث انكشف أمرها سنة 236هـــ/ 850م وقتل فيها نصر بالسم الذي أراد به قتل الأمير عبدالرحمن[4].

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 92/2.

(2) المقري : نفح الطيب، 349/1.

(3) المصدر نفسه، 350/1.

(4) للإطلاع على تفاصيل هذه المؤامرة انظر ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص76-77.

4- محمد بن عبدالرحمن بن الحكم
(238-273هـ / 852-886م)

تولى الأمير "محمد[1] بن عبدالرحمن" الإمارة في 4 ربيع الآخر سنة 238هـ (852م) وكانت وفاته يوم الخميس لليلة بقيت من شعر صفر 273هـ (886م) وهو ابن خمس وستين سنة، وكانت مدة حكمه ما يقرب من خمس وثلاثين سنة[2].

كان الأمير محمد أوحد قومه في البلاغة والرجاحة وحسن الخلق، يؤثر الحقَّ وأهله، وكان عاقلاً ذا أخلاق حميدة ومكارم جميلة، وبديهة وروية، خدمته ملوك بلاد المغرب، واعترفت بطاعته "تاهرت" و"سجلماسة"، وقد عاصر أعظم ملوك الإفرنج، حيث كانوا يهادنونه ويطلبون وده[3].

وقد وجه الأمير عناية كبيرة للاهتمام بأمور الدولة الداخلية والخارجية حفاظاً عليها من الثائرين في الداخل والمغيرين المتربصين بها من الخارج ، وقضى معظم مدة حكمه في غزوات متعاقبة وحملات مستمرة لتأديب الثوار في الداخل، وحملهم على الطاعة، والوقوف في وجه الممالك النصرانية، حماية لثغور المسلمين واهتماماً بمصالحهم. كما اهتم بالإصلاحات الداخلية خلال فترة حكمه[4].

أ- الثورات الداخلية :

إن الإمارة الأموية حتى في أيام الرخاء إبَّان عهد الأمير عبدالرحمن الثاني، لم تكن خالية من المتاعب، ولم تكن السلطة فيها إلا عبئاً ثقيلاً على أمراء تلك الحقبة. ذلك أن قضيتين أساسيتين كان على كل أمير جديد أن يتصدى لهما، أو يتزلق

---

(1) كنيته أبو عبدالله، وأمه بُهَيْر، مولده في شهر ذي القعدة سنة 207هـ/ 822م = ابن عذاري : البيان المغرب، 93/2.

(2) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 94/93/2. كذلك ابن الخطيب : أعمال الأعلام، 20-23، المقري : نفح الطيب، 350/1-352.

(3) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص22، 23.

(4) محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس، ص304.

ومعـــه النظام إلى مهاوي التمزق والانقسام : القضية الأولى وهي الأكثر خطورة، تكمـــن في طـــبيعة المجتمع الأندلسي المفكك، الذي هو عبارة عن قبائل وشعوب مـــتعددة، خضعت للسيادة الأموية إما طوعاً أو كرهاً وإما ابتغاء لمصلحة، دون أن يجمـــع بينها قليل من القاسم المشترك بالمسؤولية الوطنية. فالمجتمع الأندلسي يتكوّن من أقلية عربية جاءت مع الفتوح أو في ظروف عادية، وحتى هذه الفئة من المجتمع كان يعوزها الانسجام لتوزع انتماءاتها قبلياً بين قيسي ويمني، وإقليمياً بين حجازي أو شامي أو أفريقي، وهناك أقلية أخرى يتكون منها المجتمع الأندلسي وهي البربر الـــتي جاءت في نفس الظروف ونازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ، فأخفقت مراراً، ولكـــنها لم تـــتخل عن طموحها الذي استمدته من دعم القوة الأساسية للبربر في المغـــرب. أما أغلبية السكان فكانوا من السكان الأصليين الذين تأقلموا مع النظام، عقيدة وهوية فصاروا يعرفون بالمولّدين، بالإضافة إلى فئة أخرى من هؤلاء تأقلمت هويـــة دون عقيدة، وهي التي عرفت بالمستعربة أو المستعربين. أما القضية الثانية، والـــتي كانت نتيجة حتمية لهذا المجتمع المنخور والمتنافر عنصرياً ودينياً، إن لم نقل اجتماعياً، هي العلاقة العدائية بين حكومة قرطبة والإمارات الأسبانية في الشمال، الـــتي كـــانت تُغـــذي هذا التنافر وتستفيد من اختلال الحكم المركزي لحساب مصـــالحها التوسعية. هكذا كانت ظروف الإمارة الأموية في الفترة التي تولى فيها الأمـــير "محمـــد بـــن عـــبدالرحمن" الحُكم في الأندلس.. تنناقضات هائلة ورياح وحـــركات اســـتقلالية مكبوتة تنتظر لحظة الانفجار في الوقت المناسب، حتى إذا حـــانت الفرص في مطلع عهده وثب الطامحون إلى السلطة كل في مقاطعته، حيث يتوفر الأنصار والمؤيدون، وكأنهم على موعد مع خطة مشتركة ومدبرة[1].

وأخطر هذه الثورات ما يلي :

1- ثورة طليطلة :

لقد قامت في عهد الأمير محمد عدة ثورات، ففي سنة 238هـ/ 852م ثار أهـــل طليطـــلة فوجه إليهم في العام التالي (239هـ) ابنه الحكم، ثم خرج إليهم

(1) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص257-258.

بنفسه في العام 240هـ/ 854م فاستعانوا بصاحب "جليقية" "أُرْ دُون بن إذ فُونْش" ملك "اشتوريش" فبعث إليهم أخاه "غثون Gason" في جمع عظيم من النصارى، فلما عرف ذلك الأمير محمد - وقد كان قرب طُليطلة – أعمل الحيلة والكَيْد، واستشعر الحزم، فعبَّأ الجيوش، وكمَّن الكمائن بناحية وادي سليط [1]؛ ثم التقى الجمعان، فخرجت الكمائن عن اليمين والشمال، وتواترت الخيل أرسالاً، حتى غَشيَ الأعداء منهم ظُلَلٌ كالجبال، فانهزم المشركون وأهل طليطلة، وأخذهم السلاح ضرباً بالسيوف، وطعناً بالرماح، فقتل معظمهم وأبيد جمعهم، وكان عدد قتلاهم عشرين ألفاً[2].

وفي سنة 243هـ/ 857م ثار أهل طليطلة وخرجوا إلى "طَلَبيرة"؛ فخرج إليهم قائدهم "مسعود بن عبدالله العرّيف" "بعد أن كمَّن لهم الكمائن، فقتلهم قتلاً ذريعاً، وبعث إلى قرطبة بسبعمائة رأس من رؤوس أكابرهم"[3].

وفي سنة 244ه/ 858م خرج الأمير محمد بنفسه إلى "طُليطُلة" وكان عدد الثائرين قد قلَّ وَحَدُّهم قد فُلَّ، بتواتر الوقائع عليهم، ونزول المصائب بهم، فلم تكن لهم حربٌ إلا بالقنطرة. ثم أمر الأمير "محمد بقطع القنطرة، وهم مجتمعون بها، فتهدمت نواحيها، وانكفأت بمن كان عليها من الثائرين؛ فغرقوا في النهر عن آخرهم[4].

2- ثورة ماردة :

وفي سنة 254هـ/ 867م قامت ثورة في "ماردة" قام بها "عبدالرحمن بن مروان بن يونس" المعروف "بابن الجليقي" فخرج الأمير محمد بنفسه إليها، فقضى على الثورة بها، وأمر بهدم سورها، وتخريبها، ولم يّبق إلاَّ قصبتها[5].

---

(1) وادي سليط (Auzalete) وهو نهر يصب في التاجه جنوبي طليطلة.

(2) ابن عذاري : البيان المغرب، 94/2، 95. كذلك المقري : نفح الطيب، 350/1.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 96/2.

(4) المصدر نفسه ، 96/2.

(5) المصدر نفسه ، 100/2. كذلك المقري : نفح الطيب، 351/1.

3- ثورة سُرْيَة :

وفي سنة 255هـ/ 868م ثار سليمان بن عبدوس وتغلب على مدينة سُرْيَة، فأرسل إليه الأمير ابنه الحكم، فقضى على ثورته، وأذعن للطاعة، فأخذه الحكم وأتى به قرطبة فسكنها[1].

وهناك ثورات أخرى عديدة قامت في فترات زمنية متعددة في عهد الأمير محمد، أذكرها هنا باختصار، وذلك خوفاً من الإطالة. ففي سنة 256هـ/ 869م "غدر بالعهد سليمان بن عمروس" عامل "وشقة" وَمَلَكَها، وفي سنة 258هـ/ 871م حدثت ثورات في الثغر (تطيلة وسرقسطة) قام بها "مُطرِّف" و"إسماعيل" ابنا لُبّ ويونس بن زنباط فغدروا بعامل "تطلية" "عبدالوهاب بن مغيث" فقبضوا عليه وعلى ابنه محمد عامل "سرقسطة"، وفي سنة 260هـ/ 893م خرج المُنْذر بن الأمير محمد إلى سرقسطة وبنبلونة، فاحتل "سرقسطة"، وانتهب زروعها، وقطع ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى "وشقة"، وتقدم إلى "بنبلونة"، فعاث في أرضها وأتلف معايش أهلها، وذلك بعد أن ثار فيهما "موسى بن موسى" (من المولدين)، وفي سنة 265هـ/ 878م ظهرت فتنة في كورة "رية" و"الجزيرة" و"تاكُرُنَّا" وعندما ظهر الثائر "يحيى" المعروف "بالجزيري" فتصدى له أحد قادة الأمير محمد وهو "هاشم"، فأذعن له ، وقدم به إلى "قرطبة، وفي سنة 267هـ/ 880م قامت ثورة "عمر بن حفصون" وهو من المولدين، حيث اتخذ مركز نشاطه في منطقة جبلية وعرة في الجنوب بين "مالقة" "ورندة"، تعرف بحصن "بُبَشْتَر: Bobastor"، وقد استمرت ثورته إلى عهد "عبدالرحمن الناصر"، وفي سنة 273 هـ/ 886م ثار "حارث بن حمدون" من بني رفاعة في مدينة "الحامة" فخرج إليه المنذر ابن الأمير محمد فهزمه وأصحابه وساروا بين قتيل وفليل، وبينما المنذر في سرور من انتصاراته إذ أتاه الخبر بموت أبيه الأمير محمد بن عبدالرحمن ليلة الخميس لليلة بقيت من شهر صفر من السنة (273هـ) فعجل بالعودة إلى قرطبة حيث أدرك المنذر أباه قبل مواراته التراب وصلّى عليه[2].

---

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، 100/2.

(2) المصدر نفسه، 94/2-106. كذلك ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص100-105.

ثورة عمر بن حفصون

(267-316هـ)

هو أحد المولدين القاطنين في الأندلس، حيث قام بثورته في سنة 267هـ/ 880م، في عهد الأمير "محمد بن عبدالرحمن بن الحكم"[1]، وقد أثارت شخصيته جدلاً كبيراً بين المؤرخين الذين أولوه اهتماماً كبيراً، وكان عمر من أسرة فقيرة حيث كان أبوه فلاحاً، وقد كان عمر منذ فجر شبابه طموحاً ميَّالاً إلى المغامرة، مطبوعاً على العنف ومجبولاً على القسوة، عاش مطلع حياته في إقليم "رندة: Randa"، وفي أحد الأيام تشاجر مع أحد جيرانه فقتله، مما اضطره إلى الهرب إلى المغرب[2]، حيث اشتغل هناك خياطاً[3]، ثم عاد إلى الأندلس، وهو مصمم على الثورة، فاستولى على قلعة قديمة في جبل تعرف "بِبُشْتر Bobastro" في إقليم "ريَّة"، والتفَّت حوله جماعة من الثوار. وكانت أولى أعماله المنظمة ضد حكومة قرطبة، الهزيمة التي أوقعها بحاكم "ريَّة" "عامر بن عامر"[4]، حيث كان لها الأثر الكبير في تقوية نفوذه وازدياد مكانته، ولكن الأمير محمد عزل عامراً عن حكمه "ريَّة" "وولاَّها "عبدالعزيز بن عبَّاس" فهادنه "ابن حفصون" وسكنت الحال بينهما، ثم عُزل عبدالعزيز، فعاد "ابن حفصون" إلى الثورة، فأرسل إليه الأمير وزيره "هاشم" في سنة 270هـ/ 883، الذي استطاع ارغام "ابن حفصون" على الاستسلام مع جماعته، حيث حملوا جميعاً إلى قرطبة فعفى عنه الأمير وأكرمه[5]، وبلغ به التسامح معه أن عينه في منصب مهم في الجيش[6]، ولكنه لم يلبث طويلاً، حيث هرب في سنة 271هـ/ 884م من قرطبة، ورجع إلى جبل "ببشتر"،

---

(1) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 104/2. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص103.

(2) استقر في مدينة تاهرت = ابن القوطية : المصدر السابق، ص103.

(3) جاءه منجم وقال له : كيف تحارب الفقر بالإبرة، ثم ذكر له أنه سوف يكون له شأن عظيم = ابن القوطية: المصدر السابق، ص103.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق، 106/2.

(5) المصدر نفسه ، 104/1. كذلك ابن القوطية : المصدر السابق، ص103-104.

(6) إبراهيم بيضون : الدولة العربية ، ص263.

فأرسل إليه الأمير في سنة 273هـ/ 886م ابنه المنذر والقائد "محمد بن جهور" للقضاء عليه في كورة "ريَّة" مَعْقَله، ولكن "ابن جهور" اتجه أولاً إلى مدينة "الحامَّة" التي كان فيها أحد الثائرين[1] الذى كان مظاهراً "لابن حفصون"، وعندما سمع "ابن حفصون" بأخبار هذه الحملة العسكرية غادر قلعته واتجه نحو معقل حليفه لقطع الطريق على جيش الإمارة. ولكن القائد الأموي سبقه إلى إحكام الطوق على القلعة التي سقطت بالرغم من اشتراك الحليفين في الدفاع عنها، حيث أصيب قائدها بجراح بليغة، بينما هرب "ابن حفصون" وأصحابه قبل أن تدركهم سيوف الأمويين. وفي هذا الأثناء جاء الناعي إلى المنذر يخبره بوفاة أبيه الأمير محمد بن عبدالرحمن[2].

ولما استقر الأمر للأمير الجديد "المنذر بن محمد" خرج بنفسه لمحاربته، فنازله بقامرة من كورة ريَّة وضيّق عليه الحصار، فلما اشتد عليه الأمر، طلب الأمان لنفسه على النزول بأهله وولده إلى قرطبة، فأجابه إلى طلبه، ولكنه غدر بالأمير ونقض العهد ورجع إلى قلعته ببَشتر، وقال لأصحابه: "أنا ربكم الأعلى" فاقسم الأمير المنذر أن ينتقم منه ولا يقبل منه صلحاً، فأعد حملة قادها بنفسه، وتوجه إلى "ابن حفصون" وحاصره مدة ثلاثة وأربعين يوماً، وفي أثناء هذا الحصار مرض الأمير مرضاً شديداً فبعث إلى أخيه "عبدالله" لينوب منابه، ولما وصل الأخير إلى الأمير "المنذر"، توفي الأمير في سنة 273هـ/ 886م ونتيجة لوفاته حصل الاضطراب في جيش الأمويين وتفرق الناس عنهم، ولم يستطع أخوه عبدالله ضبطهم والسيطرة على العسكر، مما شجع "ابن حفصون" على انتهاب المحلة[3].

بدأ الأمير "عبدالله" عهده بمعاهدة سلمية عقدت بينه وبين الثائر ابن حفصون، حيث نصت هذه المعاهدة على بقاء "ابن حفصون" مع جماعته في قلعة "بُبشتر" تحت وصاية الأمير "عبدالله" ومراقبة الحاكم الذي عيّنه على إقليم ريَّة، غير أن هذه المعاهدة لم تلبث كثيراً حيث تداعت بعد أشهر قليلة، حيث قام "ابن

(1) هو الحارث بن حمدون من بني رفاعة = ابن عذاري : البيان المغرب، 106/2.
(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 106/2.
(3) المصدر نفسه، 118/2-119. كذلك ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص28، 31.

حفصون" باستئناف الحرب المسلحة في المناطق المحيطة بإقليم "ريّة"، حيث تأرجح النفوذ مراراً في السنوات الأخيرة بين حكومة قرطبة وبين "ابن حفصون"، فأستهل الأمير "عبدالله" أعماله العسكرية بمطاردة هذا الثائر حتى معقله، ثم عاد إلى عاصمته مؤثـراً عدم الابتعاد عنها كثيراً، في حصار غير حاسم للقلعة الحصينة (276هـ/ 889م)[1]، وفي هـذه المـدة استطاع "ابن حفصون" أن يوسع دائرة نفوذه شمالاً فاستولى على "استجه" مستهدفاً قرطبة، ولكن المحاولة فشلت ورُدَّ صاحبها على أعقابه[2].

وفي سنة 278هـ/ 851م كثّف "ابن حفصون" من عملياته العسكرية ضد السلطة المركـزية فشن هجوماً على أقليم "جيَّان، وهناك تقدم شمالاً حتى وصل مشارف قرطبة [3]، ليفاجئ الأمير بأسلوب جديد في القتال عبر العمليات الجريئة التي قامت بها عناصره المدربة، على نحو ما نسميه اليوم بحرب العصابات، وقد اتخذ من حصن "بُلاي[4]". Pliey" معسكراً لقواته، وفي هذه الأثناء عهد الأمير إلى قائده "أحمـد بـن محمد" بمهمة التصدي "لابن حفصون" فاستطاع الانتصار على "ابن حفصـون" وسقط الحصن في يده وتفرق أنصاره وهربوا إلى الجبال المجاورة، وفي الوقـت نفسـه اسـتعاد الأمير "عبدالله" سيادته على "بُلاي" و"أستجة" والمناطق الأخرى بينما عاد "ابن حفصون" إلى قلعته "ببُشتر" يجر معه مشاعر الخيبة ومرارة الهزيمة التي حلت به، وكانت أشد ما تعرض له في حياته ، وسيكون لها أثر كبير في تحجيمه واختلال مركزه في أذهان مؤيديه وأنصاره. بينما أعطت هذه الانتصارات للأمـير عـبدالله شحنة قوية من الحيوية وثقة كبرى في الصمود، وفجَّرت قصائد الشعراء المادحين لَمجد الانتصار وتسبغ عليه هالة من العظمة[5].

---

(1) أخبار مجموعة، ص 151. كذلك ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص28، إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص266-267.

(2) أخبار مجموعة، ص151. كذلك إبراهيم بيضون المصدر السابق، ص267.

(3) أخبار مجموعة ، ص151.

(4) يقع حصن بلاي إلى الجنوب من قرطبة = أعمال الأعلام، ص151.

(5) ابن حيان : المقتبس، ص97-100. كذلك إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص268.

وفي ســـنة 280هـــ/ 893م أرسل الأمير "عبدالله" ابنه "المُطَّرف" إلى "ابن حفصون" على رأس جيش فحاصره بحصن "ببشتر" ودمر عمارته، وعاث في أنحاء الحصن وقد اضطر "ابن حفصون" إلى الخروج للقاء "المطرف" في موقعة هزم فيها "ابن حفصون" وقتل أشجع قواده ألا وهو "حفص بن المرة"[1].

وفي ســنة 286هـــ/ 899م، أظهر "ابن حفصون" ما كان يخفي من اعتناقه للديانة المسيحية[2]، وحمل كثيراً من أصحابه على ذلك مما دفع الكثير منهم — وهم من المولدين الذين اعتنقوا الإسلام — إلى الانصراف عنه ومنابذته وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير عبدالله . وقد اشتد السخط على "ابن حفصون" في أرجاء الأندلس وجدَّ المســـلمون في قتاله ورفعوا ضده راية الجهاد، وقد حاول "ابن حفصون" أن يقوي مركزه بعقد عدة تحالفات مع كل من "الفونس الثالث" ملك ليون و"بني قُسي" في سرقســـطة و "ابن حجاج في "اشبيليه" كما كاتب "ابن الأغلب" صاحب أفريقية وبعث إليه بالهدايات وأظهر دعوة العباسيين بالأندلس وبعث بطاعته للشيعة عندما تغلـــبوا على القيروان وانتزعوها من يد الأغالبة، وأظهر بالأندلس دعوة "عبيدالله المهدي[3] الشيعي".

اســـتمر الأمـــير "عبدالله" في إرسال الحملات المتتابعة في كل عام إلى "ابن حفصون" بقيادة أبنائه وقواده ليحاصروه بمقره "بُبشر" وغيرها من الحصون والمدن الـــتابعة له وحققـــوا الهزائم المتتابعة عليه وعلى أتباعه، وعاثوا في المناطق التي كان يســـتولي عليها فساداً، واستمر ذلك إلى نهاية عهد الأمير "عبدالله" سنة 300هـــ/ 912م وبالـــرغم من ذلك فإن الدولة الأموية في الأندلس لم تنجح في القضاء على ثـــورة "ابـــن حفصون" وإخمادها إلا في عهد "عبدالرحمن الناصر" سنة 315هـــ/ 927م[4].

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 124/2. كذلك عنان : دولة الإسلام، ص332.

(2) تسمى باسم صمويل.

(3) ابن عذاري المصدر السابق، 139/2. كذلك ابن خلدون : العبر، 135/4، محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص325.

(4) انظر ابن عذاري : المصدر السابق، 193/2-195. كذلك ابن خلدون: العبر، 135/4، محمد زيتون : المصدر السابق، ص225-226.

ب – الحروب الخارجية :

بالإضافة إلى الحملات التي وجهها الأمير "محمد" للقضاء على الثورات الداخلية المتعددة، فإنه لم يهمل في نفس الوقت الجبهة الخارجية، حيث أعد العديد من الغزوات والحملات العسكرية لغزو الدول والإمارات المتاخمة لهم، وذلك لرد عدوانهم، ولجعلهم يهابون الدولة الإسلامية في الأندلس، ومن أهم هذه الغزوات:

في سنة 241هـ/ 855م أرسل الأمير محمد حملة إلى "ألبة" و"القلاع"، وبلغ إلى أقصاها وافتتح كثيراً من حصون المشركين هناك، وفي سنة 242هـ/ 856م غزا "برشلونة"، وافتتح حصن المشركين هناك، وفي سنة 245هـ/ 859م تصدى لحملات النورمان، وفي سنة 246هـ/860م غزا الأمير محمد اقليم "بنبلونة"، حيث مكث جيشه فيها اثنين وثلاثين يوماً يجوس خلالَها، يفتح القرى والحصون، وفي السنوات 249هـ/ 863م، 251هـ/ 865م، 252هـ/ 866م، كرر غزواته "لالبة" و"القلاع"، وفي سنة 253هـ/ 867م، خرج الحكم ابن الأمير محمد غازياً إلى حصن "جَرْنيق" فجال في أرض الأعداء وفتحه، وفي سنة 259هـ/872م غزا الأمير محمد بنبلونة فَوَطِئ أرضها، وأذلّ أهلها، وخرّبها، ثم قفل راجعاً إلى قرطبة ومعه جماعةٌ من الثوار الناكثين للعهد المفسدين، وفي سنة 260هـ/ 873م خرج "المنذر ابن الأمير محمد إلى "سرقُسْطة" و"بنبلونة"، وكان قائد الحملة "هاشم بن عبدالعزيز" ، فاحتل "سرقسطة"، وانتهب زروعها، وأتلف ثمارها وأشجارها، ونقل أطعمتها إلى "وَشْقة"، وتقدم إلى "بنبلونة"؛ فجال في أرضها، وأتلف ثمارها وأشجارها أيضاً، وفي سنة 263هـ/ 876م خرج "المنذر ابن الأمير محمد إلى "ماردة" فخرَّب قائده "الوليد بن غانم" ديارها، وفي سنة 264هـ/ 877م حارب المنذر ابن الأمير محمد "سرقسطة"، وأفسد كل ما لقى من زروعها وثمارها، ثم تقدم إلى "تطيلة" ونواحيها، فأجال العسكر فيها، وفيها دخل "البرَّاء بن مالك" من باب "قُلُنْبرية" إلى "جليقيّة" بحشود العرب وتردَّد هنالك حتى أذهب نعيمهم، وفي سنة 266هـ/ 879م خرج عبدالله ابن الأمير محمد إلى كورة "ريّة" ونواحي "الجزيرة"، وبنى حصوناً في تلك النواحي، ثم قفل راجعًا، وفي سنة

268هـ/ 881م خرج المنذر ابن الأمير محمد ، والقائد هاشم بن عبدالعزيز إلى الثغر الأقصى، وحطم سرقسطة وافتتح حصن "رُوطة"، ثم تقدم إلى "ألبة" و"القلاع"، وافتتح حصوناً كثيرة، وأخلى بعضها، خوفاً من تغلب الأعداء عليها واستغلالها ضد المسلمين(1).

وبهذا نلاحظ أنه لم تكد تمر سنة بدون القيام بغزوة ضد الأعداء سواء في الداخل أو الخارج، وقد عمل ذلك ليبرهن على قوة المسلمين واستعدادهم لرد كل عادية.

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 95/2-105. كذلك ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص108-110 المقري : نفح الطيب، 351/1-352.

5- المنذر بن محمد بن عبدالرحمن

(273-275هـ/ 886-888م)

هـــو أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ولد سنة 229هـــ/ 843م، وبويـــع بعـــد وفـــاة والده في يوم الأحد الثامن من شهر ربيع الأول سنة 273هـــ/ 886م وتوفي في غزوة له على "بُرْبُشتر" يوم السبت منتصف شهر صفر ســـنة 275هـــ/ 888م، وقد دامت مدة حكمه سنتين إلا سبعة عشر يوماً ، ودفن بقصر قرطبة، وصلّى عليه أخوه عبدالله[1].

كـــان المنذر من أهل العقل والسَّخاء والإكرام لأهل العلم والصلاح، وقد قـــرّب إليه كل العلماء والأدباء[2]، وكان الساعد الأيمن لأبيه في حماية الدولة، فقد كـــلّفه بمحاربـــة الخارجين على الدولة ومدافعة المهاجمين لها، ولذلك خصّه أبوه بولايـــة العهـــد، وقد توفي أبوه والمنذر يقاتل "ابن حفصون" أخطر الثائرين على الدولة [3]، فعاد إلى قرطبة حيث تمت بيعته، وكان متصفاً بالشجاعة والعزم والحزم والصـــرامة، مما جعل أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون له ويرسلون إليـــه بالطاعـــة قبل أن يطلبها، ولو امتد به العمر لقضى على كل الثائرين ووطّد الأمن في كل أنحاء الدولة وحمى المسلمين من شر الفتن[4].

تســـلم المنذر إرثاً ثقيلاً من المشاكل، لم يكن من السهولة إيجاد حلول لها؛ فالتمزق السياسي بلغ مداه، والحركات الانفصالية أخذت تتفشى في كل الأقاليم، والمؤامـــرات تزحف إلى القصر فتصيب الكبار، وقد تصل إلى الأمير نفسه[5]، وقد ذكـــر "الرازي" أن الأمير "المنذر" أرسل في السنة التي تولى فيها الإمارة "محمد بن

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 113/2-114. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص113، المقري: نفح الطيب، ص352.

(2) ابن القوطية : المصدر السابق، ص113.

(3) انظر ابن عذاري : المصدر السابق، 106/2. كذلك أخبار مجموعة ، ص 149.

(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 120/2. كذلك محمد زيتون: المسلمون في المغرب والأندلس، ص316.

(5) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص264.

لُــبّ" إلى "ألبة" و"القلاع" ومعه جموع من المسلمين، ففتح الله للمسلمين وقتلوا المشركين قتلاً ذريعاً، وفي السنة نفسها (273هـ) أمر الأمير "المنذر" بسجن هاشم ابــن عــبدالعزيز" وزيــر أبيه وخاصته، ثم أمر بقتله في جمادى الأولى، وكان بين الرجلين جفوة ، حيث كان "هاشم" يحسد المنذر لمكانته عند أبيه، فكانوا يسعون به عند المنذر ويذكرون ما يقوله "هاشم" في حق المنذر، وكان مما تأوّلوا عليه، أن "هاشماً" أنشد عند وفاة الأمير محمد:

أُعَــزِّي يــا مُحمَّــد عَنْكَ نَفْسِي   أمــينَ الله ذا المِــنَنِ الجِسَــامِ

فَهَلاَّمَــات قَــوْمٌ لَــمْ يَمُوتُــوا   وَدُوفِــعَ عَنْك لي كَاسُ الحِمَام[1]

فــتأوّلوا أنّه يريد بقوله "يموتوا" المنذر، لهذا بعث من قتله ليلاً، وأمر بسجن أولاده وحاشــيته، وصادر أمواله وهدم داره، وغرَّم أولاده مائتي ألف دينار، وبقوا في ســجنهم إلى أن مات المنذر وتولى بعده أخوه "عبدالله" الذي أطلق سراحهم، ورجّع إليهم ضياعهم، وولّى أحدهم الوزارة والقيادة[2].

ثم شمر المنذر عن ساعده لمحاربة الثائرين وكان على رأسهم ابن حفصون[3]، وأخذه بالعزم ، وكاد أن يقضي عليه لولا أنّ المنية فاجأته وهو محاصره[4].

---

(1) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 2/115-116. كذلك أخبار مجموعة، ص149.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 2/116.

(3) انظر ما ذكرناه عن محاربة المنذر لابن حفصون في أثناء حديثنا عن هذا الثائر.

(4) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص113.

6- عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم

(275-300هـ/ 888-912م)

هـــو أبـــو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم، ولد في منتصف ربيـــع الآخر سنة 229هـــ/ 843م، وبويع في اليوم الذي مات فيه أخوه المنذر في "المحـــلّة عـــلى بَرْبَشْتَر، وذلك يوم السبت في منتصف شهر صفر سنة 275هـــ، 888م. ثمّ قفـــل إلى قرطـــبة بجثمان أخيه المنذر، فاستتّم البيعة بقُرْطُبه، وتوفي سنة 300هـــ/ 912م وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، فكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً[1].

وعندما أفضت الإمارة إليه كانت البلاد تموج بالفتن، وفرّقها الشقاق، وكثر فيها الخارجون عن الدولة المتغلبون عليها، واستمر ذلك طوال ولايته ، وقد تألّب على المسلمين أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جرّدوا سيوفهم على المســـلمين، فصـــاروا بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهوداً، ويموت هزلاً؛ قد انقطع الحَرْث، وكاد ينقطع النَّسْلُ، وقد ناضل الأمير "عبدالله" بكل جهده وقوته، وحمى بجدّه، وجاهد أعداء المسلمين بما يستطيع ، وصارت بلاد الأندلس هي الثغر المخُوفُ، وبذلك أضحى قتال المنافقين وأمثالهم أوْكد بالسُّنة وألْزَمَ بالضَّرُورة[2].

أ- الثورات التي قامت في عهده :

قـــامت عـــدة ثورات في عهده ، فبالإضافة إلى ثورة "ابن حفصون" ، التي استمرت في عهده فهناك ثورات أخرى سأشير إلى بعض منها باختصار ، وهي :

في ســـنة 276هـــ/ 889م ثار "أبو يحيى محمد بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز الـــتَّجيبُ" المعـــروف بالأنقر، وفيها ثار أهل "جيَّان"، وأخرجوا عاملها "عبَّاس بن

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 2/120-121. كذلك ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص115، أخبار مجموعة، ص150، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص26-28.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق، 2/121. كذلك ابن الأثير : الكامل، 7/435.

لقيـــط" وَمَلَكَها "ابن شاكر" فارسل إليهم الأمير عبدالله قائده "ابن أبي عَبْدة" في ســنة 277هــــ/890م فحاصر "جيَّان"، وحارب "ابن شاكر" وقتل جماعة من أصحابه، ثم استطاع "ابن حفصون" قتله[1]، وذلك ليتقرب به إلى الأمير "عبدالله"، وبعث برأسه إليه، ثم توجه "ابن حفصون" إلى جيَّان وأغرم أهلها الأموال الجسيمة، وبقيت جيّان وإلْبيرة مُدة دون عامل من الأمير[2].

وفي سنة 279هــ/892م غدر أهل "أَرْجذُونة" بعامل الأمير عبدالله، ونقض ابــن حفصــون عهده مع الأمير، وفي سنة 281هــ/ 894م أغرى الأمير عبدالله "عبدالملك ابن أُميَّة"، فتقدم إلى حصون "ابن مَسْتَنَة" ونازل حصن "آشر"، وحاربه وقـــتل عدداً كبيراً من أهله، وهدم حصن "السَّهْلة"، ثم رجع إلى قرطبة، كما ثار إبراهــيم بــن حجَّاج في اشبيلية، واقتسم كورتها مع الثائر كُريب بن خلدون، ثم اختـــلف ابن حَجَّاج وابن خلدون، مما دفع ابن حَجّاج إلى قتل ابن خلدون وأخيه خالد، ثم طلب من الأمير عبدالله إطلاق سراح ولده المدعو عبدالرحمن الرهين عنده فـــلم يجبه الأمير إلى ذلك في أول الأمر فنبذ الطاعة وظاهر "ابن حفصون"، وأمدَّه بالمـــال والرجال نكاية للأمير عبدالله، مما دفع الأخير إلى الاستجابة لطلبه، فأطلق ســـراح "عبدالله بن إبراهيم"، فعاد "ابن الحَجَّاج" إلى الطاعة فأطلق الأمير يده في إشبيلية[3] وأحسن إليه فاستقامت تلك النواحي على يديه[4].

ومـــن جملة الثوار الذين ثاروا ببلاد الأندلس في عهد الأمير عبدالله والذين ذكرهم ابن عذاري هم:

سَـوَّار بــن حَمْدُون ثار بحصن مُنْت شاقر، وثار سعيد بن جودي في سنة 276هــ/ 889م بالعرب في إلبيرة، وثار العرب بإشبيلية، وتغلب ديسم بن إسحاق

---

(1) ذكر ابن عذاري ، أن ابن حفصون بعث إلى ابن شاكر خيلاً على أساس تساعده ضد عدوّه، فلما وصل المدد إليه خرج إليهم، فقتلوا به وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى ابن حفصون، الذي قام بدوره ببعثه إلى الأمير عبدالله = البيان المغرب، 123/2.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 122/2-123.

(3) ضم ابن حجّاج بالإضافة إلى إشبيلية قرمونة.

(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 124/2-126.

عــلى مديــنتي لَورقة ومُرْسية وما يليهما من كورة تُدمير، وثار عبيدالله بن أمية، ومــلك كــورة جيَّان ودخل حصن ابن عمر وغيره، وثار عبدالرحمن بن مروان المعــروف بالجليقي بيطَلْيَوسْ، وماردة وعبدالله [1] بن أبي الجواد بمدينة باجة، وثار مــنذر بــن إبراهيم بن محمد السَّليم بمدينة بن السليم المنسوبة إلى جده، من كورة شذونة، ومحمد بن عبدالكريم ابن إلياس بقلعة وَرْد من كورة شذونة، وثار خير بن شاكر بحصن شُوذَر من كورة جيّان، وعمر بن مَضَمّ الهمْرُولي المعروف بالملاّحي، فاستولى على قصبة هزول، وسعيد بن هُذَيْل بحصن المُنْتلُون من كورة جيَّان، وثار سعيد بن مَسْتَنَة بكورة باغة (أوباغو)، وبني هايل[2] الأربعة ببعض حصون جيَّان، وإســحاق بــن إبراهيم بن عطّاف العُقيليُّ بحصن منتيشة (أو مُنتاشة) وسعيد بن سليمان بن جُودي أَمَّرَتهُ عرب غرناطة وإلبيرة فضبط أمرهم، حتى دبَّر عليه كبيران مــنهم بخدعة فقتلاه، وثار محمد بن أضْحى الهَمْذَاني، وهو من أكابر أبناء العرب بكــورة إلبيرة، وبكر بن يحيى بن بكر مدنية شَنْت مرية من كورة أكشونُية، وثار ابــنا مُهَــلّب من وجوه قبائل البربر بكورة إلبيرة، وثار سليمان بن محمد الشذوني بشــريش شَذونة، وابنا جُرْج بحصن بَكُور، وثار أبو يحيى التُّجيبيُّ المعروف بالأنقر بمدينة سرقسْطة وأعمالها[3].

ب – الحروب الخارجية في عهده :

بالرغم من انشغال الأمير عبدالله بالقضاء على الثورات الداخلية التي قامت في الأندلــس في أثناء حكمه إلا أنه لم يغفل حماية بلاده من الخطر الخارجي الذي كــان يتهدده من حين إلى آخر، فقد كوّن عدة حملات لهذا الغرض، كما استعان ببعض الولاة الذين كانوا يتولون الولايات المتاخمة لأراضي العدو.

(1) عند لسان الدين ابن الخطيب ، "عبدالملك" = أعمال الأعلام، ص27.
(2) عند لسان الدين ابن الخطيب ، "هابيل" = أعمال الأعلام ، ص27.
(3) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ص133/2-137.

ففـــي سنة 283هـــ/ 896م أرسل الأمير "عبدالله" حملة إلى كورة "تُدمير" بقيـــادة "هشام بن عبدالرحمن بن الحكم"، وفي السنة التي تلتها أرسل حملة أخرى بقيـــادة ابنه "أبان" إلى "لبْلة" وفي سنة 291هــــ/ 903م غزا أيضاً "رَيَّة"، كما اغزا في نفس الوقت "لُبُّ بن محمد" إلى بايش من أحواز "آلبة" فافتتح حصون"إيلاس" و"فشـــتيل شَنْت" و"مولة"، وقتل بهذه الحصون نحواً من سبعمائة علْج، وسبي بها نحواً من ألف سبية، وفي سنة 294هــــ/ 906م غزا "لب بن محمد" "نافار" وخرج إلى ناحيـــة بنبـــلونة"، وفي ســـنة 296هــــ/ 908م غزا "أبان ابن الأمير عبدالله" بالصائفة إلى جهة "رَيَّة" كما غزا في 297هــــ/ 909م الوزير "عباس بن عبدالعزيز" مدينة "قلعة رَبَاح"[1].

---

(1) ابن عذاري " البيان المغرب، 2/138-146.



الفصل الخامس

عصر الخلافة الأموية في الأندلس

(316-400هـ/ 929-1009م)

(1) عبدالرحمن الناصر وتوحيد الأندلس
(2) الإنجازات الداخلية في عهد الخلافة
(3) الأخطار الخارجية في عهد الناصر
(4) "السياسة الخارجية للأندلس في عهد الخلافة"





1- عبدالرحمن الثالث "الناصر لدين الله"

(300-350هـ/ 912-961)

لما توفي الأمير عبدالله سنة 300هـ / 912م، ظفر حفيده عبدالرحمن بن محمد [1] بالإمارة دون أعمامه وأعمام أبيه، وكانوا أحق منه بالإمارة شرعاً، ولكنهم تخلوا له عنها زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار، وكان اعتلاء الإمارة بقرطبة يعني التعرض لهذه المكاره والأخطار[2]، حيث كانت الأندلس يومها تحتاج إلى الهمة العالية والسياسة الحكيمة لحل مشاكلها، وتوفير الاستقرار المطلوب، والاستمرار في دفع موكب الحضارة الخيِّرة، والإنتاج الفكري المترعرع في ربوعها[3]. وكان الظن أن مصير الأندلس سيؤول حتماً إلى الزوال؛ لذلك زهد في الإمارة من هم أحق بها من البيت الأموي. وتعلقت آمال النَّاس بهذا الشاب اليتيم — عبدالرحمن بن محمد[4] — الذي يتوقد شباباً وعزماً، ويتحرق شوقاً لتوطيد دولة الإسلام في الأندلس.

وهكذا تهيأت لهذا الفتى الإمارة من حيث لا يدري ، وأصبح أمير قرطبة بلا منازع، في الوقت الذي كانت الأندلس فيه جمرة تتقد وناراً تضطرم[5].

كان الناصر أميراً حازماً، وذكياً وعادلاً، وعاملاً شجاعاً، محباً للإصلاح وحريصاً عليه. قاد الجيوش بنفسه، فأنزل العُصاة من حصونهم، لشجاعته وسياسته الحكيمة، بالسيف أحياناً، وبالسياسة الرشيدة أحياناً أخرى، عفا عمن طلب الأمان

---

(1) هو عبدالرحمن بن محمد، حفيد الأمير السابق عبدالله بن محمد، وقد كُني بأبي المطرف قبل توليه الحكم. انظر ترجمته في كل من : ابن عذاري: البيان المغرب، 158/2-233. كذلك المقري: نفح الطيب، 353/1-381، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص 28-41، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص 279-319، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص297-320.

(2) السيد عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، ص279.

(3) عبدالرحمن الحجي : المصدر السابق، ص297-298.

(4) كان أبوه محمد بن عبدالله محبوباً لدى أبيه، فرشحه لولاية عهده باعتباره أكبر بنيه سناً وآثره على أخيه المطرف، فعظم الأمر على الأخير فقتله، وذلك في سنة 277هـ، وهي نفس السنة التي ولد فيها عبدالرحمن بن محمد = ابن عذاري : المصدر السابق، 150/2.

(5) السيد عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، ص279-280.

وعاد إلى الطاعة. أحبه رعيته وأخلصوا له، وكان هو قدوة لهم. لذلك استطاع أن يقضي على العُصاة، ويُعيد للأندلس وحدتها وهيبتها ومكانتها بين الدول[1].

◈ **سياسته الداخلية :**

أ- القضاء على الثورات الداخلية :

وجد الأمير عبدالرحمن الناصر أرض الأندلس مضطربة بالثائرين، مضطرمة بنيران المتغلبين ، فعمد قبل كل شيء إلى إخماد هذه النيران واستنزال أهل العصيان[2]، وكانت سياسته تهدف إلى جعل السلطة المركزية في يده، وتوحيد الأندلس كما كانت عليه أيام أمراء بني أمية الأقوياء، لهذا كان لزاماً عليه أن يلتزم سياسة تقوم على الترهيب والترغيب، أو على الشدة واللين[3]، وقد شرع في تنفيذ خطته في عزم وإصرار، فأنفذ الكتب إلى العمّال في جميع كور الأندلس يطلب الطاعة والاستسلام، فكان أول ردّ ورد عليه بذلك هو ردّ "سعيد بن السليم" عامل حصن "مارتس" من كورة "جيّان". ثم أرسل الأمير "عبدالرحمن" أمناءه إلى البلاد لأخذ البيعة، فبعث إلى أميري الثغرين الأدنى والأقصى الفقيه أبي مروان عبيد الله بن يحيى، ومحمد بن عبدالله بن نصر، وإلى كورة الغرب حفص بن عبدالرحمن، وأحمد بن عبدالملك، وكان أول من بايع الأمير من أصحاب الأطراف محمد بن عبدالرحمن التجيبي أمير سرقسطة، وتتابعت البيعة والاستسلام للأمير عبدالرحمن من جميع أنحاء الأندلس، واستبشر الناس بهذا الأمير خيراً، الذي دخلت محبته في نفوسهم، لما أبداه من أشكال التسامح للخارجين على السلطة المركزية، بعد أن استسلموا له، فلما قضى شهر من توليه الإمارة أعد حملة كبيرة للقضاء على بقية الثوار، وتُسمى هذه الصائفة بغزوة "المنتلول"، وافتتح خلالها سبعين حصناً من أمهات الحصون سوى ما فتح بفتحها من توابعها مما قارب الثلاثمائة بين حصن وبرج، وقد كان في يد عبيدالله بن أمية المعروف بابن الشالية منها ما يجاوز المائة[4].

---

(1) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 2/223-224. وكذلك ابن الخطيب : أعمال الاعلام، 41-42، عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص297.

(2) المقري : نفح الطيب، 1-353.

(3) عبدالحميد العبادي: المجمل ، ص112.

(4) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص280.

أمــا بنو حجاج باشبيلية، فقد استطاع الأمير "عبدالرحمن" أن يجتذب منهم إليــه "أحمــد بــن محمــد بن مسلمة بن حجاج"، والذي ولى اشبيلية بعد وفاة عــبدالرحمن بن إبراهيم بن حجاج سنة 301هــ/ 913م فسلم له مدينة اشبيلية في نفس السنة المذكورة، ثم أذعن له محمد بن إبراهيم بن حجاج صاحب قرمونة[1].

وعــن ســقوط إشبيلية في أيدى "عبدالرحمن الناصر" يقول "ابن عذاري" إنه بعد قــدوم محمد بن إبراهيم بن حجاج على الأمير عرض نفسه "لمحاربة أهل اشبيلية. فأخــرجه لذلك مع "قاسم بن وليد الكلبي"[2]، وحاصراها شهوراً. ثم خرج إليها الحــاجب بدر بن أحمد؛ فدخلها يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى مــن هــذه الســنة [أي سنة 301هــ] وهدم أسوارها، واستصلح أمور أهــلها[3]. واستعمل عليها "الناصر" "سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم"، فبني القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصّنه بسور من الحجر[4].

ومــن المشكلات الداخلية الأخرى التي واجهت الأمير عبدالرحمن مشكلة "ابن حفصون" وهي أخطر مشكلة واجهته، حيث كما نعلم أن الأمير "عبدالله بن محمــد" لم يستطع القضاء على هذه الثورة، بل استفحل أمرها في عهده، وقويت شــوكتها، واتســعت رقعــة ممــلكة "ابن حفصون"، حيث أغار على"موررور" و"شذونة" و"قرمونة" و"إلبيرة"[5].

ولكــن لحســن حظ المسلمين بالأندلس أن ارتد هذا الثائر عن الإسلام ، وأعــلن اعتناقه للنصرانية في سنة 286هــ / 899م، "وكان قبل ذلك يُسرُّها"[6]، ولما عرف السملمون ذلك انفضوا من حوله، ورأى المسلمون في الأندلس أن حربه

---

(1) ابــن حيــان : المقتبس ، ص84. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 163/2، السيد عبدالعزيز سالم: المصدر السابق، ص281.

(2) وهو صاحب شرطته العُليا = ابن عذاري : المصدر السابق، 159/2.

(3) البيان المغرب، 163/2-164.

(4) الحميري : صفة جزيرة الأندلس، ص20.

(5) انظر ابن عذاري : المصدر السابق، 2-131-134.

(6) ابن عذاري : البيان المغرب، 139/2.

جهاد في سبيل الله، "فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي"[1]، حتى ضعف أمـــره، وتظاهر بالخضوع للأمير "عبدالرحمن بن محمد" بعد أن رأى قوته وصولته، فوجـــد طريق المصالحة مع الأمير الجديد هو الطريق الأمثل، وكانت المفاجأة عندما أرســـل "عمر بن حفصون" عهداً بالاعتراف به والالتزام بالولاء والطاعة للسلطة المركـــزية، وجاء هذا الثائر إلى قرطبة حوالي سنة 303هـــ/ 915م، وغزا مع قواد "الناصـــر" بـــلاد النصـــارى، ثم تـــوفي سنة 305هـــ (917م) حسب قول ابن عذاري[2]، أو سنة 306هـــ (918م) حسب قول ابن الخطيب [3]. وقد ولي أمره بعـــد وفاته ابنه "جعفر ابن عمر"، الذي ذهب مذهب أبيه في الثورة ضد السلطة المركـــزية ولكـــنه اغتيل بقلعة "ببشتر" فتولى بعده أخوه "سليمان"، واعترف به "الناصـــر"، وأخـــذ في مقارعـــة الإمارة الأموية بعد أن شعر بقوته. غير أن الأمير عبدالرحمن سدَّ كل منافذ القلعة، وأحاطها بحزام كثيف من جنوده، وظَلَّ يترل بها الضـــربات المتلاحقة حتى خارت قواها أخيراً بسقوط "سليمان" في معركة طاحنة ســـنة 314هـــ/ 926م [4]، واستســـلام أخيـــه "حفـــص" في السنة التالية [5] (315هـــ/ 927م) بعـــد أن اخترقت جنود الإمارة أسوار القلعة المنيعة. وهكذا قضى الأمير عبدالرحمن على بني حفصون أخطر الخارجين عليه[6].

ب- اتخاذه لقب خليفة :

بعـــد القضـــاء عـــلى ثـــورة بني حفصون ، واقتلاع جذورها شعر الأمير عـــبدالرحمن بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق الوحدة السياسية. فعلى الرغم من أن بضـــعة مواقـــع، كانت ما تزال خارجة على سيادته ، فإن أمرها لم يكن يقلقه

(1) المصدر نفسه ، 139/2.

(2) المصدر نفسه ، 171/2.

(3) أعمال الأعلام ، 171/2.

(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 192/2.

(5) ذكر ابن الخطيب أن ذلك حدث في 316هـــ = أعمال الأعلام ، ص34.

(6) ابن عذاري : المصدر السابق، 193/2. كذلك ابن الخطيب: المصدر السابق، ص33-34.

كثيراً، بعد أن بلغ هذا المبلغ من القوة والنفوذ. ولعل إحدى مظاهر الثقة القوية بقدرته على تحطيم القوى المعادية والمتصدية له، ذلك القرار الذي اتخذه بُعَيْد سقوط حصن "ببشتر" في يديه حين وجد أن اللّقب الذي توارثه عن أسرته وأجداده وهو الإمارة لم يعد يتسع لطموحه الكبير، فأعلن نفسه خليفةً تيمناً بأجداده الأمويين خلفاء دمشق [1]. فانتهى بذلك عهد الإمارة، سنة 316هـ/ 928م في وقت كانت الظروف الداخلية والخارجية متاحة لإعلان هذه الخطوة.

ويبدو أن أهم الأسباب التي دفعت بعبد الرحمن الناصر لاتخاذه هذه الخطوة المهمة تكمن في الآتي:

1- الوحدة السياسية في الأندلس :

إن الوحدة السياسية في الأندلس قطعت شوطاً طويلاً في طريق التنفيذ ، بعد ستة عشر عاماً من النضال الصعب توج بانتصاره العظيم على "بني حفصون"[2].

2- ضعف الخلافة العباسية :

ضعفت الخلافة العباسية في المشرق، في تلك الأثناء، حيث استقلت عنها بعض الأقاليم؛ ففي المغرب قامت دولة بني رستم، ودولة بني مدرار ودولة الأدارسة، كما كوّن العباسيون إمارة الأغالبة في تونس.

ونتيجة لهذا الضعف انحدرت سمعتها إلى الحضيض، وتحولت إلى مطية لأطماع القواد الأتراك، الذين أصبحوا مهيمنين على مصائر الخلفاء وأصحاب الكلمة النافذة في الدولة. وعندما جاءه خبر مقتل الخليفة المقتدر بالله (295-320هـ/ 907-932م) على يد قائده ومولاه "مؤنس المظفر" تلقب بألقاب الخلافة[3].

3- قيام الخلافة الفاطمية :

قامت الدولة الفاطمية الشيعية في شمال إفريقية (297هـ/ 909م) ثم اتسعت رقعتها بعد انتقالها إلى مصر وتأسيس مدينة القاهرة عام 358هـ/969م

---

(1) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 198/2. كذلك إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص282-283.

(2) إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص283.

(3) المقري : نفح الطيب، 353/1. كذلك إبراهيم بيضون: المصدر السابق، ص283.

وكانت هذه الدولة معروفة بعدائها للعباسيين وللأمويين معاً باعتبارهم سنيين، وكان هؤلاء يرنون إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع وغدر[1].

4- **أما السبب الرابع** : فهو سبب داخلي استهدف إعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية، بما للخلافة من تأثير معنوي يتعدى لقب الإمارة مما سيؤدي إلى اشتداد قبضتها على أطراف الدولة قاطبة[2].

5- الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين [3]، وخاصة أنه يوجد خلافتان في العالم الإسلامي، فلا مانع من قيام خلافة ثالثة في الأندلس.

نتيجة لهذه الأسباب وغيرها أعلن الناصر نفسه خليفة ، حيث يروي "ابن عذاري" أنه "في سنة 316هـ، رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات له في جميع ما يجري ذكره فيه، بأمير المؤمنين ، لما استحقه من هذا الاسم، الذي هو له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة؛ فهو أبرُّ أمراءِ المؤمنين والهداة الفاضلين، والأبرار المتقين، من كلّ مُنتخب في المشرق والمغرب، وقائم بالحقّ، وسالك لسبيل الهُدى والرشد؛ فعهد إلى "أحمد بن بقيّ" القاضي صاحب الصلاة "بقرطبة" بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة بذلك"[4].

وفي اليوم التالي 2 ذي الحجة سنة 316هـ، أصدر الخليفة الجديد منشوراً عاماً إلى عماله في الكور والمدن الأندلسية، يقول لهم فيه "... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروجُ الكتب عنّا وورودها علينا بذلك، إذ كلّ مَدْعُوٌّ بهذا الاسم غيرنا مُنْتَحِلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومُتّسمٌ بما لا يستحقّه. وعلمْنَا أنّ التمادىَ على تَرْك الواجب لنا من ذلك حقّ أضعناهُ، واسمٌ ثابت أسقطناهَ. فَأمرُ الخطيب بموضعِك أن يقول به، وأجْرِ مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله[5].

---

(1) أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص60.

(2) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، 283-284.

(3) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص60.

(4) البيان المغرب، 198/2.

(5) البيان المغرب، 198/2-199.

وبعد ذلك أمر "عبدالرحمن الناصر" بإثبات عبارة "الناصر لدين الله أمير المؤمنين" في أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ونفذ الأمر بذلك[1].

وهكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب "خليفة" في ذرية" عبدالرحمن الناصر" من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة 422هـ/ 1030م.

ونظام هذه الخلافة نظام مُلك يقوم على أساس التوريث، ويستند إلى السياسة أولاً، ثم إلى الدِّين ثانياً، فهو يختلف تماماً عن نظام خلافة الإسلام الأولى أيام الخلفاء الراشدين، الذي كان يقوم على الشورى والانتخابات. وإذا ما قارنا خلافة الأندلس بالخلافات الأخرى المعاصرة لها مثل: خلافة العباسيين أو الفاطميين، نجد أن الخلافة الأندلسية كانت أكثر ديمقراطية منها، فالخليفة العباسي كان يحكم بتفويض من الله، بينما الخليفة الفاطمي كان يرى نفسه إماماً معصوماً من الخطأ ولا يسأل عما يفعل لأنه المعلم الأكبر الذي ورث العلوم الدينية بما فيها من أسرار الكون وخفايا الغيب عن النبي عن طريق الإمام علي بن أبي طالب ثم أبنائه من بعده[2].

جـ- بقية إصلاحاته وأعماله الداخلية :

1- تقوية الأسطول الأندلسي :

يعد عبدالرحمن الناصر المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي، فقد نشطت حركة إنشاء وصناعة السفن في عهده إلى حدّ أنه أنشأ لهذا الغرض عدداً كبيراً من دور الصناعة في مدن الأندلس، مثل : المرية، وطرطوشة، والجزيرة الخضراء، ومالقة، ولقنت، وشلب، وقصر أبي دانس بالبرتغال، ودانية، ومدينة الزهراء، وشنتمرية بالبرتغال. واستخدم لذلك أخشاب الصنوبر، التي تنبت في طرطوشة؛ لجودتها وصلاحيتها لذلك، ويبدو أنه هو الذي أمر بتأسيس دار صناعة السفن

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 198/2. كذلك أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص6.
- Levi- provencaly, Garcia Gomez: una Cronica anonima de Abd al-Rahman III Al-Nasirm Madrid, 1958, p.79.

(2) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص380، 381.

"بطـــنجة"، ودار صناعة "مصمودة" القريبة من سبته [1]، وذلك بعد استيلائه على طنجة ومليلة سنة 314هــ/ 926[2]،وستبه سنة 319هــ/ 931م[3].

هـــذا وقد ذكر "ابن خلدون" أن أسطول الأندلس في عهد "الناصر" قد بلغ مائتي سفينة تقريباً[4].

2- تحصين الثغور الأندلسية :

اهتم عبدالرحمن الناصر بتحصين سواحل وثغور الأندلس، ولا سيما المنطقة الجنوبية ، التي كانت عرضة لأي غزو مفاجئ يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده. ويرى بعض المؤرخين أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة سنة 302 هـــــ/ 914م، حيث أشرف على الأعمال الدفاعية في "طريف Tarifa"، والجزيرة الخضراء" Algeciras" ولا يزال القصر الذي بناه في طريف باقية آثاره إلى الوقت الحاضر [5]. ونظراً لأهمية هذا الثغر وخطورته، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور في يد أمير من الأسرة الأموية[6].

3- تقدم الحركة العمرانية والعلمية في الأندلس زمن الناصر :

أ- المنشآت المعمارية في عهده :

نشـــطت الحركة العمرانية والعلمية في قرطبة في عهد الخلافة نشاطاً كبيراً، حتى أصبحت تضاهي العواصم العربية الأخرى، بغداد، والقاهرة، ودمشق وغيرها، وأصـبحت تســتقطب الآلاف مــن البشــر، وتزدحم بآلاف المنازل والقصور، وعشـــرات الفنادق والحمامات والمتاجر، وتخترقها الشوارع بالأسواق المرصوفة، وتعـــج أروقة المساجد فيها بالعلماء، والفقهاء، وبعض طلاب العلم، كما تجتذب صـــورها أجواء الشعر والغناء[7]، وقد عمل "الناصر" على جعل حاضرته "قرطبة"

---

(1) السيد عبدالعزيز سالم وزميله : تاريخ البحرية، ص175-176.

(2) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب --- نشر دي سلان (الجزائر، 1991) ص89.

(3) المصدر نفسه، ص104.

(4) المقدمة، ص253.

(5) أحمد العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص72.

(6) المصدر نفسه ، ص72.

(7) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص298.

جديـــرة بأن تكون حاضرة الخلافة، فأخذ يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخـــلفاء، وقامت في "قرطبة" حركة معمارية لم تشهد لها نظيراً من قبل، ونشطت هـــذه الحركة على وجه خاص منذ سنوات 325هـــ/ 936م، واستمرت في عهد ولـــده "الحكـــم المستنصر بالله"[1]. وفي ذلك يقول "ابن عذاري": إن الناصر "قد أسس الأُسوس، وغرس الغروس، واتخذ المصانع والقصور"[2].

وفي بدايـــة سنة 329هـــ/ 940م أكمل "الناصر" بناء القناة الغريبة الصنعة الـــتي يجري منها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، يجري ماؤهـــا بشـــكل عجيـــب ، وصنعة محكمة ، إلى بركة عظيمة ، عليها أسدٌ عظيم الصـــورة، بديـــع الصـــنعة، شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صوِّر الملوك في العصور الماضية، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما تلألؤاً شديداً[3].

هذا وقد أنشأ "الناصر" مدينة "الزهراء" بقرطبة على بعد ثمانية كيلو مترات شمال غرب قرطبة على سفح "جبل العروس" من جبال قرطبة، ابتُدئَ بنيانها في أول سنة 325هـــ/ 936م، حيث جُلبَ إليها الرُّخام من قرطاجنة وتونس، وكان فيها من السواري أربعة آلاف وثلاثمائة وثلاث عشرة سارية[4].

وتشير بعض الروايات التاريخية أن سبب بناء "الناصر" لهذه المدينة راجع إلى طـــلب من إحدى جواريه، والتي كانت اسمها "الزهراء" وفي ذلك، يقول "المقري" نقـــلاً عـــن بعض مشايخ قرطبة: إن "سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سُـــرِّيَة (جاريـــة) وتركت مالاً كثيراً، فأمر أن يفكّ بذلك المال أسرى المسلمين، وطـــلب في بـــلاد الإفـــرنج أسيراً فلم يجد، فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريـــته "الزهراء" وكان يحبها حباً شديداً: اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمى، وتكون خاصّة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل، وشمال قرطبة، وبيـــنها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك، وأتقن بناءها، وأحكم الصنعة

(1) السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة، 60/1.
(2) البيان المغرب، 333/2. كذلك ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص29.
(3) المقري : نفح الطيب ، 564/1-565.
(4) ابن عذاري : المصدر السابق، 231/2. كذلك ابن الخطيب المصدر السابق، ص38.

فيها، وجعلها مستترها ومسكناً للزهراء وحاشية أرباب دولته، ونقش صورتها على الـــباب، فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحصنها في حجْر ذلك الجبل الأسود، فقالت: يا سيّدي، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي؟ فأمر بزوال ذلك الجبل، فقال بعض جلسائه: أُعيذ أمير المؤمنين أن يخطـــر له ما يشينُ العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفراً ولا قطعاً ، ولا يـــزيله إلاّ من خلقه، فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً، و لم يكن منظر أحسن منها، ولا سيّما في زمان الإزهار وتفتح الأشجار، وهي بين الجبل والسهل"[1].

ولعـــل الدافع الرئيسي وراء بناء "الناصر" لمدينة "الزهراء" لم يكن استجابة لرغـــبة محظيـــته، ولكـــن يرجع ذلك إلى سرعة نمو العاصمة "قرطبة" واكتظاظها بالسكان، بالإضافة إلى نزعة الخليفة "الاستقراطية" باتخاذ مقر جديد فيه من البهاء والفخامـــة مـــا يتمشـــى مع طموحه وآماله في تأسيس دولة قوية تضاهي الدول الأخرى الكبرى آنذاك[2].

وقد استعمل الناصر في بناء "الزهراء " أعداداً هائلة من المهندسين والفنانين والبـــنائين والعمال، حيث بلغ عددهم في اليوم عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة، وكان أولئك الرجال منهم من يتقاضى في اليوم ثلاثة دراهم، ومنهم من يتقاضى الدرهمين، ومنهم من يتقاضى الدرهم والنصف، "وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غـــير المعدل"[3]. وجلب إليها "الناصر" الرخام الأبيض من مدينة "المرية"، والمجزَّع من مدينة "رية"، والوردي والأخضر من أفريقية : اسفاقس، وقرطاجنة، والحوض المنقوش المذهب من الشام أو القسطنطينية[4].

وكان يشرف على بناء هذه المدينة ابنه "الحكم" والمهندس "مسلمة بن عبد الله"، وقد استمر ذلك لمدة سبع عشرة سنة، على أن بناءها لم يتم نهائياً إلا بعد أن

---

(1) نفح الطيب، 523/1-524.
(2) إبراهيم بيضون : الدولة العربية ، ص299-300.
(3) المقري : نفح الطيب، 526/1.
(4) المصدر نفسه، ص526.

أربعين سنة أي أنها لم يكتمل بناؤها بصورة نهائية إلا في عهد ابنه "الحكم المستنصر بالله" وبالرغم من ذلك فقد انتقل إليها "عبدالرحمن الناصر" سنة 336هـ/ 947م، ونقل إليها بيت المال كما نقل إليها نساءه وأولاده وخدمه وحرّاسه واستقبل فيها السفراء والوفود. على أنه يلاحظ أن قرطبة ظلت مع ذلك هي عاصمة الدولة الرسمية، وكانت هذه المدينة تحتل مستطيلاً طوله 1500 متر، وعرضه 750 متراً، وأن المياه كانت تأتيها من أعلى الجبل في قنوات على بعد ثمانين كيلو متراً. وقد اقتضى ذلك نقب الجبل بطريقة هندسية رائعة ما تزال آثارها باقية إلى اليوم على شكل عيون في الجبل[1].

وكان بناء مدينة "الزهراء" في غاية الإتقان والحسن، وبها من المرمر والأعمدة الكثيرة وأجريت فيها المياه، وأحيطت بها الحدائق والبساتين من كل جانب[2].

وبالرغم من الاهتمام الكبير الذي حظيت به "الزهراء"، والأموال الطائلة التي أنفقت على تشييدها، وسرعة بنائها ، إلا أنها تهاوت بالسرعة التي قامت بها وكأن وجودها ارتبط بالخلافة، حتى اضمحلت هذه الأخيرة ولحقت بها ولقيت نفس المصير[3]. ولعلها أول مدينة في التاريخ تغدر بها الأيام، فتحوّلها إلى بقايا أنقاض، حيث ظلت مطمورة منسية حتى مطلع هذا القرن، عندما قام أحد علماء الأسبان وهو : "بلا سكث بوسكو" Vela Zquez Bosco". بحفريات في المكان الذي أقيمت عليه، معتمداً على المعلومات الواردة في "نزهة المشتاق"[4] للإدريسي، الذي كان قد زارها بعد وقت قصير من خرابها [5]، وهي لا تزال حتى اليوم ، تحمل اسمها العربي القديم مدينة "الزهراء Medina Zahra"[6].

---

(1) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص416.
(2) المقري : المصدر السابق، 527/1.
(3) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص301.
(4) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص415.
(5) نزهة المشتاق، ص193.
(6) أحمد العبادي : المصدر السابق، 414.

ومن أعمال الناصر المعمارية المهمة، إعادة بناء مدينة "سالم : Medina Celi" التي تقع شمالي مدينة "مدريد" بحوالي 153ك.م في الطريق الذي بين "مدريد" و"سرقسطة" وهي الآن من أعمال مقاطعة "سورية: Soria" ، وقد عُرفت هذه المدينة قديماً في العصر الروماني باسم "أوسيلين : Ocilis" ولما فتح العرب أسبانيا، عمّر هذه المدينة زعيم مغربي اسمه "سالم بن ورعمال المصمودي"، الذي يحتمل أن يكون من قادة الرعيل الأول، الذين شاركوا في فتح الأندلس. ومنذ ذلك الوقت عرفت هذه المدينة باسم هذا القائد "سالم" . ويبدو أنها خربت أثناء الفتن التي وقعت أثناء حكم الأمير "عبدالله بن محمد"، إذ إنه لما ولي "عبدالرحمن الناصر" أعاد بناءها وجعلها ثغراً حربياً لمواجهة إمارة "قشتالة" الناشئة، وذلك في سنة 335هـ/ 946م وأشرف على بنائها مولاه "غالب" وغيره من قواد الثغور، فنقلوا إليها البنائين والآلات، وبنيت أحسن بناء، وصارت شجاً في حلوق الكافرين. وأصبحت منذ ذلك الحين قاعدة للثغر الأوسط إلى جانب "طليطلة" قاعدة الثغر الأدنى، و"سرقسطة" قاعدة الثغر الأعلى[1].

وأضيف إلى قصر الخلافة بقرطبة مجالس وقاعات، ثم أنشئت مدينة "الزاهرة" في خلافة "هشام المؤيد"، واتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة، بحيث كان يمشي فيها لضوء السرج عشرة أميال[2].

ومما ساعد على تقدم العمارة في عهد "الناصر" شغفه الشديد بالبنيان، لهذا فقد خصص له ثلث جبايته[3].

ومما يثير الإعجاب في "قرطبة"، مسجدها الجامع العظيم، الذي واكب تاريخ الأمويين في الأندلس، بحيث كاد يكون لكل أمير منهم بصماته الواضحة عليه، فيصبح مع كل عهد أكثر اتساعاً وأروع جمالاً، حتى إذا كانت خلافة "الناصر" وابنه "الحكم"، بلغ أقصى اتساعه فمن ناحية الجنوب أصبح محاذياً لنهر الوادي الكبير[4].

---

(1) ابن حزم : "جمهرة أنساب العرب، ص466. كذلك ابن عذاري: البيان المغرب، 2/213-214، أحمد العبادي: المصدر السابق، ص418.
(2) المقري :نفح الطيب (نقلاً عن الشقندي) 2، 5، 4، 4/203. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة، 1/6
(3) ابن عذاري : البيان المغرب، 2/231.
(4) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص38. كذلك إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص299.

ويصف "المقري" هذا المسجد الجامع نقلاً عن بعض المؤرخين بقوله: "ليس في بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة، وكلما احتفلت منه أربع سواري كان رأسها واحداً، ثم صفت رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله"[1].

ومن إضافات "الناصر" لهذا المسجد الجامع، أنه أقام له صومعة جديدة كبيرة من الحجر سنة 340هـ/951م، وذلك بسبب تصدع الصومعة (أو المئذنة) القديمة أربعين ذراعاً، كما كانت ذات مطلع واحد، فجاء "عبدالرحمن الناصر"، فأمر بإزالتها وجعل للمئذنة الجديدة مطلعين فصل بينهما بالبناء فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها. وكان لكل مطلع مائة درج وسبعة أدراج، وطولها ثمانون ذراعاً إلى وقوف المؤذن. وفي أعلا ذروة المنار ثلاث رمانات تعشي النواظر بشعاعها وتخطف الأبصار بالتماعها؛ الأولى مفروغة من الذهب، والوسطى من الفضة، والثالثة من الذهب أيضاً. وزنة كل رمانة قنطار واحد فما دونه، ودور كل واحدة ثلاثة أذرع ونصف[2].

وبالإضافة إلى الصومعة، فهناك زيادة كبيرة ذكرها "ابن عذاري"، وهذه الزيادة اتصلت بزيادة ابنه "الحكم"، الذي تولى الخلافة بعده "وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون أمامه يوم الجمعة للأذان"[3].

ب- النهضة العلمية في عهده :

لم تكن قرطبة مزدهرة عمرانياً فقط، بل كانت إلى جانب ذلك قلعة علمية عظيمة شامخة تغص مكتباتها بآلاف المخطوطات النفيسة الأصلية والمترجمة، وتعج أروقة مساجدها وقصورها بنخبة كبيرة من العلماء والشعراء والمثقفين، يستهويهم المناخ الفكري الفريد في المدينة، والعقلية المستنيرة والمتطورة. هذه النهضة العلمية والأدبية التي شقت طريقها في الأندلس على يد الأمير "عبدالرحمن الثاني"، كانت

(1) نفح الطيب ، 545/1.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 228/2. كذلك المقري: المصدر السابق، 562/1، أحمد العبادي: المصدر السابق، ص418-419.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 3-228/229.

قـد بـلغت مرحلة من النضج والعطاء في عهد "الناصر"، وعلى الأخص في أيام خليفـته المثقف وصاحب مكتبة في ذلك الوقت، وهو ما سنتطرق إليه عند حديثنا عن الخليفة الحكم المعروف بالمستنصر بالله[1].

لقـد بلغت قرطبة حاضرة الخلافة درجة رفيعة من الحضارة، وأخذت تشع تأثيراتهـا إلى سائر أنحاء الأندلس، بل إلى مجالات بعيدة خارج الأندلس، في مختلف العـلوم العقلية، على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان، مما كان له الأثر الكبير في تفـوق الأندلـس عـلى غيرها من الأقطار الأوربية المجاورة ، وفي تقدم الحضارة الأوربية[2].

كـان أهل قرطبة من أشد الناس احتراماً للكتب، وأكثرهم شغفاً باقتنائها، واعتـناءً بخزائـنها، حتى أصبح ذلك على حد قول "محمد بن عبدالملك بن سعيد" ((مـن آلات التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يحـتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به))[3].

وهـذا إن دلّ على شيء ، فإنما يدل هلى حب أهل قرطبة للكتب وشغفهم بهـا. ومما يدل على ذلك ما ذكره "المقري" على لسان "أبي يحيى الحضرمي" حيث يقول :

((أقمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلـبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حده. فقلت لـه يا هذا؛ أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غـرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده. فقال لي:

(1) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص301.

(2) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين ، ص317.

(3) المقري : نفح الطيب، 11/2. كذلك السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة ، 162/2.

لســت بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كُتب، واحتفلت فيها لأتجمل بهـا بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيـد التجـليد، استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعمُ به من الـرزق، فهـو كثير. قال الحضرمي: فأخرجني، وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، يعطي الجوز من ليس له أسنان، وأنا الذي أعلم مـا في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحُول قلة ما بيدي بيني وبينه))[1].

◈ سياسة ناصر الخارجية :

تتلخص سياسته الخارجية في النقاط التالية :

1- الخطر الفاطمي الشيعي في المغرب جنوباً.

2- خطر الدويلات المسيحية الإسبانية شمالاً.

3- مقاومة الخطر النورماندي.

4- علاقاته الدبلوماسية مع ملوك أوروبا.

أولاً : الخطر الفاطمي في الجنوب :

كانت المغرب تسيطر عليه أربع دول هي :

1- دولة الأغالبة (184-296هـ/ 800-908م) :

ومقـر حكمهـا المغـرب الأدنى أو أفريقية، وأمراؤها بنو الأغلب، كانوا يحكمـون باسم الخلافة العباسية وعاصمتهم الرسمية مدينة "القيروان"، بينما كانت عاصمتهم الخاصة التي يقيمون فيها مدينة "رقّادة" جنوبي القيروان بأربعة أميال وقد سقطت هذه الدولة على يد أبي عبدالله الشيعي سنة 296هـ/ 908م[2].

2- الدولة الرستمية (144-296هـ/761-908) :

وهـي دولة خارجية أباضية قامت في المغرب الأوسط (الجزائر) ومؤسسها اسمه "عبدالرحمن بن رستم" الذي يقال أنه من أصل فارسي. وكانت عاصمة هذه

---

(1) نفح الطيب، 11/2.

(2) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص385.

الدولة مدينة "تاهرت" قرب مكان "تيارت: Tiaret" الحديثة في مقاطعة "وهران" غربي الجزائر. وقد استمرت هذه الدولة قائمة في المغرب الأوسط وعلى علاقة طيبة مع الأمويين في الأندلس إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة 296هـ/ 908م[1].

3- الدولة المدرارية أو دولة بني واسول (140-349هـ/757-960م):

وهـي دولـة خارجيـة صفرية. وعاصمتها مدينة "سجلماسة" في جنوب المغـرب الأقصـى، وقـد اندرست الآن وتقوم مكانها مدينة "الريساني" في منطقة "تـافيلالت". وقد استمرت هذه الدولة إلى أن قضى عليها قائد الفاطميين "جوهر الصقلي" سنة 349هـ/ 960م[2].

4- دولة الأدارسة (172-363هـ/ 788-973م):

وهـي دولة علوية حسنية أسسها في المغرب الأقصى "إدريس بن عبدالله بن الحسـن بن الحسن بن علي بن أبي طالب"، وبنى عاصمتها مدينة "فاس" التي أتمها ابنه "إدريس الثاني".

هـذه هي الدول الأربع التي كانت تحكم المغرب الكبير عندما قام الداعي الفاطمي "أبوعبدالله الشيعي" بمرحلته الحربية في المغرب[3].

قـامت الدولـة الفاطمية على أيدي الداعية الشيعي "أبو عبدالله الشيعي"، وكـان أول حكامها هو "عبيدالله المهدي" (297-322هـ/ 909-933م) الذي تـلقب بالمهدي أمير المؤمنين، واتخذ مدينة "رقّادة" عاصمة له، بعد أن طرد أهلها، ووزع دورها على رجاله من كتامة[4].

قـام الخليفة "الناصر" بعدة خطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي تتلخص فيما يلي:

---

(1) النفوسـي، سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الإباضية ، 14/2 وما بعدها. كذلك أحمد العبادي: المصدر السابق، ص385-386.

(2) راجع ابن ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب، ص146. كذلك أحمد العبادي: المصدر السابق، ص387.

(3) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص387.

(4) المصدر نفسه ، ص388، 389.

أولاً : إعـــلان نفســـه خليفة : وهذه النقطة سبقت الإشارة إليها في السياسة الداخلية .

ثانياً : تقوية الأسطول الأندلسي :

اهتم الناصر بتقوية أسطوله البحري – كما سبق وأن ذكرنا، بحيث استطاع أن يمـــنع امـــدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي "عمر بن حفصون"، وفي ذلك يقـــول ابن عذاري: وفي سنة 301هـــ "ألفت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميزه من العدْوة؛ فأُحرق جميعها"[1].

ثالثاً : تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب :

اهـــتم عبدالرحمن الناصر بتحصين هذه الثغور – كما ذكرنا في أثناء حديثنا عـــن سياســـته الداخلية – وذلك لاتقاء شر أي خطر قد يأتي من الفاطميين على بلاده.

رابعاً : احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق :

اســـتطاع "عـــبدالرحمن الناصر" الاستيلاء على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل بلاده؛ حيث استطاع الاستيلاء على طنجة ومليله سنة 314هـــ/ 926م[2]. وسبتة سنة 319هـــ/ 931م[3].

خامساً : اصطناع ملوك ورؤساء القبائل في المغرب :

عمل "الناصر" على اصطناع رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى، مثل : دولة الأدارسة، التي كان نفوذها قد انحصر بعد الغزو الفـــاطمي، في المـــناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة، وأصيلاً، وقلعة النسر أو حجـــر النســـر بين قبائل غارة. ومثل إمارة نكور أو بني صالح، وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف، وكان يحكمها في ذلك الوقت "صالح بن سعيد"[4].

---

(1) البيان المغرب، 165/2.

(2) عبدالله البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص89.

(3) المصدر نفسه، ص104.

(4) عبدالله البكري : المغرب، ص90، 96. كذلك أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص400.

ولم يقتصر "عبدالرحمن الناصر" على محالفة هذه الدويلات أو الإمارات المغربية الشمالية فقط، بل تخطاها إلى ما وراءها من قبائل البربر، ولا سيما قبيلة "زناتة"، التي عمل على تحريضها ودفعها إلى قتال "صنهاجة" حليفة الفاطميين(1).

سادساً : تأييد ثورة أبي يزيد الخارجي :

شجع الناصر وأيد معظم الثورات والحركات المعادية للدولة الفاطمية، ومن أهمها وأخطرها ثورة الخوارج التي قامت في تونس والجزائر بقيادة "أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي" ضد الدولة الفاطمية، ونظراً لتأييد "الناصر" لهذه الثورة، اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ودعا للخليفة "الناصر" في البلاد التي خضعت له(2). ففي هذا الخصوص ، يقول : ابن عذاري"، إنه في سنة 333هـ / 944م ((قدم على الناصر رَسُولان من أبي يزيد مَخْلَد بن كَيْداد المعروف بصاحب الحمار، القائم بإفريقية على "أبي القاسم الشيعي"، برسالة منه يخبر بتغلُّبه على القَيْروان ورَقّادَة وعَمَلهما، وإيقاعه بأصحاب الشيعي فيها، وما يعتقده من ولاية الناصر، ويأوي إليه من اعتقاد إمامته واتَّصلت كُتُبَ أبي يزيد ورُسلُه على قُرطبة من ذلك الوقت إلى حين وفاته))(3).

سابعاً : التحالف مع أعداء الدولة الفاطمية من ملوك أوروبا والمشرق :

تحالف "الناصر" مع ملوك بعض الدول المعادية للفاطميي وأبرم معهم بعض الاتفاقيات، ومن بين أولئك الملوك ملك إيطالياً "هوج دي بروفانس : Hugues de provence"، الذي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء "جنوة". كذلك تحالف مع "قسطنطين السابع" إمبراطور الدولة البيزنطية، الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من حوزة الفاطميين(4).

---

(1) انظر : Levi provebcal : la politica africana de Abd al Rahman III, Al Andalus, Voi xi Fasc. 2, 1964 كذلك أحمد العبادي : المصدر السابق، ص400، 401 .

(2) أحمد العبادي ، المصدر السابق، ص401.

(3) البيان المغرب ، 212/2.

(4) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص402.

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع "الإخشيديين" ملوك مصر، فأرسل إليهم عشرة آلاف دينار لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك[1].

ثانياً : الخطر الأسباني المسيحي في الشمال :

بعد نحو ثمانية عشر عاماً من الجهود التي بذلها "عبدالرحمن الناصر"، استطاع إعادة الوحدة السياسية للدولة، وأصبح يمتلك جيشاً قوياً تحت إمرته، يستطيع عن طريقه أن يقف ضد أية أخطار خارجية.

وقبل الحديث عن الاحتكاك الحربي الذي حصل بين الخلافة الأموية في الأندلس، وبين القوى النصرانية في شمال أسبانيا، لابدّ من العودة إلى البدايات الأولى للفتح العربي لأسبانيا.

سبق وأن ذكرنا أن العرب عند فتحهم لأسبانيا تركوا المنطقة الشمالية الغربية بدون فتح ، وهي المعروفة باسم "جليقية" أو "غاليسيا"، وهو إقليم امتاز بالوعورة، وصعوبة المسالك، وقساوة الطبيعة، مما جعل اختراقه أمراً صعباً، وكان رائد المجموعة التي اعتصمت في هذه المنطقة الجبلية رجل يدعى، "بلاي: Pelayo، اتخذ مقره في كهف "كافادونجا: Covadonga" (أي كهف أونجا) أو صخرة "بلاي" كما سماها العرب[2]، ومن هذا الكهف خرجت فكرة القضاء على الحكم العربي في أسبانيا، وتحريرها من نفوذهم، حاملة لواءها أقدم دويلات الأسبان التي كانت "جليقية" نواتها الأولى، وأصبحت تعرف بمملكة "ليون" أو"استورقة" بزعامة "الفونسو الأول" (حفيد بلاي)[3]. وقد أقامت هذه المملكة على ضفاف نهر "دويرة: Duero" أي على حدودها الجنوبية والغربية المتاخمة للمسلمين – سلسلة من القلاع والحصون: Castellas" لحماية تلك الحدود. وقد اتحدت هذه القلاع في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في إمارة واحدة عرفت باسم : "Castilla"، وهو الاسم الذي عرّبه المسلمون إلى قشتالة، ومعناه القلاع[4].

---

(1) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص 403.

(2) المصدر نفسه ، ص405-406.

(3) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص296.

(4) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص406.

كـــانت تـــلك البداية الجدّية لحركة المقاومة الأسبانية، التي أخذت ملامحها تتكشـــف يـــوم بعد آخر، وصادفها الحظ بأن الواقع العربي في الأندلس، لم يكن خاليـــاً من المشاكل، التي صرفت جلّ أوقات الحاكمين منذ الفتح حتى هذا العهد. فقُدِّر لهذه الدولة أن تتسع، لتضم بالإضافة إلى مملكة قتشالة التي ظهرت إلى الشرق مـــنها ممـــلكة أســـبانية جديـــدة مدفوعة بنفس الأهداف السياسية وهي "نافارا: Navarra" أو "نـــبرة" كمـــا يســـميها العرب، على سفوح جبال "البرتات" أو "الـــبرينية" وحققت بزعامة ملكها "شنجة" أو "سانشو الأول Sengha" مكاسب عـــلى جانب من الأهمية، حيث امتدت سيطرها إلى تخوم "سرقسطة"، إحدى أكبر مدن أسبانية العربية، وكان ذلك القاسم المشترك لهذه الممالك، هو الموقع الجغرافي المتشـــابه في الوعـــورة والمـــناخ، فكان ذلك أول أسلحتها التي استخدمتها في ردِّ الهجمات إلى قلب معاقلها الجبلية البعيدة، فضلاً عن سلاح آخر لا يقل مضار. ألا وهـــو الهـــزات العديـــدة الـــتي تعرض لها الحكم الإسلامي، حيث صرف طاقاته الأساســـية، التي كان ينبغي توجيهها إلى الخارج في صراعات محلية طويلة، وكان لهـــذه الدويـــلات الأســـبانية الناشئة، أن تراهن على الهيار الأوضاع الداخلية في الأندلـــس وتحقيـــق سياستها التوسعية[1]. وخاصة أن هذه الإمارات أو الدويلات كـــانت من الناحية الشمالية متاخمة لأوروبا وعلى اتصال بفرنسا والبابوية والعالم الكـــاثوليكي، وكل هذا ساعد على تدعيم قواها المادية والروحية ضد المسلمين في الجنوب[2].

وحينما آل حكم الأندلس إلى "عبدالرحمن الناصر"، وجد نفسه أمام حلف أســـباني قوي متكون من ملك "نبرة" أو "البشكنس" "شانجة أو سانشو الأول ابن غرسية" وملك "ليون" أوردونيو الثاني ابن ادوفونش "Ordono"، وقد استطاع هذا الحلف أن يستغل حالة التفكك التي كانت عليها الأندلس قبيل عهد "الناصر"، وأن يحـــتل بعـــض الأراضي والمدن الإسلامية[3]. وقد استشهد في هذه المعارك بعض

(1) إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص286.

(2) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص406.

(3) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص406-407.

القيادة المسلمين، مثل القائد "أحمد بن محمد بن أبي عبده" سنة 305هـ/ 916م ((واستُشهد من المسلمين معه من آثر الشهادة ورَغبَ عن خزي الفرار))[1].

بعد هذه الهزيمة أمر حاجبه "بدر بن أحمد" بالتوجه إلى دار الحرب لغزو "مطونية"، وذلك في سنة 306هـ/ 917م، وأمر بالتكثير من الأجناد والفرسان والأبطال ((ونفّذت كُتبه إلى أهل الأطراف والثغور بالخروج إلى أعداء الله، والدخول في مُعسكره، والجدّ في نكاية أهل الكفر، والإيقاع بهم في أواسط بَلادهم، ومُجتَمع نَصْرانيّتهم ... فانثالت إليه (أي الحاجب) العساكر من كلّ جهة في أقرب ثغور المسلمين؛ ودخل بهم دَار الحرب، وقد انحشد المشركون ، وتجمعوا من أقصى بلادهم. واعتصموا بأمنع جبالهم؛ فنازلهم الحاجب... بأولياء الله وأنصار دينه؛ فكانت له على أعداء الله وقائعُ اشْتفتْ فيها صدور المسلمين، وانتصروا على أعداء الله المشركين. وقتل في هذه الغزاة من حُمايتهم، وأبطالهم، وصلاة الحروب منهم، جملة عظيمة لا يأخذها عدٌّ ، ولا يُحيط بها وَصْفٌ))[2].

وفي سنة 308هـ/ 920م قرر "الناصر" الخروج بنفسه على رأس جيش كبير لمحاربة الملكين "شانجه" و"أوردونيو"، واستطاع خلال هذه الغزوة أن يلقن الملكين المذكورين واتباعهما دروساً قاسية، وأن يستعيد بلاداً كثيرةً، وأن يهدم حصوناً عديدة للعدو، ففي هذا الخصوص، يذكر المقرْي عن غزوات عبدالرحمن الناصر ((أنه غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جليقية وملكها اردون بن اذفونش، فاستنجد بالبُشكنْس والإفرنجة وظاهر شانجه بن غرسية صاحب بنبُلونة أمير البُشكنس، فهزمهم ، ووطئ بلادهم، ودوّخ أرضهم، وفتح معاقلهم، وخرب حصونهم))[3].

كذلك غزا بنفسه "بَنْبَلُونة" سنة 312هـ/ 924م وتوغل في أراضيها، وخرب حصونها [4] ومبانيها، وفتح خلالها ثلاثين حصناً[5]. كما غزا سنة

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 170/2، 171.
(2) المصدر نفسه ، 172/2، 173.
(3) نفح الطيب، 363/1.
(4) من هذه الحصون: قلهرة، وفالجش وتقالية، وقرقستال.
(5) المقري : نفح الطيب، 363/1.

322هـ/ 933م و"اَخْشَمَة" (أوسما : Osma)، وهدم إحدى مدن الحدود الشمالية، ألا وهي: "برغش: Burgos" ، وكثيراً من معاقل النصارى، ورجع غانماً منتصراً[1].

وفي سنة 327هـ/ 938م غزا غزوة "الخندق"؛ وهي معركة وقعت عند خندق مدينة "شمنقة" أو شنت منكش: Simancas"[2]، وكان الجيش الأسباني بقيادة "راميرو الثاني" الذي خلف أردينو" على حكم مملكة "ليون"، وكان هذا الملك طموحاً عنيداً، واصل الحرب مع المسلمين، متعاوناً في ذلك مع حلفائه أصحاب مملكة "نبرة" فخرج إليه "عبدالرحمن" بجيش كبير يضم عناصر من العرب. والبربر والصقالبة[3]، وقلد قيادة هذا الجيش لأحد مماليكه، وهو "نجدة الصقلبى"، وقد كان التفوق العسكري في هذه المعركة لصالح الأسبان، بحيث أن قلة قليلة نجحت في الأفلات من سيوف الأسبان من بينها الخليفة الأموي نفسه. فكان وقع الهزيمة قاسياً عليه إلى حدّ أن استنكف منذ ذلك الوقت عن قيادة الغزوات بنفسه، تاركاً هذه المهمة لبعض قواده[4].

ويبدو أن سبب تلك الهزيمة، هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم، إذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة، فأدى ذلك إلى الهزيمة، وقتل القائد "نجده الصقلبى"، وفرار عبدالرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة[5].

غير أن هذه الهزيمة لم تحدث أي تغيير مهم على الشريط الحدودي مع الأسبان، حيث ظلت العلاقة معهم تتأرجح بين السلم والحرب في السنوات المتبقية

(1) المقري : المصدرالسابق، 363/1، 364.

(2) أخبار مجموعة ، ص155-156. كذلك المقري: المصدر السابق، 363/1، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص36.

(3) أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً، وهي البلاد التي كانت تسمى في العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى = أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص407.

(4) المقري: المصدر السابق، 363/1. كذلك إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص288/ 289.

(5) انظر أخبار مجموعة ، ص155. كذلك المقري: نفح الطيب، ص363، أحمد العبادي المصدر السابق، ص407.

مـــن حكـــم "الناصـــر"؛ وكانت شدة السخونة التي عرفتها هذه الجبهة مع مجيء "رامـــيرو الثاني" قد فترت إلى حدٍّ كبير، لا سيما بعد وفاة هذا الملك المتطرف سنة 339ه، / 950م ومـــا أعقب ذلك من تنافس شديد بين ولديه: "أردينو" و"شنجة أوسانشو" على وراثته(1).

ومـــن المـــثير حقاً أن يكون الناصر هو الحكم بين الأخوين، فتروي بعض المصادر التاريخية أن "سانشو" كان رجلاً مفرط السمنة لدرجة أنه كان إذا ركب حصـــاناً لا يســـتطيع حمله، مما جعل شخصيته مضحكة في نظر شعبه وهذا ساعد على فقدان عرشه وتفوق أخيه "أردينو الرابع" عليه، ورأى "سانشو" أنه بحاجة إلى تهذيـــب قوامـــه مـــن جهة، وإلى جيش يسانده لاستعادة عرشه من جهة أخرى، وهـــذان الأمران متوافران عند الخليفة "الناصر" في قرطبة ، حيث كان علم الطب متقدماً آنذاك في قرطبة على أي بلد آخر. ولهذا طلب "سانشو" من الناصر أن يمده بجيـــش وطبيب ، فأرسل له الناصر طبيباً يهودياً حاذقاً ملماً بلغة أهل الشمال ألا وهـــو الطـــبيب "حســـداي بن شبروط"، وبالفعل استطاع هذا الطبيب معالجة "سانشـــو"، وتقـــليل وزنه، كما استطاع أن يتفق معه على تسليم الناصر عشرة حصون مهمة على حدود مملكته في مقابل المساعدة العسكرية التي طلبها، على أن يكون توقيع المعاهدة في قرطبة نفسها، وبالفعل سافر سانشو إلى قرطبة ومعه جدته "طوطـــه Teoda" ، وعدد من رجال دولته (في سنة 347هـــ/ 958م)، فاستقبلهم الناصـــر في قصر "الزهراء" استقبالاً فخماً ، ثم سير معهم جيشاً إلى ليون أعاد إلى "سانشو" عرشه سنة 349هـــ/ 960م. هذه الحادثة وأمثالها تدل بوضوح على أن الخـــليفة "الناصر" استطاع أن يبسط نفوذه على الشمال المسيحي، وأن يفصل في مشاكل ملوكه فيولي ويعزل منهم من يشاء(2).

ثالثاً : مقاومة الخطر النورماندي :

بـــدأ الخطر النورماندي في عهد الأمير "عبدالرحمن الأوسط"، عندما غزوا الأندلـــس سنة 230هـــ/ 844م، حيث هاجموا "اشبونة"، فتصدى لهم المسلمون

---

(1) المقري: المصدر السابق، 1/365-366 . كذلك إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص290.

(2) انظـــر المقري : المصدر السابق، 1-363، 364. كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص410.

وطردوهم[1]، ثم عادوا الكرة في عهد الأمير "محمد بن عبدالرحمن" مرتين في سنة 245، وسنة 247هـ/ 859، 861م، ولكن الأسطول الأندلسي استطاع في كل مرة أن يردهم على أعقابهم خائبين خاسرين[2].

وفي عهد الخليفة "الناصر"، لم يرد في المصادر التاريخية التي بين أيدينا ما يفيد بأن النورمانديين قاموا بغارات بحرية على السواحل الأندلسية في أيامه. إلا أنه يلاحظ أن الخطر النورماندي في ذلك الوقت، قد بدأ يتخذ طابعاً مستقراً ثابتاً، نتيجة لاتخاذهم قاعدة لهم بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية، وهي ولاية "نورمانديا: Normandie" في غرب فرنسا. وتاريخ هذه القاعدة النورماندية يرجع إلى سنة 300هـ/ 912م وأثناء المنازعات التي قامت بين أفراد الأسرة "الكارولنجية". فيروى أن ملك فرنسا "شارل الثالث" الملقب "بالساذج: Le Simple"، أقطع الزعيم النورماندي "رولون: Rollon" هذه المقاطعة، التي عرفت باسم "نورمانديا" ولم يلبث هذا الزعيم أن أعتنق المسيحية وتسمى باسم "روبرت". وقد شكلت هذه المقاطعة أو الولاية النورماندية الدنمركية خطراً كبيراً على الأندلس عن طريق الحملات البحرية التي كانت تخرج من موانيها وتغير جنوباً على السواحل الغربية، كذلك عن طريق حملاتها البرية التي كانت تعبر جنوب فرنسا ثم تغير، على الثغور الأندلسية الشمالية. وقد بدأت تلك الحملات في عصر ملوك الطوائف، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حينما استولى النورمانديون على القلعة الإسلامية، "بربشتر Barbastro" شمالي سرقسطة سنة 456هـ/ 1064م، غير أنه يبدو من كلام "العذري" أن هذه الغارات النورماندية على سرقسطة ترجع إلى أيام الخليفة "عبدالرحمن الناصر"[3].

---

(1) أنظر ابن عذاري: البيان المغرب، 2/87-88.

(2) انظر المقري: نفح الطيب، 1/350-351. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص20، أحمد العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص265-267.

(3) العذري: ترصيع الأخبار، ص72-73. كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص411-412.

رابعاً : علاقات الناصر الدبلوماسية مع ملوك الدول الأوروبية :

اجتمعت في شخصية "الناصر" عدة مواهب، وكل واحدة منها تؤهل صاحبها ليكون حاكماً على قدر من النجاح الكبير. فهو سياسي مرن، وقائد شجاع، وإداري صلب، بالإضافة إلى ثقافة أدبية واسعة، وذوق فني رفيع. وشخصية كهذه لابد أن تترك بصماتها على دولة الأندلس بصورة عامة، وقرطبة بصورة خاصة، وهي تتألق معه نصف قرن من الزمن، حيث وصل بجهوده الجبارة ومنجزاته العظيمة ، إلى أن يجعل منها جوهرة العصر، وصرة الأندلس، تزدحم بالسكان وتشمخ في سمائها العمائر والقصور، ويؤمّها أصحاب العلم وطلابه من كل حدب وصوب. وأصبح "الناصر" بعد رحيل منافسه "المعز لدين الله الفاطمي" (341-365هـ/ 952-975م) إلى المشرق، وأفول شمس الإمبراطورية الكارولنجية، الشخصية الأكثر قوة في غربي البحر المتوسط. وفوق ذلك كان باستطاعته أن يدّعي الزعامة الدينية للعالم الإسلامي، بعد تحجيم هذا الدور، الذي استأثر به الخلفاء العباسيون ردحاً من الزمن، قبل أن يسيطر عليهم ضباط القصر من الترك والديلم. وهكذا فإن الخليفة "الناصر" تحول في السنوات العشر الأخيرة من عهده إلى رجل العالم الإسلامي القوي، له من متانة نظامه في الداخل وسمعته السياسية في الخارج، ما يؤهله لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة، التي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات وديّة معه[1].

وفي إطار العلاقات الدولية بين قرطبة في عهد "الناصر" والعواصم الأخرى البارزة آنذاك ، تستوقفنا تلك العلاقة الخاصة مع العاصمة البيزنطية التي كان بينها وبين قرطبة على ما يبدو من انسجام ، فرضته تطورات الأحداث والظروف المتشابهة. وكانت الدولة البيزنطية قد استعادت عافيتها على يد الأسرة المقدونية، ورجعت لها مكانتها التقليدية كزعيمة للعالم المسيحي، خاصة في عهد الإمبراطور "قسطنطين السابع" (334-348هـ/ 945-959)، المعاصر للخليفة "الناصر". وتصف الروايات التاريخية هذا الإمبراطور بأنه كان شغوفاً بالعلم والتاريخ وفنون

(1) إبراهيم بيضون : الدولة العربية 293-294.

الرسم والنحت وتنسب إليه أبحاث في هذه المجالات لا تخلو من الأهمية [1]، كانت لهـــا مســـاهمتها في ازدهار الحركة العلمية وتقدمها في القسطنطينية، حيث بلغت أوجهـــا في عهد هذا الإمبراطور. ولعل السرّ في تبادل هذه السفارات يرجع إلى أن "قسطنطين" فكر وقتذاك في إعداد حملته الكبيرة ضد "جزيرة كريت"، فأراد بهذه الســـفارة، إما أن يحصل على مساعدة الخليفة الأموي في الأندلس، أو على الأقل يضمن حياده[2]، ولا يساند الفاطميين في صراعهم مع البيزنطيين.

ويشـــير كـــل مـــن "ابـــن عذاري"[3]، و"لسان الدين ابن الخطيب"[4]، و"المقري"[5] إلى السفارات التي حصلت بين "الناصر" و"قسطنطين السابع" خلال سنتي 334، 338هـــ (945، 949م). ونورد هنا ما ذكره لسان الدين بن الخطيب في ذلـــك، حيـــث يقول : ((ووصل إليه (أي إلى الناصر) رسول ملك القسطنطية العُظمـــى، راغـــباً منه في إيقاع المؤالفة. فقَعد له المقعد الشهير، الذي لم يتهيأْ مثلهُ لَملك قَبْله؛ فدخل الرسول عليه، وقد بهت لهول ما عاينه، ودفع إليه رسالته مُودَعةً في دَرْجِ ذهـــب كـــثير التصـــاوير؛ وكـــان الكتاب في رقٍّ سماويِّ اللّون مكتوباً بـــالذهب، وعليه طابعُ ذهبٍ، في أحد وجَهيه صورةُ المسيح، وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين))[6].

أمـــا "ابن خلدون" فيصف لنا الاحتفال الذي أقامه "الناصر" احتفاءً بالوفد الـــبيزنطي الـــذي جاء إلى قرطبة سنة 336هـــ/ 947م، فيقول: ((رتبت في ذلك اليـــوم العســـاكر بالســـلاح في أكمل شكل، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة

(1) رستم ، أسد : الروم، في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (بيروت ، 1956) 2/ 27-28. كذلك إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص294، السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص 410.

(2) العريني: المصدر السابق، ص426.

(3) البيان المغرب، ص/213.

(4) أعمال الأعلام، ص37.

(5) نفح الطيب، 1/364-365.

(6) أعمال الأعلام ، ص37.

وأصـــناف الســـتور، وجُمّـــلَ السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة، والأعمام والقرابة، ورُتب الوزراء والخدمة في مواقفهم))[1].

ومـــن بين الذين أمّوا قصر الخلافة في "الزهراء" (مقر الناصر) ممثلون لملك "ليون الأسباني"، خاصة بعد أزمة الحكم بين الأخوين أردونيو، وشانجة أوسانشو، والتي سبق الحديث عنها، وقد أسفرت عن مساعدة الناصر "لسانشو" وتمكينه من الوصول إلى العرش[2].

ومن العلاقات المثيرة التي شهدها الخلافة الأموية في الأندلس أثناء فترة حكم "الناصر"، ذلك الاتصال الذي حصل بينها وبين "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"، التي كان على رأسها "أوتو الأول : Otton I"، وهو أقوى الشخصيات الأوروبية في ذلك الوقت. وتجدر الإشارة إلى أن إمبراطورية "شارلمان" التي توراثها هذا الملك (أوتـــو)، فقدت كثيراً من أهميتها السابقة، ولم تعد متكافئة في قوتها السياسية مع الخلافة الأموية في الأندلس[3].

هـــذا ومن الملفت للنظر أن هذه العلاقات ، لم تتطرق إليها المصادر العربية إلا باقتضـــاب شديد، حيث لم تذكر إلا شخصية السفير الأسقف وتاريخ الزيارة التي يبدو أنها تمت في حدود سنة 343هـــ/ 945م. فمثلاً "ابن عذاري"، يقول في هـــذا الخصـــوص: ((وفي سنة 343هـــ، قدمت رُسُل "هُوتُو" ملك الصقالبة على الناصر))[4].

ويـــبدو أن هذه الاتصالات جاءت نتيجة للغارات البحرية التي كان يشنها المجاهدون الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية. وعلى الرغم من أن نشاط هذه الجماعـــات الـــبحرية كـــان من باب أعمال القرصنة الحرة التي كانت شائعة بين المسلمين والمسيحيين سواء. فإن الإمبراطور "أوتو الأول" اعتبر "عبدالرحمن الناصر" هـــو المسؤول الأول عن أعمال هؤلاء البحّارة الأندلسيين، ويطلب منه في رسالة شـــديدة اللّهجة أن يعمل على وضع حدّ لها. وقد ردَّ عليه الخليفة "الناصر" برسالة

---

(1) العبر، 142/4. كذلك المقري: أزهار الرياض، 258/2، أبو نفح الطيب، 364/1.

(2) انظر المقري: نفح الطيب، 364/363/1. كذلك إبراهيم بيضون:الدولة العربية، ص296.

(3) إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص297.

(4) البيان المغرب، 218/2.

مماثلة سنة 339هـ/ 950م. وبعد حوالي أربع سنوات (أي عام 343هـ) عاد الإمبراطور "أوتو الأول" وبعث برسالة أخرى إلى الخليفة الأموي على يد راهب يدعى "جان دي جورز"[1]. أو "يوحنا الجورزيني". فلما وصل الراهب إلى قرطبة أحسن استقباله، وأنزل في قصر قريب من إحدى الكنائس كي يتسنى له ممارسة شعائره الدينية[2]. وهذه ظاهرة لها دلالة واضحة على مناخ الحرية الدينية الشائع في قرطبة، خاصة في عهد الناصر، كما لها دلالة أخرى ألا وهي مرونة هذا الخليفة، الذي لم ينفعل إزاء عصبية الأسقف ورسالته الجدلية حول موضوع الإسلام، والتي أصر المبعوث الأسقفي على إلقائها بين يدي الخليفة. فقد رفض الخليفة استقباله بعد أن علم بمضمون الرسالة، قبل أن يستوثق إذا كانت هذه الأخيرة تمثل وجهة نظر الإمبراطور، أم أن الأسقف المتطرف اهتبلها فرصة للإفضاء عن آرائه العدائية في مجلس الخليفة[3]. ونتيجة لتصرف هذا الراهب المشين، أرسل الخليفة "الناصر" سفيراً من قبله إلى الإمبراطور أوتو، واختار لهذه السفارة رجلاً مستعرباً يجيد العربية واللاتينية معاً وهو "رثموندو: Recemundo"، المعروف في الروايات العربية باسم "ربيع بن زيد"، وهو كما يبدو تحريف لاسمه الأسباني[4].

ونستخلص من العبارات المختصرة والغامضة التي أوردت خبر هذه الزيارات المتبادلة بين الخليفة الأموي والإمبراطور "أوتو"، أن سفير "الناصر" بدد السحب السوداء التي غمرت العلاقات بينهما، والتي حاول تقليدها الأسقف المتعصب. فقد استقبل أوتو مبعوث الناصر بترحاب وأحاطه بالحفاوة والتكريم[5]. بينما اجتمع مبعوثه في قرطبة إلى الخليفة، محاطاً بنفس الرعاية بعد اكتفائه بالمراسيم العادية، دون التطرق لموضوع آخر غير العلاقات الودية بين الدولتين، حيث كان لسفير الناصر دوره الإيجابي في هذا المجال[6].

---

(1) دي جورز : Gorze : نسبة إلى دير جورز Gorze، الذي كان ينتمي إليه هذا الراهب بالقرب من مدينة متز Metz.

(2) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص412-413.

(3) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص297.

(4) انظر ابن خلدون : العبر، 143/4.

(5) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, p. 193.

(6) إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص297-298.

هذه أهم العلاقات الدبلوماسية التي حصلت بين الدولة الأموية في الأندلس في عهد عبدالرحمن الناصر، وبين بعض الدول الأجنبية الكبرى المعاصرة له.

توفي الخليفة الناصر سنة 350هـ/ 961م، وهو في سن الثالثة والسبعين من العمر، بعد حُكم دام خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام. وعلى الرغم من طول فترة حكمه، فقد نسب إليه عبارة كتبها بنفسه في آخر حياته يقول فيها: ((أيام السرور التي صَفَتْ لي دون تكدير في مدَّة سُلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. فعُدَّت تلك الأيام، فوُجِد فيها أربعة عشر يوماً))[1].

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة ومدى احترام الملوك له أن الملك الأسباني "أوردونيو الرابع" ملك "ليون" حينما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة "الحكم المستنصر بالله"، سأل عن قبر "الناصر" وذهب إليه وركع أمامه في خشوع مظهراً احترامه الكبير لذكراه[2].

كذلك نجد المؤرخ المشهور "دوزي" في كتابه "تاريخ المسلمين في أسبانيا" يشيد بشخصية "عبدالرحمن الناصر" ويعتبره في عداد الملوك العصريين لا كخليفة من خلفاء العصور الوسطى على أساس ما تحلى به من صفات كالروح الديمقراطية والأخذ بأسباب المدنية، وغير ذلك من الصفات التي تفرق بين الملك العصري والملك القديم[3].

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ، 232/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 379/1، أو أزهار الرياض، 282/2 .

(2) ابن خلدون : العبر، 145/4. كذلك أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص419.

(3) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص419.

الحكم الثاني المستنصر بالله

(350-366هـ / 961-976م)

بويـــع أبو المُطَرِّف الحكم الثاني المستنصر بالله، بعد وفاة والده لثلاث خلونْ مـــن رمضان سنة 350هـــ / 961م وتوفيّ ليلة الأحد لثلاث خلْون من صفر من سنة 366هـ/ 976م فكانت مدة حكمه خمس عشرة سنة، وسبعة أشهر، وثلاثة أيام[1].

وحين تولى "المستنصر بالله" الحُكم كانت الأندلس مستقرة على أسس ثابتة موحَّـــدة، حدودها آمنة تتمتع بالتقدم والازدهار والعمران الباهر. وكان "الحكم" قد أعده أبوه لمثل هذا المنصب، فأسند إليه أموراً مهمة في حياته، واستمر "الحكم" راعياً لهذا الموكب، أكمل مشاريعَ بدأت قبله، وأنشأ غيرها. عُرف بصفات كثيرة، يـــبرز مـــنها حُـــبَّه للعلم، وزادت العلوم ازدهاراً وزهت الأندلس بمجالس العلم والجامعـــات والمكتبات العامة، وكان "الحكم" نفسه عالماً كبيراً، جلب الكتب من البلاد الإسلامية كافة وبذل فيها الأموال الطائلة[2].

هـــذا وقد وصفه "لسان الدين بن الخطيب" بقوله : ((كان — رحمة الله — عالماً فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جمَّاعاً للكُتُب، مميِّزاً لـــلرجال من كل عالَم وجيل، وفي كلِّ مِصْر وأوان، تجرَّد لذلك وتهمَّم به؛ فكأنَّ فيه حُجَّة وقدوةً وأصلاً يوقف عنده))[3].

ومـــن الأمـــور الحميدة التي عملها في أثناء فترة حكمه أنه، شدد في إبطال شرب الخمر في كافة أرجاء الخلافة تشديداً عظيماً[4].

---

(1) انظر ابن عذاري : البيان المغرب، 233/2 . كذلك المقري : نفح الطيب، ص386.

(2) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص299.

(3) أعمال الأعلام ، ص41.

(4) المقري : المصدر السابق، 396/1.

1- ازدهار الحضارة الإسلامية في عهده :

لقــد بــلغت الحضـــارة الإسلامية في الأندلس خلال فترة حكمه ذروتها، ووصلت "قرطبة" حاضرة الخلافة إلى قمة البهاء والعظمة، وأصبحت دُرّة في جبين الحضارة تنافس مدن العالم الكبرى، "بغداد" و"روما" و"القسطنطينية" في الاتساع والتخطيط وفي الحضارة[1].

كـــان "المستنصـــر بالله" يشبه الخليفة "المأمون" في معرفته بالطب والفلسفة والفـــلك بالإضافة إلى العلوم الدينية واللغوية والأدبية، وكان يستجلب إلى مكتبته المصـــنفات من شتى الأقاليم، ويبذل في شرائها الأموال الكثيرة حتى ضاقت عنها خزائنه[2].

وفي هـــذا الخصـــوص يقول المقري، نقلاً عن "ابن حزم"، الذي أخبره تليد الخصـــيُّ — الـــذي كان قيماً على خزانة العلوم والكتب لبني أمية بالأندلس — أن عـــدد الفهـــارس التي احتوتها هذه المكتبة الضخمة أربع وأربعون فهرسة اقتصرت على ذكر العناوين وأسماء المؤلفين فقط، وفي كل فهرسة عشرون[3] ورقة وقيل إن تـــلك المكتـــبة قد احتوت على أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها استغرقوا ستة أشـــهر في نقـــلها، والغريب في الأمر أن معظم هذه الكتب قد اطلع عليها الحكم وعـــلّق عـــلى هوامشـــها، فكان يكتب على كل كتاب نسب المؤلف، ومولده، ووفاتـــه، ثم يذكـــر أشـــياء غريـــبة مـــن عنده، وذلك لتضلعه في معظم العلوم واهتمامه بها[4].

وكـــان "لـــلحكم المستنصر بالله" — على وفق بعض الروايات التاريخية — سفراء متجولون، يمدونه بما يقع في أيديهم من مخطوطات نفيسة مهما بلغ ثمنها[5]. وكـــثيراً مـــا كـــانت تنتهي إليه مؤلفات بلاد المشرق قبل أن يقرأها أهلها هناك.

---

(1) السيد عبدالعزيز سالم " قرطبة حاضرة الخلافة ، 61/1.

(2) المصدر نفسه ، 61/1.

(3) في كتاب الجمهرة خمسون ورقة.

(4) نفح الطيب، 394/1، 395.

(5) المراكشي : المعجب، ص62.

فيروى على سبيل المثال أن "الخليفة المستنصر بالله" ما كاد يعلم أن العالم العراقي أبا الفرج الأصفهاني" يشتغل بتأليف كتاب "الأغاني" حتى أرسل إليه ألف دينار من الذهب، وطلب منه أن يبعث إليه بنسخة منه قبل ظهوره بالعراق، ففعل ذلك، وكذلك فعل مع "القاضي أبي بكر الأبهري المالكي" في شرحه "لمختصر ابن عبدالحكم" وغير ذلك[1].

هذا وقد جند "الحكم المستنصر بالله" للخدمة في مكتبته فريق كبير من الكَتَبَة والمجلدين والمزخرفين، استقدم بعضهم من "صقلية" بل وحتى من "بغداد"، وكانوا يعملون تحت إشراف موظف موهوب كبير من حاشية الخليفة، وذلك لإغناء تلك المكتبة الرائعة، التي تحتوي على نفائس المؤلفات. وسرعان ما أخذت الطبقة الاستقراطية في العاصمة الأندلسية تقلد العاهل في تكوين مكتبات خاصة غنية، إلى درجة أن مائة وسبعين امرأة كنَّ يعملنَ يومياً في نقل نسخ من القرآن بالخط الكوفي، وهذا العدد في ضاحية قرطبة الشرقية وحدها[2].

ولا شك أن اهتمام "المستنصر بالله" بجمع الكتب كان مصحوباً أيضاً باجتذاب العلماء وتشجيعهم والاهتمام بهم. ومن أبرز العلماء الذين ظهروا في بلاطه، أو قعدوا للتدريس في "جامعة قرطبة"، نذكر منهم العالم اللغوي "أبا علي القالي"، الذي وفد على الأندلس في عهد "عبدالرحمن الناصر" سنة 330هـ (941م). وقد نال هذا العالم حظوة عظيمة في عصري "الناصر" وابنه "الحكم المستنصر"، ومن أهم أعماله كتاب "الأمالي". كذلك المؤرخ القرطبي "أبا بكر محمد" المعروف "بابن القوطية" صاحب كتابيّ: تاريخ افتتاح الأندلس[3]" و"كتاب الأفعال " في النحو. ومن شيوخ هذا العصر العالم المغربي "محمد بن حارث الخشني"، الذي انتقل من "القيروان" إلى "قرطبة" بدعوة من الخليفة "الحكم المستنصر"، الذي طلب منه كتابة تاريخ للقضاء في الأندلس، وسمح له بدخول

(1) المقري : نفح الطيب، 386/1. كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص420
(2) بروفنسال ، ليفي : حضارة العرب في الأندلس – ترجمة ذوقان فرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، بدون تاريخ)، ص70.
(3) نشره المستشرق الأسباني جانيجوس: Gayngos. وكذلك مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ببيروت.

المكتـــبة الملكية والاستفادة من كنوزها، فكتب الخشني "كتاب القضاة بقرطبة"[1]، الذي يتضمن معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية في الأندلس في هذه الفترة[2].

هـــذا وقـــد اســـتمرت شهرة قرطبة، ومكتبة قصرها الملكي في نشر العلم والحضارة الإسلامية، حتى بعد سقوط الخلافة، وخاصة في عهد المرابطين، وهذا مما دفـــع "ابـــن رشد" إلى القول : إذا مات عالم بإشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى قرطـــبة، حـــتى تـــباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية[3].

ويـــبدو أن هـــذه المكتبة لم تستطع الصمود كثيراً أمام أحداث ذلك العصر السياســـية، حيث ما إن سيطر "الحاجب المنصور بن أبي عامر" (366-393هـــ/ 976-1002م) عـــلى مقـــاليد الدولة، حتى أمر بحرق أو تلف الكتب القديمة، أو إلقائهـــا في آبـــار القصر، وفي باطن الأرض، وذلك إرضاءً لبعض الشيوخ، الذين كانوا يرون أن كل من يقرأ هذه الكتب متهماً في نظرهم بالهرطقة أو الزندقة [4]. وفي هذا الخصوص يقول "المقري" نقلاً عن "ابن خلدون" : ((ولم تزل هذه الكتب بقصـــر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجبُ واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونُهب ما بقيَ منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنْوة))[5].

وللخـــليفة "المستنصر بالله" أعمال عمرانية كثيرة، من أهمها الزيادة الكبيرة الـــتي عملها في مسجد "قرطبة" من جهة القبلة سنة 350هـــ (961م) [6] وفي سنة 356هــــ/ 966م أجـــرى الماء العذب إلى سقايات الجامع، والميضأتيْن اللتين مع جانبيه، وقد جلبه من عين بجبل قرطبة، خرق له الأرض، وأجراه في قناة من حجر

---

(1) نشره وترجمه المستشرق الأسباني ريبيرا: Bibera .

(2) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص421.

(3) ليفي بروفنسال : حضارة العرب ، ص 70.

(4) المصدر نفسه ، ص71.

(5) نفح الطيب ، 386/1.

(6) انظر تفاصيل ذلك في البيان المغرب ، 232/2-233.

مُتْقَنة البناء، ومُحكمة الهندسة، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس، وفي ذلك يقول الشاعر "ابن شُخَيْص":

وقدْ خَرقْت بُطُونَ الأرْضِ عن نُطَفٍ ... من أعْذَب الماءِ نَحوَ البَيْت تُجْريها
طُهْرُ الجُسومِ إذا زالت طهارتُها ... رَيءُ القُلوب إذا حَرَّتْ صَوَاديها
قَرنت فَخْراً بأجْرٍ قَلَّ ما اقْتَرَنا ... في أُمَّةٍ أنْتَ رَاعِيها وحَامِيها [1]

وفي مجال الأعمال الخيرية ، له مآثر حميدة، نذكر منها على سبيل المثال، أنه ابتنى داراً للصدقة بغربي الجامع اتخذها مقراً لتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين[2].

ومن الأعمال الخيرية التي قام بها من أجل نشر العلم بين طبقة الفقراء والمساكين "اتخاذُه المؤَدبين يعلّمون أولاد الضُّعفاء والمساكين القرآن حواليْ المسجد الجامع وبكلِّ رَبَض من أرباض قُرطبة؛ وأجرى عليهم المرتبات، وعَهِدَ إليهم في الاجتهاد والنُّصح، ابتغاءَ وَجْه الله العظيم؛ وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً منها حواليْ المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كلِّ رَبَضَ من أرباض المدينة وفي ذلك يقول "ابن شخيص" :

وسَاحَة المَسْجِدِ الأعْلَى مُكَلَّلَة ... مَكَاتِباً لليَتَامَى من نَوَاحِيها
لَوْ مُكِّنَتْ سُوَرُ القُرْآنِ مِنْ كَلِمٍ ... نَادَتْكَ يَا خَيْرَ تَالِيها وَوَاعِيها[3]

◈ سياسة المستنصر بالله الخارجية :

تعد سياسة المستنصر بالله الخارجية استمراراً لسياسة والده الناصر، وتمثلت هذه السياسة في الأمور التالية :

---

(1) البيان المغرب، 240/2.
(2) المصدر نفسه، 240/2.
(3) المصدر نفسه، 240/2-241.

1- العلاقات مع القوى الإسبانية .

2- العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الأقصى.

3- الخطر النورماندي.

1- العلاقات مع القوى الإسبانية .

ذكـرنا فـيما سبق أن الخليفة "الناصر" في آخر أيامه كان قد أعان الملك "شـنجه الأول" (سانشو) على استرداد عرشه في مملكة ليون من خصمه "أردونيو الـرابع" مقـابل عـدة حصون استراتيجية على الحدود تسلم للخلافة الأموية في قرطبة. ولما توفي "عبدالرحمن الناصر" ظن "سانشو" أن الظروف قد تغيرت ، وأن وفـاة الناصـر وغيابه عن الساحة السياسية تبيح له التحلل من تنفيذ العهود التي أخذها على نفسه، فأخذ يماطل ويتلكأ في تنفيذ اتفاقية الهدنة المعقودة بين الطرفين، ظـناً مـنه أن الخليفة الجديد رجل عالم فيلسوف لا تهمه الحرب. غير أن "الحكم المستنصـر بالله" صمم على أخذ حقه بالقوة. وبينما هو يستعد لذلك، وفد عليه الملك "أوردونيو الرابع" المخلوع، الذي سبق أن أخُذ منه المُلك وأُعطي "لسانشو" أيام الخليفة الناصر. فاستقبله الخليفة "الحكم" استقبالاً جيداً، وقرر أن يأخذ الملك مـن "سانشو" ويعطيه "لاوردونيو". ولما علم سانشو" بهذا الأمر عاد إليه صوابه، وأسـرع في الاتصال بالخليفة "الحكم" مبدياً استعداده لتنفيذ الشروط التي أخذت عـليه. وهنا يجد الخليفة "المستنصر بالله" نفسه في موقف لا يخلو من الحيرة أيهما يخـتار مـن الملكين؟[1]. غير أن التطورات التي حدثت بعد وقت قصير، أنقذت الوضـع وأزالـت الحرج لدى الخليفة "المستنصر بالله" وحُلّ الأشكال وهو موت أوردونيـو، ولكن "سانشو" عندما بلغه موت "أوردونيو" عاد إلى الغدر من جديد واحـتفظ بالحصـون المذكورة، ثم أخذ يستعد لمحاربة المسلمين وتحالف مع مملكة "نـبرة" كمـا تحالف أيضاً مع إمارة "قشتالة" التي كانت حديثة التكوين في ذلك الوقت[2].

(1) المقري : نفح الطيب ، 384/1. كذلك أحمد العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي، ص432.

(2) أحمد العبادي : المصدر السابق، ض432.

إن الدويلات الأسبانية بُعَيْد هذه الأزمة، رجعت موحدة متماسكة وشعرت بأنها قادرة على استئناف الحرب ضد الخلافة الأموية، في وقت كان "سانشو" قد أصبح أقوى شخصية أسبانية وأكثر المتحمسين للقيام بدور صليبي، يعزّز من مواقعه بإعطاء زعامته السياسية بريقاً وجاذبية في العالم المسيحي. ولكن طموحه تعثر أمام المبادرة السريعة التي اتخذها "المستنصر بالله بإعلانه التعبئة العسكرية في الدولة ردًّا على استعداد الملك الليوني وحلفائه، ومن ثمّ القيام تحت قيادته إلى قشتالة سنة 352 هـ / 963م فتصدى له أميرها (فرديناند) ولكنه أصيب بهزيمة ، فرّقت جيشه وبعثرت قواته قبل إرغامه على موادعة الخليفة، الذي عاد أدراجه بعد حملة ناجحة، تكللت برضوخ الأمير القتشالي لشروطه واحترام سلام الحدود [1].

ولم تدم معاهدات السلام مع الأسبان طويلاً، حيث ما تلبث أن تتهاوى وتصبح لا قيمة لها ، لنقض الأسبان لها كلما تنفسوا الصعداء. ولهذا فإن استمرار الحرب في المنطقة نفسها لم يكن يثير الاستغراب، حيث شنَّ المسلمون سلسلة من الهجمات على قتشالة في السنوات اللاحقة، وبذلك استطاع "المستنصر بالله" منع الأسبان من اتخاذ أية مبادرة هجومية على مواقع المسلمين ، كما استطاع إرغام الملك اليّوني على تسليم الحصون ، محور الخلاف الذي انفجر بعد وفاة الخليفة الناصر[2].

2- العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الأقصى :

اتبع الخليفة "المستنصر بالله " سياسة والده في معاداة الفاطميين ورد أي هجوم قد يقومون به. فيذكر "ابن عذاري" في اثناء حديثه عن أحداث سنة 353 هـ/ 964م أن الخليفة "المستنصر بالله" قد تحرَّك بنفسه من قرطبة إلى ثغر "المرية" للاطلاع على حصون هذه الجبهة الشرقية المواجهة للفاطميين في إفريقية (تونس) وهناك أشرف على أحوال المجاهدين المرابطين فيها استعداداً لصد أي هجوم فاطمي عليها[3].

---

(1) ابن خلدون : العبر 144/4. كذلك ابن عذاري : البيان المغرب، 226/2، إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص305-306.

(2) ابن عذاري .. المصدر السابق، 306

(3) ابن عذاري : المصدر السابق، 236/2. كذلك أحمد العبادي: المصدر السابق، ص423.

ويبدو أن الفاطميين شعروا باستحالة غزو الأندلس، كما شعروا بأن بقاءهم بالمغـرب أمر محفوف بالمخاطر أمام ثبات البربر وتقلباتهم، وأمام غارات الأمويين بالأندلس ودسائسهم، ولعلّ هذا هو السبب الحقيقي الذي جعلهم يصممون على إخلاء هذا الميدان والتحول إلى مصر[1].

لقد سقطت مصر في أيدي الفاطميين سنة 358هـ/ 969م على يد "جوهر الصـقلي" قـائد الخـليفة الفاطمي "المعز لدين الله"، ونتيجة لذلك تقلص نفوذ الفـاطميين في المغرب الأقصى بصورة ملحوظة، واتجهت أنظارهم للاستيلاء على المشرق الإسلامي[2].

عاني الفاطميون متاعب جمة في علاقاتهم مع البربر، الذين لم يلتزموا بالولاء لهم الالتزام الكامل، وكانت قبيلتا صنهاجة وزناتة الأكثر نفوذا وسطوة، والمنافسة بيـنهما على أشدها، حيث تبنت الأولى الخط الفاطمي وعين زعيمها "زيري بن مـناد الصنهاجي" حاكما في المغرب الأقصى، واتجهت الثانية إلى الدولة الأموية في الأندلـس متحالفة معها ضد القبيلة الصنهاجية[3]، وكانت هذه نقطة الضعف في السيادة الفاطمية على المغرب، التي استغلها "المستنصر بالله" بإعطاء حليفته "زناته" الدعـم الكافي لتحقيق هدفين: الأول هو الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحـت سيطرة الأمويين على ساحل المغرب مثل: طنجة وسبته ومليلة. والثاني هو إضـعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة، بتحقيق تعادل في الموازين السياسية، هو في النتيجة لمصلحة "المستنصر بالله"[4].

ومـا لبث الصراع في المغرب أن اتخذ بُعداً محلياً مع غياب الحُكم الفاطمي المباشـر، فـأخذت القوى السياسية في الداخل تتزاحم على النفوذ، مستغلة هذا الفـراغ الذي حدث مع تخلخل الزعامة الفاطمية في هذا الاقليم. وكان من بينها بقية الأدارسة بزعامة "الحسن بن كنون" (قنُّون) آخر أمرائهم، قبل أن يقضى على

---

(1) أحمد العُبادي: المصدر السابق، ص423.

(2) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص306-307.

(3) Voir. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, p 68.

(4) إبراهيم بيضون " المصدر السابق، ص307؟

دولـــتهم الفاطميون. فتحالف الزعيم الإدريسي مع الأسرة الأموية في الأندلس — عدوة الأمس — للوقوف في وجه الحُكم الزيري الممثل للفاطميين الشيعة. كما أن زنانة إحدي القبائل المغربية، وحليفة الأمويين، حاولت أن تجد لها محلاً وسط هذا الصـــراع على النفوذ. فقوي شأن هذه القبيلة بتحالف زعمائها مع حكام المسيلة الســـابقين من بني حمدون الأندلسي[1]. وكان هذا الحلف موجهاً ضد الفاطميين وممثــليهم "بني زيري"، الذين دفعوا ثمن هذا التكتل هزيمة قاسية، قتل فيها زعيمهم ممــثل الخلافــة الفاطمية سنة 361هــ/971م[2]، بحيث انعكس ذلك على نفوذ الأخـــيرة وحليفــتها القبــلية القوية "صنهاجة"، بينما تعزز وضع الأمويين الذين استعادوا موقعهم في المغرب الأقصى. غير أن الشعور الأموي بسحق النفوذ الشيعي والقضاء على السيادة الفاطمية الممثلة بالزيريين في هذا الأقليم لم يدم طويلاً، حيث قــام الأدارســـة بعد عام واحد (أي في سنة 362هــ/ 972) بثورهم في المغرب الأقصـــى وســـيطروا على كل من تطوان وطنجة وأصيلا[3]، وهي مواقع في غاية الأهميـــة، لا ســـيما طـــنجة التي حرص الأمويون على أن تكون إحدى ركائزهم العســـكرية الأولى في المنطقة. فسقط بذلك التحالف السياسي القائم بين الأمويين والأدارســـة، وهو في النتيجة تحالف مرحلي ضعيف، من الصعوبة أن يستمر طويلاً لاخـــتلاف المفاهيم لدى كل من الطرفين، وشعر "الحكم المستنصر" بخطورة هذه الـــتطورات، فصـــمّم عـــلى اتخاذ موقف حازم وقمع الثورة الإدريسية المناوئة له بالسرعة القصوى ورأى "المستنصر بالله" أن الوقت قد حان للقيام بعمل تأديبي في المغـــرب الأقصـــى، فأرســـل حمـــلة عسكرية بقيادة أمير البحر "عبدالرحمن بن رُمـــاحس[4]"، وكـــان قد أنفذ قبله قائده ووزيره "محمد بن القاسم بن طلمس"، الـــذي عبر المضيق إلى ستة في شوال من سنة 361هـــ. وحينما تكاملت الجيوش والأســـاطيل الأمويـــة معـــا سبتة، بدأ هجومها على طنجة براً وبحراً. وكان أمير الأدارســـة "الحســـن بن حنّون" داخلها يشد عزائم أهلها ولكنه فشل في محاولته،

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 242/2-244. كذلك إبراهيم بيضون الدولة العربية، ص307.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 242/2. كذلك إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص307-308.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق، 244/2-245.

(4) عند ابن عذاري عبدالله وليس عبدالرحمن . انظر البيان المغرب، 245/2.

واضطر أن يهجر المدينة ويفرّ هارباً هو ومجموعة من أصحابه لا يلوي على أحد[1].

ولم يجد أهالي "طنجة" بدًّا من التسليم فخرج شيخهم "ابن الفاضل" مع جماعة من وجوه طنجة وهم ينادون ((الطاعة لله ولأمير المؤمنين الحكم)) [2] ثم تقدم "ابن الفاضل" إلى قائد البحر "رُماحس"، وطلب منه الأمان لأهل بلده فأعطاه إيّاه، ودخل طنجة في شوال سنة 361هـ أغسطس 972م [3]. أما القائد "محمد بن القاسم بن طملس"، فإنه تعقب فلول جيش "الحسن بن حنّون" على ساحل المحيط الأطلسي، ثم احتل مدينة "أصيلاً" ودخل جامعها فوجد به منبراً جديداً موسوماً باسم الشيعي "معد بن اسماعيل" (المعز لدين الله) فأمر بإحراقه. ولم يستسلم "الحسن بن حنّون" لهذه الهزيمة، فأخذ يجمع شمله ويوحد صفوفه من جديد، ثم هاجم الجيش الأندلسي على غرة في مكان يعرف "بفحص مهران" بضواحي "طنجة" فأنزل به هزيمة ساحقة، وقتل قائده "محمد بن القاسم بن طملس"، في ربيع الأول سنة 362هـ / 972م ولجأ الفل إلى مدينة سبتة مستغيثاً بالخليفة الحكم المستنصر[4].

ثارت ثائرة الخليفة "المستنصر بالله" لهذه الهزيمة، وصمم على استرداد كرامته، ونفوذه في هذه المنطقة. فاستدعى قائده المقرب "غالب بن عبدالرحمن" من ثغر مدينة "سالم: Medinacel " من الجهة الشمالية على تخوم "نافار"[5] إلى قرطبة، فوافاه فيمن معه من رجال الثغور في جمادي الآخرة سنة 362هـ، وضم إليه الخليفة جيشاً كبيراً وأمره بالتوجه لقتال هذا الثائر قائلاً له: سر سير من لا إذن له بالرجوع حياً إلا منصوراً أو ميتاً فمعذوراً[6].

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ، 245/2.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق ، 245/2.

(3) المصدر نفسه، 245/2. كذلك ابن حيان: المقتبس في أخبار الأندلس، نشر عبدالرحمن الحجي، ص89 (القطعة الخاصة بعصر الحكم المستنصر).

(4) ابن حيان : المصدر السابق، ص69. كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي، ص426.

(5) ابن خلدون : العبر، 218/6. كذلك ابن عذاري المصدر السابق، 246/2-247.

(6) ابن خلدون : المصدر السابق، 218/6.

وفي شهر رمضان سنة 362هـ/972م عبر "غالب بن عبد الرحمن" المضيق من الجزيرة الخضراء، وبعد نزوله في الضفة الأخرى انضمت إليه جميع القوات الأموية هناك، كقائد عام للجيش الأموي في المغرب. كما وصلته تدريجياً قوات إضافية أخرى منها حملة الوزير والقائد المعروف "يحيي بن محمد التجيبي" التي ضمت بين عناصرها "محمد بن أبي عامر (المنصور)"[1]، وكان لا يزال شخصية مغمورة في ذلك الحين. وما لبثت القوات الأموية أن أخذت تطارد الثوار الأدارسة، الذين تجمعوا أخيراً بقيادة زعيمهم "الحسن بن كنون" في قلعة حصينة تعرف بـ "حجر النسر" وقد أبدى الأدارسة مقاومة عنيفة، ولكنهم أحيطوا بقوات الخلافة من كل جانب فقتل منهم أعداد هائلة ((وحز من رؤوس مشاهيرهم مائة رأس، وترك أكثرهم طريحاً))[2].

وفي سنة 364هـ/974م استسلم الزعيم الأدريسي لقائد "المستنصر بالله" "غالب بن عبد الرحمن" وذهب أسيراً مع عائلته إلى الأندلس، وكان من بين الأسرى شيخهم "أحمد بن عيسى" المعروف "بحنون" صاحب مدينة الأقلام وما والاها[3]. وبذلك استطاع الخليفة "المستنصر بالله" القضاء على هذه الثورة، وأن يضمن سيطرته على مضيق جبل طارق، وأن يحمي بلاده من أي خطر شيعي أو زيري يتهددها من ناحية العدوة المغربية[4].

وقد حرص "المستنصر بالله" بعد ذلك أن يعين على حكم هذه المنطقة أميراً أندلسي الأصل، يكون قد اشتهر بعداوته للزيريين، وهو الأمير "جعفر بن علي بن حمدون" الذي اشترك مع أخيه "يحيى" في هذه المنطقة بالتعاون مع زعماء قبائل "زناتة" من "مغراوة" و"بني يفران"[5].

ولم يلبث الخليفة "المستنصر بالله" أن أصيب بعلة الفالج، فشلت حركته، وصارت السلطة بيد وزرائه وحاشيته ونسائه، فاضطربت شؤون الدولة واشتد

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 247/2. كذلك إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص309.
(2) ابن عذاري : المصدر السابق، 277/2.
(3) المصدر نفسه، 248/2.
(4) أحمد العبادي: في التاريخ العباسي، ص428.
(5) المصدر نفسه، ص428.

ضـغط الأسـبان عـلى الثغور الشمالية، لهذا استدعى الوزير "جعفر بن عثمان المصحفي" القائد "يحيي بن محمد التجيبـي" من المغرب إلى قرطبة سنة 365هـ / 975م وأرسـله إلى "سرقسـطة" مـع قوة ليسد ثغور الأندلس. ولم يقف الوزير "المصـحفي" عـند هذه الخطوة فقط بل أقدم على خطوة أخرى كانت عواقبها وخيمة فيما بعد، ذلك أنه قرر إخراج الأمير الإدريسي "الحسن بن حنّون" وشيعته مـن الأندلس ليتخلص من نفقاتهم ومطالبهم، فأذن لهم بالذهاب إلى المشرق، بعد أن أخـذ عـليهم العهود والمواثيق بعدم النزول في بلاد المغرب، فخرجوا من ميناء "المـرية" وعـبروا البحر إلى مصر، وهناك استقبلهم الخليفة الفاطمي "العزيز بالله" وأكـرمهم، واحـتفظ بهم كسلاح يمكن استخدامه ضد نفوذ الأمويين في المغرب الأقصى في الوقت المناسب[1].

وكـان الفاطميون بعد نجاحهم السياسي والعسكري في المشرق، قد عادوا إلى الاهـتمام جدياً بتلك المنطقة، نواة دولتهم الكبرى، ففي سنة 369هـ/ 979م كـان حـلفاؤهم الصـنهاجيون من بني زيري يقومون بثورة ذات طابع شيعي لاسـترداد زعامـتهم مـن الأمويين خلفاء الأندلس. وكان على رأسهم "بلكين (بـلقين) بـن زيري الصنهاجي" الذي بدأ تحركه من مدينة "فاس" وانطلق منها ليقضـي عـلى السيادة الأموية في المغرب، وما لبث الزعيم الإدريسي "الحسن بن كـنّون" أن وفـد مصـر لمشاركة "بلكين" في مطاردة الأمويين وترسيخ النفوذ الفاطمي هناك[2]. وذلك بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله وسيطرة الحاجب "محمد بن أبي عامر" على مقاليد الأمور في الدولة[3].

3- الخطر النورماندي :

لقـد حصر المؤرخون الأندلسيون الغارات النورماندية التي حصلت في عهد الخـليفة "المستنصـر بالله" في السنوات التالية: 355هـ / 966م [4]، 360هـ /

---

(1) انظر مفاخر البربر ، ص24. كذلك أحمد العبادي في التاريخ العباسي، ص428-429.

(2) القلقشندي : صبح الأعشى، 185/5. كذلك إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص310.

(3) إبراهيم بيضون : المصدر السابق، ص310.

(4) ابـن عذاري: البيان المغرب، 238/2-239. ويحدده ابن خلدون بالسنة التي قبلها (354) انظر المقري: نفح الطيب، 383/1-384.

970م[1]، 361هـ/ 971[2]، وإذا استثنينا رواية "ابن الخطيب[3] التي تشير إلى غــارة، فاشــلة قام بها "النورمانديون" على حصن "القبطة: Cono de cata" من حصــون المرية في شرق الأندلس، فإن جميع الروايات تتفق على أن هذه الغارات السالفة الذكر كانت على عرب الأندلس، وفي مياه المحيط الأطلسي[4].

ويــبدو أن الغارات النورماندية التي وقعت خلال سنتي 360هـ / 970م، 361هـــ/ 971م، لم تســتطع الترول إلى الشواطئ الأندلسية بفضل يقظة رجال الأســطول الأندلســي الذيــن استطاعوا "ردها على أعقابها، بعد قتل الكثير من رجالهــا، وتدمير عدد من سفنها . وقد استفاد الأندلسيون من تجاربهم الماضية في طريقة حربهم للنورمانديين، وقد تقدمت صناعة السفن ورعاها الأمراء والخلفاء[5]، مما ساعد على الوقوف أمام هجمات النورمان.

خلافة هشام بن الحكم وتسلط المنصور[*] بن أبي عامر :

توفي الحكم الثاني المستنصر بالله في 4 صفر سنة 366هـ / 976م، وخلفه ابــنه الصــبي "هشــام المؤيد بالله" في الخلافة، وقد كان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة[6]، ولا يستطيع حادس أن يقدّر ما كان يكون عليه هذا الخليفة الصغير، لو لقــي ممــن حوله حبًّا وإخلاصاً. والتاريخ يذكر له بعض المخايل التي كانت تبشّر بالذكاء وحسن الرأي، وبأنه باستعداده كان جديراً بأن يترسم خطوات جده[7]،

---

(1) ابن عذاري ، 241/2.

(2) ابن حيان : المقتبس — القسم الخاص بالحكم المستنصر ، ص67، 78.

(3) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص41-42.

(4) أحمد العبادي : في التاريخ العباسي، ص430.

(5) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي، ص312.

(*) ربمــا يــلحظ القارئ الكريم عدم التوسع في الحديث عند محمد بن أبي عامر وأسرته، وذلك لأني أنوي تخصيص بحث خاص عن الدولة العامرية في الأيام القادمة بإذن الله تعالى.

(6) ذكر المقري أن عمره كان تسع سنوات (نفح الطيب، 396/1) بينما ذكر ابن خلدون أنه قد ناهز الحلم (العبرة 147/4) بينما ذكر ابن عذاري أن عمره كان إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر (البيان المغرب، 2/ 253).

(7) وصفه مؤدبه أبو علي القالي بأنه كان في صباه في غاية الحذق والذكاء.

ولكــن حيــاة "الحكــم" العلمية وتهاونه، سلبت ابنه وولي عهده أية فرصة لقوة السـلطان، إذ كان الحكم مشغلاً بجمع الكتب وقراءتها في وقت كان كبار القواد في دولـته يتدرجون في النفوذ ورفعة الشأن، وغير ذلك من الأمور التي لو حدثت في أيام "عبدالرحمن الناصر" لوقف تيارها، وكان من آثار أعمال "الحكم" أيضاً أن أخـذت زوجاته يفرضن نفوذهن على رجال الدولة لا سيما (صبح) [1] أم الخليفة "هشـام" التي لعبت دوراً خطيراً في الأحداث التاريخية التي جرت أثناء حُكْم ابنها "هشام المؤيد"[2].

وفي هذه الأثناء ظهر رجل قوي هو "أبو عامر محمد بن عبدالله بن عامر"[3] وجـده "عبدالملك" أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش طارق بن زياد" "في أول الداخلين من المغرب"[4]، ولقب بالمنصور فيما بعد وأسس الأسرة العامرية المتمثـلة في الحاجب المنصور بن ابي عامر وولديه "المظفر" و"عبدالرحمن". فتاريخ الأندلس في الفترة 366-399هـ / 976-1008م هو تاريخ أسرة ليست من بيت المُـلك ولكنها استطاعت أن تستبد بالحكم وتصرف شؤونه تصرفاً تاماً[5]. وغدا الحاجب المنصور الحاكم الحقيقي للأندلس.

وقـد وصـف لنا "ابن عذاري" نشأته، بقوله: كان ((حَسَن النشْأة، ظاهر الـنجابة، تـتفرَّس فيه السيادة؛ سلك سبيل القُضاة في أوَّلِيَّته، مُقْتنياً آثار عُمومته وخُؤولـته؛ فطلب الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقيدَّ اللُّغات على "أبي عليّ

---

(1) كانت صبح حظية للحكم ومغنية وهي أم ولده، وقد توفيت في خلافة ابنها هشام = ابن عذاري: البيان المغرب، 253/2.

(2) انظـر ابن عذاري : المصدر السابق، 253/2-254. كذلك المقري: نفح الطيب، 396/1-397، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص43، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، 393-394.

(3) ولـد محمـد بـن أبي عامر سنة 328هـ/ 940م ونشأ في مقاطعة الجزيرة الخضراء في قرية طرّش موطن عشيرته ومسكن أجداده، وهي من أطيب بلاد الأندلس أرضاً وأصحها هواءً، إن التواريخ لا تذكر عن طفولة محمد ابن أبي عامر شيئاً يذكر رغم الشهرة التي اكتسبها هذا الرجل فيما بعد والدور الكبير الذي لعـبه ليـس في تاريخ أسبانيا فحسب بل في تاريخ الأمة العربية بصورة عامة = خالد الصوفي : تاريخ العرب في أسبانيا – عصر المنصور الأندلسي – دار الكتاب العربي، ص13.

(4) انظر ابن الخطيب : المصدر السابق، ص59. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 256/2-257.

(5) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص434.

البغداديّ"، وعلى "أبي بكر بن القُوطيَّة؛ وقرأ الحديث على "أبي بكر بن مُعاوية القُرشيّ"، راوية النَّسائي، وغيره من رؤساء أهل المشرق، وبرع بروعاً أدناه، مع نوازع سَعَد وبوادر حَظّ، من الحَكَم المُستنْصر؛ فقرَّ به وصرَّفه في مُهِمِّ الأمانات وأصنافها؛ فاجتهد وبرز في كلّ ما قلّده، واضطلع بجميع ما حمَّله))[1].

لقد استطاع الحاجب المنصور السيطرة على مقاليد الحكم سيطرة كاملة، حيث استغل ضعف الخليفة الشرعي "هشام المؤيد بالله وصغر سنه، الذي كان — كما يقول ابن الخطيب عنه : ((مُندرجاً في طيِّ كافله الحاجب المنصور — رحمه الله — بحيث لا يُنْسب إليه تدبير، ولا يُرْجع إليه من الأمور قليلٌ ولا كثيرٌ، إذ كان في نفسه وأَصْل تركيبه مُضْعَفاً مَهيناً مشغولاً بالترهات، ولَعْب الصبيان والبنات، وفي الكِبَر بمُجالسة النِّساء، ومُحادثة الإماء، يَحْرِص بزَعْمه على اكتساب البرْكات والآلاتَ المنسوبات : فكم أُلفي بخزانته من ألَواح منسوبة إلى سفينة نُوح، ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق، ومن حوافر منسوبة إلى حمار عُزَيْرْ، ومن خفَاف مَنسوبة إلى ناقة صالح، لم يَسْتَرِب في تَعَدُّدِها، ولا فكَّر في مقدار ما يحتاجه الحيوانَ منها، إلى مُصليَّات منسوبة لَعُبَّاد، وأواني وضوء متوارثة عن زُهَّاد: بذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلبة من المجازر والمعاطي، مُلتقاةٌ من أيدي المخابث))[2].

ويستدل من كلام "ابن الخطيب" أن الخليفة الصبي هشام ما كان يهتم إلا بالأشياء التافهة التي يجلبها إليه بعض المشعوذين.

وبعد أن تخلص محمد بن أبي عامر من خصومه[3]. ومنافسيه، وانتصر على الأسبان في غزوات عدة[4]. قادها بنفسه تلقّب بلقب "المنصور" (سنة 371هـ/

(1) البيان المغرب، 257/2.
(2) أعمال الأعلام، ص58-59.
(3) حمل الحاجب المصحفي على نكبة الصقالبة الخصيان الخدام بالقصر فنكبهم وأخرجهم من القصر وكان عددهم أكثر من ثمانمائة، وسلّط غالب على المصحفي حتى نكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون، وقد مات غالب في إحدى المواقع = انظر المقري : نفح الطيب، 1/ 396-398.
(4) بلغ عدد غزواته سبعاً وخمسين غزوة = المقري: المصدر السابق، 400/1، ابن عذاري : المصدر السابق، 310/2، Levi-proren al, op. cit. t. 11. p 235.

981م). ودُعي له على المنابر (عقب دعاء الخليفة)، استيفاء لرسوم الملوك، فكانت الكـــتب تصـــدر عنه بعبارة من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فـــلان. وأخذ الوزراء بتقبيل يده؛ ثم تابعهم على ذلك وجوه بني أمية ... فساوى محمـــد بن أبي عامر الخليفة في هذه المراتب، وربما شاركه في تلك المراتب. و لم يبق فرقاً بينهما إلاّ في الاسم عند صدور الكتب عنه، إذ تنامت حالة في الجلالة، وبلغ غاية العزّ والقدرة[1].

هـــذا وقد لخّص بعض المؤرخين سياسة الحاجب المنصور بقولهم : ((كان "المنصـــور" آية من آيات الله فطرةً، دهاء، ومكر، وسياسة، عَدَا بالمصحافة[2] على الصقالبة حتى قتلهم، ثم عَدَا بغالب[3] على المصحافة حتى قتلهم؛ ثم عدا بجعفر بن الأندلسي[4] على غالب حتى استراح منه؛ ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه. ثم انفرد بنفسه، ينادي صروف الدهر: هَلْ من مُبارز؟ فلما لم يجده، حمل الدهر على حكمـــه؛ فانقـــاد له وســـاعده، واستقام له أمره، منفرداً بسابقة لا يشاركهُ فيها غيره))[5].

أمـــا سياسة المنصور الخارجية مع الأسبان فقد اتخذت طابعاً جهادياً، إذ غزا ســـبعاً وخمسين غزوة، قادها كلها بنفسه[6] واتخذت لها طابعاً هجومياً نفذها ضد نصارى ليون وقشتاله ونافار ومواقع أخرى[7].

وقد لخّص لنا ابن عذاري سياسة المنصور تلك على لسان الفتح بن خاقان، بقوله: ((تمرّس المنصور ببلاد الشِّرْك أعْظَمَ تمرُّس، ومحا من طواغيتها كل تَعَجْرُف وتَغَطْـــرُس؛ وغـــادرهم صَرْعَى البقاع، وتركهم أذَلَّ من وَتَد بقاع ؛ ووالى على بلادهـــم الوقـــائع، وسدَّد إلى أكبادهم سهام الفجائع؛ وأغصَّ بالحِمَام أرواحهم، ونغَّص بتلك الآلام بُكورهم وَرَوَاحَهم)) [8].

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 279/2-280.
(2) أي بيت الحاجب جعفر المُصحفي.
(3) هو غالب الناصري صهره = ابن عذاري : المصدر السابق، 278/2.
(4) هو جعفر بن علي بن حمدون = انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص65.
(5) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص77.
(6) عند المقري اثنتين وخمسين" غزوة = نفح الطيب، 402/1.
(7) انظر ابن عذاري : المصدر السابق، 301/2.
(8) البيان المغرب، 297/2. كذلك المقري : المصدر السابق، 403/1.

تـــوفي المنصـــور في 27 رمضـــان سنة 392 هـــ / 1002م وهو ابن خمس وســـتين سنة وعشرة أشهر، وكان له من الولد الذكور "عبدالملك" و"عبدالرحمن الناصر"، فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة إلى أن توفّي خمس وعشرون سنة وأربعة وأربعون يوماً[1].

لقـــد ذكـــرت بعض المصادر الأندلسية[2] أن المنصور دُفن في مدينة "سالم: Mednacel" إذ توفي على الأرجح وهو يعدّ لغزوة أو أنه كان عائداً منها. وتنفس النصـــارى الصعداء لموته، ودلّ على هذا الارتياح عبارة موجزة دوّنها أحد الرهبان في تقويمه، وهو: ((في سنة 1002 مات المنصور ودفن في الجحيم))[3].

سقوط الدولة الأموية :

لمـــا تـــوفي المنصـــور قام بالأمر بعده ابنه "أبو مروان[4] عبدالملك" الملقب "بالمظفـــر سيف الدولة"[5]، فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وقد دامت أيامـــه حـــوالي ســـبع ســـنين، حيـــث مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة أو ثمان وتســـعين[6]. أثناء غزوته ضد "شانجه ابن غرسيه : Sancho Garcia"، وقيل إنه مـــات مسموماً أو أصيب بذبحة قلبية[7]، فأعيد إلى قصره في العَمَّارِيّة، فمات قبالة ديْر "أرْمِلاط" من أحواز قرطبة[8].

---

(1) ابن عذاري : البيان المغرب، 301/2.

(2) انظر على سبيل المثال لا الحصر :

أ- ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص80-81 أو الإحاطة في أخبار غرناطة، 72/2.

ب- المقري : نفح الطيب، 402/1.

جـ- ابن بسام: الذخيرة : المجلد الأول، القسم الرابع، ص55.

(3) Dozy, op. C: cit. t. II, p. 265 Lévi-provencal, op. cit. t. II, p, 283.

عبدالحميد العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس، ص153.

(4) المقري : نفح الطيب ، 423/1. كذلك ابن عذاري: المصدر السابق، 313/2.

(5) المصدر السابق، ص83.

(6) المقري، المصدر السابق، 423/1.

(7) ابن عذاري : المصدر السابق، 3/3.

(8) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص89.

تـولى الحكم (الحجابة) بعده أخوه "أبو المطرف عبدالرحمن" المعروف بـ "شـنجول[1]: Sanchuela" وقـد سمّاه الخليفة بالمأمون وتلقب بالناصر، ((فكان يُدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة))[2].

كان "عبدالرحمن" ضعيف الشخصية، ميالاً إلى الدّعة والاسترخاء في أجواء الـترف، قـليل الاهـتمام بالسياسـة الجهادية التي كانت مقياس كفاءة الحاكم الأندلسي في ذلك الحين[3]. وبدأت هذه الصفات تنكشف بعد شهر ونصف على توليـه الحكم، إذ طلب من الخليفة "هشام المؤيد" أن يوليه عهده[4] من بعده وأن يتسـمّى بولي عهد المسلمين، فأجابه هشام إلى ذلك لضعفه وسوء نظره ونقصان فطـرته فولاه عهده، وذلك سنة 399هـ/ 1008م، وكتب عهداً بذلك مضمونة أن الخـليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني "عبدالرحمن ابن المنصور بن أبي عامر"[5].

لقد هزَّ هذا الحادث الدولة الأموية هزّاً عنيفاً، وعزَّ على المصريين أن ينتقل العـرش إلى اليمـنيين[6]، وأن تخرج الخلافة من أيدي القرشيين، فانبعثت العصبية القديمة وانتهز المضريون فرصة غياب عبدالرحمن العامري إلى الشمال وقاموا بحركة قويـة، فخلعوا هشاماً عن العرش، وولوا رجلاً من أحفاد الناصر، وهو : محمد بن هشـام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر[7]. ولقبوه بالمهدي بالله[8]. واستولوا

(1) هـذا الـلقب تصغير لسانشو (شانجة) أحد ملوك أسبانيا، حيث كان حفيداً له من جهة أمه القشتالية الأصـل، الـتي كانت قد أهديت إلى المنصور في إحدى غزواته = ابن عذاري : البيان المغرب، 38/3، إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص338، هامش (4).

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص90. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 38/3.

(3) إبراهيم بيضون : الدولة العربية، ص338.

(4) انظر نص قرار ولاية العهد في كل من : أعمال الأعلام، ص91-93، والبيان المغرب، 44/3-46، نفح الطيب، 424/1-425.

(5) ابن عذاري : البيان المغرب، 38/3، المقري: نفح الطيب، 424/1.

(6) إن العامريين كانوا من أسرة عربية تنتمي إلى قبيلة معافر اليمنية.

(7) كنيته أبو الوليد، أمه أم ولد اسمها مزنة لقبها كبارة وتعرف بالعرجاء لخلع كان بها، ولقب نفسه المهدي، ولقبته العامة المنقّش لهشاشته وطيشه وخفته = البيان المغرب، 50/3.

(8) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص97. كذلك ابن عذاري : المصدر السابق، 49/3-50، 60-61.

على القصر بقرطبة وفتحوا مدينة "الزاهرة"، وأخذوا أموالها، ثم أحرقوها وهدموها[1].

لما بلغت الأخبار "عبدالرحمن المنصور"، رجع من غزوته في الشمال، وكان كلما اقترب من قرطبة انفض عنه جماعة من جنده ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي القائم بالأمر حتى صار في قلّة من أصحابه، فاعترضه من خصومه معترض فقبض عليه وجزَّ رأسه وحمله للمهدي وجماعته[2]، وقتل معه صاحبه ابن غُومس[3]، وذلك بمنزل هانئ من "أرملاط: Guadamellato" أدنى محلاته إلى قرطبة، وذلك في رجب سنة 399هـ / 1008م[4]. وبموته تنتهي دولة بني عامر. ويلحظ من نهاية هذه الدولة مدى تعلق الناس بالخلافة وحرصهم على أن تكون من قريش[5].

والفترة الباقية من العصر الأموي بالأندلس (أي إلى 12 ذي الحجة سنة 422هـ/ 1031م مليئة بالفتن والاضطرابات وتصارعت فيها العناصر المختلفة في الدولة، من البربر والصقالبة والعرب، وخربت فيها مدن عامرة، كالزهراء والزاهرة. ويكفي للدلالة على مدى انقسام الدولة واضطرابها في هذه الفترة الأخيرة أن عدد الخلفاء الأمويين الذين حكموا فيها كان يزيد على عدد الخلفاء الذين حكموا قبلهم منذ بداية الدولة الأموية في الأندلس[6].

وفي 12 ذي الحجة سنة 422هـ/ 1031م سقطت الدولة الأموية في الأندلس، بعد عزل آخر خلفائها "هشام الثالث المعتد بالله" وإجلاء من تبقى من المروانية عن قرطبة[7].

---

(1) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص97.

(2) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 3/49-50. كذلك المقري: نفح الطيب، 1/426.

(3) هو أحد النصارى المتوسلين إليه بقرب أمه من عمومة الملك شانجه غرسية.

(4) ابن الخطيب : المصدر السابق، ص98. كذلك المقري: المصدر السابق، 1/426.

(5) عبدالحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص154. كذلك أحمد العبادي: في التاريخ العباسي، 464

(6) أحمد العبادي : المصدر السابق، ص464.

(7) المصدر نفسه، ص464.

وقــد وصف لنا "لسان الدين بن الخطيب" حالة آخر خلفاء بني أمية أثناء عــزله، بقوله : ((فأُنزل الشيخ هشام (يقصد الخليفة) من العلِّيَّة إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة، فيمن تألَّف إليه من وَلَده ونسائه، طارحاً نَفْسه على الجماعة، يُنْشدُهم الله في مُهْجته. فأُعْلم بكره الناس له؛ فقال: "ليتني قرب البحر: يرمونني في الـلُّجة؛ فيكون أخف لشأني! فافعلوا ما شئتم، واحفظوني في أهلي وولدي" وبقي بمكانــه يومــه وليلته أسيراً ذليلاً، خائفاً، شاخص البصر إلى جهة تهجم منها المنية عليه))[1].

ثم يضــيف قائلاً: وسأل هشام أحد "الداخلين عليه إحضار كُسيرة يُسدُّ بها جــوع طفــلة صغيرة له، إذ كان قد ضمَّها إليه ساتراً إيَّاها بكُمه من برد ليلته، وكانت تشكو له الجوع، ذاهلة عما أحاط بها، فتزيد في همّه؛ وسأل سِراَجاً يتأنّس به نساؤه))[2].

وارحمــتاه.. لقــد وصــل الذل والشدة بحاكم[3] المسلمين الزمني والديني الأندلسي إلى هذا الحضيض، وهو أن يستجدي خُبزًا وشمعة[4].

ويصف لنا "ابن الخطيب" نهاية الدولة الأموية بالأندلس، فيقول : ((ومشى الـــبريدُ في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحدٌ بقرطبة من بني أُميَّة، ولا يكنفهم أحــدٌ)) [5]. وبذلــك انتهى أمر بني أمية في الأندلس وزالت خلافتهم وانقطعت الدعوة لهم.

هذا وقد أعلم الوزير "أبو الحزم بن جهور" انتهاء رسم الخلافة لعدم وجود مــن يســتحقها، وصيرورة الأمر شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء، وبذلك

---

(1) أعمال الأعلام ، ص139.
(2) المصدر نفسه، ص139.
(3) لحق هشام المعتمد بالله بعد خروجه من السجن بابن هود، وأقام عنده ، ومات في لاردة سنة 427هـ/ 1035م = المراكشي : المعجب، ص58.
(4) على الجارم : قصة العرب في أسبانيا، ص151.
(5) أعمال الأعلام، ص139.

تحول الحكم في قرطبة إلى نظام شبيه بالنظام الجمهوري[1] في الصورة لا في الواقع، وهو ما عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة.

وهكـــذا خـــرج حكم الأندلس من أيدي الأمويين لأول مرة، وحكم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي نحو عشرين أسرة مستقلة، في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة، ويسمى هؤلاء بملوك الطوائف، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإسلام في الأندلس.

وعن سقوط الأندلس يقول ابن خفاجة الأندلسي :

عـــاثت بســـاحتك الظـــبى يا دار	ومحـــا محاســـنك البـــلى والنار
فـــإذا تـــردد في جـــنابك ناظـــر	طـــال اعتـــبار فيـــك واستعبار
أرض تقـــاذفت الـــنوى بقطينها	وتمخّضـــت بخـــرابها الأقـــدار
كتـــبت يـــد الحدثان في عرصاتها	(لا أنـــت أنت ولا الديار ديار)

(ابن خفاجة الأندلسي)

(1) ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص139. كذلك أحمد العبادي: المصدر السابق، ص464.

الخـــاتمة

الخاتمة

فتح المسلمون الأندلس وظلوا فيها أكثر من ثمانية قرون ، وتركوا خلال تلك الفترة بصماتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

وعند تأليفنا لهذا الكتاب، وضعنا في اعتبارنا أنه سيكون كتاباً منهجياً لطلبة قسم التاريخ، لهذا توخينا فيه الاختصار والسهولة والتركيز على تتبع الأحداث السياسية خلال الفترة التاريخية المستهدفة من هذا البحث.

تناولنا في هذا الكتاب الفتح العربي لبلاد الأندلس، ومن خلال ذلك ناقشنا الأسباب الحقيقية وراء هذا الفتح ، والعوامل المساعدة لذلك، كما ذكرنا مقدماته ومراحله، ثم نتائجه، والجهاد في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية. وذكرنا في أثناء ذلك أن الفتح العربي لبلاد الأندلس كان أمراً طبيعياً يتمشى مع حقيقة الدعوة الإسلامية وطبيعتها، وقد تم ذلك بعد أن تهيأت الظروف والأوقات الملائمة.

وعند حديثنا عن عصر الولاة تناولنا أهم أعمالهم الداخلية والخارجية، وركزنا على عدد منهم، وقد رأينا أن هذه الفترة استمرت ما يقارب نصف قرن من الزمان.

لقد بيَّنا خلال دراستنا لعصر الولاة أن سيطرة الخلافة الأموية على بلادالأندلس كانت سيطرة اسمية فقط لعدة أسباب ذكرناها في حينها.

وعند حديثنا عن قيام الدولة الأموية في الأندلس تتبعنا رحلة الأمير عبدالرحمن الداخل منذ هروبه من بطش العباسيين، حتى وصوله إلى بلاد الأندلس، وكيفية قضائه على آخر والٍ من ولاة الأندلس وذلك بعد انتصاره عليه في معركة "المصارة"، واستيلائه على مدينة "قرطبة". ثم وجدنا من المهم ذكر أهم إصلاحاته الداخلية، وأعماله الخارجية، وقد ذكرنا في حينه كيف استطاع الوقوف ضد أعداء الدولة سواء من الداخل أم من الخارج.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن أمراء بني أمية في الأندلس بعد عبدالرحمن الداخل، ووجدنا من المهم التركيز على أبرزهم، وذكرنا أن المذهب المالكي بدأ ينتشر في

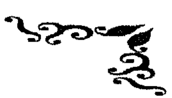
عهد "هشام بن عبدالرحمن (الرضا)"، وأصبح فقهاؤه يلعبون دوراً بارزاً مع السيطرة على أمراء الحكم وتوجيه شؤون الدولة.

وقد رأينا في هذه الفترة كيف استطاع المسلمون التصدي لغزوات الأسبان والنورماند، وكيف اهتموا بالأسطول وبناة السفن، وكيف أصبح المسلمون في الأندلس يلعبون دوراً مهماً في حوض البحر المتوسط، حتى أصبحت الدول الأجنبية تعمل لهم ألف حساب، وتطلب ودهم، وتقيم معهم علاقات سياسية متينة.

وفي المجال الداخلي تألقت في هذا العصر شخصيات كان لها أثر كبير في التقدم الحضاري، مثل الفقيه يحيي الليثي، والفنان الحسن بن علي بن نافع المعروف بزرياب، والجارية طروب

وعندما انتقلنا إلى الحديث عن عصر الخلافة، ذكرنا الأسباب التي دفعت الأمير عبدالرحمن الثالث لاتخاذ لقب خليفة، وأهم أعماله وأعمال خلفائه الداخلية والخارجية، وأثناء ذلك تحدثنا عن ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس، وأوضحنا أن بعضهم كان يستجلب إلى مكتبته المصنفات الكثيرة من شتى الأقاليم وفي مختلف العلوم، ويبذل في شرائها الأموال الطائلة، حتى وصلت إلى الأندلس أهم وأحدث مؤلفات كبار علماء المشرق قبل ظهورها هناك. وأوضحنا أن قرطبة استمرت تؤدي دورها الحضاري على أكمل وجه حتى بعد سقوط الخلافة.

وعند الحديث عن خلافة "هشام بن الحكم" أوضحنا كيف تسلط المنصور بن أبي عامر وأسرته من بعده على الحُكم، حتى ضعفت الخلافة وخرج حُكم الأندلس من أيدى الأمويين وانتقل إلى أيدي ملوك الطوائف.



المصادر والمراجع

أولا : المصادر

- **ابن الأبار** ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (658هـ/ 1260م).
  - التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسين (القاهرة، 1995).
  - الحــلة السيراء في أشعار الأمراء، نشر حسين مؤنس (القاهرة، 1963).
- **ابن بسام الشنتريني**، أبو الحسن علي (م: سنة 542هـ/ 1147م).
  - الذخــيرة في محاسن أهل الجزيرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1939م).
- **ابــن بطوطــة**، أبــو عبد الله محمد إبراهيم اللواتي (م: سنة 779هـ/ 1377م).
  - رحلة ابن بطوطة، دار صادر (بيروت، بدون تاريخ).
- **ابن حزم** ، أبو محمد علي بن أحمد (م: سنة 456هـ/ 1063م)
  - جمهــرة أنســاب العــرب، حققه ليفي بروفنسال ونشره في مجموعة ذخائر العرب سنة 1948، (القاهرة، 1948).
- **ابن حيان**، أبو مروان بن خلف بن حسين (م: سنة 469هـ/ 1076م)
  - المقتــبس في تــاريخ رجال الأندلس – تحقيق مكي (بيروت، 1973م).
- **ابــن الخطيــب**، لســان الدين بن الخطيب محمد بن عبدالله (م: سنة 776هـ/ 1374م).
  - الإحاطــة في أخــبار غــرناطة – تحقيــق محمد عبدالله عنان (القاهرة، 1977)
  - أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام – تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف (لبنان، 1956).

- **ابن خلدون**، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (م : سنة 808هـ/ 1405م)
  - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (بولاق، 1284هـ).
- **ابن خلكان**، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (م: سنة 681هـ/ 1282م)
  وفيات الأعيان، وأبناء الزمان (القاهرة، 1950).
- **ابن عبدالحكم**، عبدالرحمن (م: سنة 257هـ/ 871م).
  - فتوح أفريقية والأندلس (الجزائر، 1947).
  - فتوح مصر والمغرب – تحقيق عبدالمنعم عامر (القاهرة، 1961).
- **ابن عذاري المراكشي**، أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً 712هـ / 1312م)
  البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – تحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت، بدون تاريخ).
- **ابن قتيبة**، أبو محمد عبدالله بن مسلم (م: سنة 276هـ/ 889م).
  - الإمامة والسياسة (القاهرة، بدون تاريخ).
- **ابن القوطية**، أبو بكر محمد بن عامر (م: سنة 367هـ/ 977م).
  - تاريخ افتتاح الأندلس – حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني (بيروت ، 1982).
- **ابن كثير**، أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر (م: سنة 774هـ / 1372م)
  البداية والنهاية في التاريخ (بيروت ، 1966).

- **ابن الكردبوس**، عبدالملك.
  - كـــتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء – القسم الخاص بالأندلس نشر أحمد مختار العبادي – صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (مدريد، 1965).
- **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (م: سنة 711هـ/ 1311م).

لسان العرب، دار صادر (بيروت ، بدون تاريخ).
- **الإدريسي**، أبو عبدالله محمد الشريف السبتي (م: حوالي سنة 548هـ/ 1154م).

وصـــف المغرب والأندلس من كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفـــاق) نشره دوزي R. Doz ودي جوجه De Goeje. القسم الخاص بوصف الأندلس (مدريد، 1799).
- **البكري** ، عبدالله بن عبدالعزيز (م: سنة 487هـ/ 1094م).
  - جغـــرافية الأندلـــس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك – تحقيق عبدالرحمن علي الحجي (بيروت، 1968).
  - المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، نشر دي سلام (الجزائر، 1911).
- **الحميدي**، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر (م: سنة 448هـ / 1056م)
  - جـــذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر محمد بن تاويت الطنجي (القاهرة، 1952).
- **الحميري**، محمد بن عبدالمنعم السبتي (م: في أواخر القرن التاسع الهجري / السادس عشر الميلادي).
  - الروض المعطار في أخبار الأقطار، نشر وترجمة ليفي بروفنسال (القاهرة، 1937).

○ صفة جزيرة الأندلس – منتخبة من كتاب الروض المعطار (القاهرة، 1937).

- **الذهبي** ، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله محمد (م: سنة 749هـ/ 1347م).

○ تاريخ الذهبي (تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) (القاهرة، 1368هـ).

○ العِبَر في خبر مَنْ غبَر (الكويت، 1960-1963) (خمسة أجزاء).

- **الضبي** ، أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي (م: سنة 599هـ/ 1203م).

○ بُغْيَة المُلْتَمَس في تاريخ رجال أهل الأندلس – حققه فرانسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا (مدريد، 1884).

- **العذري** : أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي (م: سنة 478هـ / 988م)

○ ترصيع الأخبار وتنوع الآثار.

○ والبستان في غرائب البلدان.

○ والمسالك إلى الممالك ، نشر عبدالعزيز الأهواني (مدريد، 1965).

- **القلقشندي**، أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله (م: سنة 821هـ/ 1418م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، (القاهرة، 1913).

- **محب الدين الخطيب**، مع الرعيل الأول (الرياض، بدون تاريخ).

- **المراكشي**، عبدالواحد بن علي (محيي الدين)

○ المعجب في تلخيص أخبار المغرب – حققه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (القاهرة، 1963).

- **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (م: سنة 346هـ/ 957م)
مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس (بيروت ، بدون تاريخ)
- **المقري**، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (م: سنة 1041هـ/ 1631م)
  - أزهار الرياض في أخبار عياض ، نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري والحفيظ شلبي (القاهرة، 1942).
  - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة، 1302هـ).
- **مؤلف مجهول**
  - أخبار مجموعة في ذكر الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، نشره وعلق عليه لافوينتي والكنترا (مدريد 1867).
- **النويري**، شهاب الدين (م: سنة 732هـ/ 1332م)
  - نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزءان التاريخيان الأخيران – تحقيق وترجمة جاسبار ، ريميرو Gaspar Remiro (غرناطة، 1917).

ثانيا : المراجع

أ- المراجع العربية :

- **أرسلان، شكيب**
  - خلاصـــة تاريخ الأندلس – منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، 1983).
- **أرنولد، توماس.**
  - الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابد وإسماعيل النحراوي (القاهرة، 1957).
- **أمير علي ، سيد**
  - مختصر تاريخ العرب (بدون مكان، بدون تاريخ)
- **بروفنسال، ليفي**
  - حضـــارة العرب في الأندلس – ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت ، بدون تاريخ).
- **بول، استانلي لين**
  - العرب في أسبانيا ، ترجمة علي الجارم (القاهرة، 1944).
- **بيضون ، إبراهيم**
  - الدولـــة العـــربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ، دار النهضة العربية (بيروت، 1986).
- **حتى ، فيليب**
  - تاريخ العرب (بيروت، بدون تاريخ).
- **الحجي، عبدالرحمن علي**
  - الـــتاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم (بيرت، 1976).
- **حسن ، حسن إبراهيم**
  - تـــاريخ الإســـلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1991).

- **حلاق، حسّان**
  - العلاقـــات الحضـــارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الأندلس، صقلية، الشام، الدار الجامعية (بيروت، 1986)
- **رستم ، أسد**
  - الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (بيروت، 1956).
- **زيتون ، محمد محمد**
  - المســـلمون في المغـــرب والأندلس، دار الوفاء للطباعة (القاهرة، 1984).
- **سالم، السيد عبدالعزيز**
  - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (الإسكندرية، 1961)
  - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي) دار النهضة العربية (بيروت،1971).
- **سيديو**
  - تاريخ العرب العام (بدون مكان ، بدون تاريخ).
- **الصوفي ، خالد**
  - تاريخ العرب في أسبانيا — عصر المنصور الأندلسي، دار الكتاب العربي، (بيروت، بدون تاريخ)
  - تـــاريخ العـــرب في الأندلس (الفتح وعصره الولاة) دار النجاح (بيروت، 1971).
- **طلفاح، خير الله**
  - حضارة العرب في الأندلس (بدون مكان، بدون تاريخ)
- **العبادي ، أحمد مختار**
  - دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (بيوت، 1978).
  - في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة، (بيروت، 1972).

- **العبادي ، عبدالحميد**
  - المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم (القاهرة، 1964).
- **عباس، إحسان**
  - تاريخ الأدب الأندلسي (بيروت، 1960)
- **العريني، السيد الباز**
  - الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية (بيروت، 1982)
- **عنان ، محمد عبدالله**
  - دولة الإسلام في الأندلس (القاهرة، 1969)
- **لوبون، غوستاف**
  - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية (القاهرة، 1964).
- **مؤنس ، حسين**
  - فجر الأندلس، دار المعارف، (القاهرة، 1959).
- **النفوسي، سليمان الباروني**
  - الأزهار الرباضية في أئمة ملوك الأباضية (بدون مكان، بدون تاريخ).

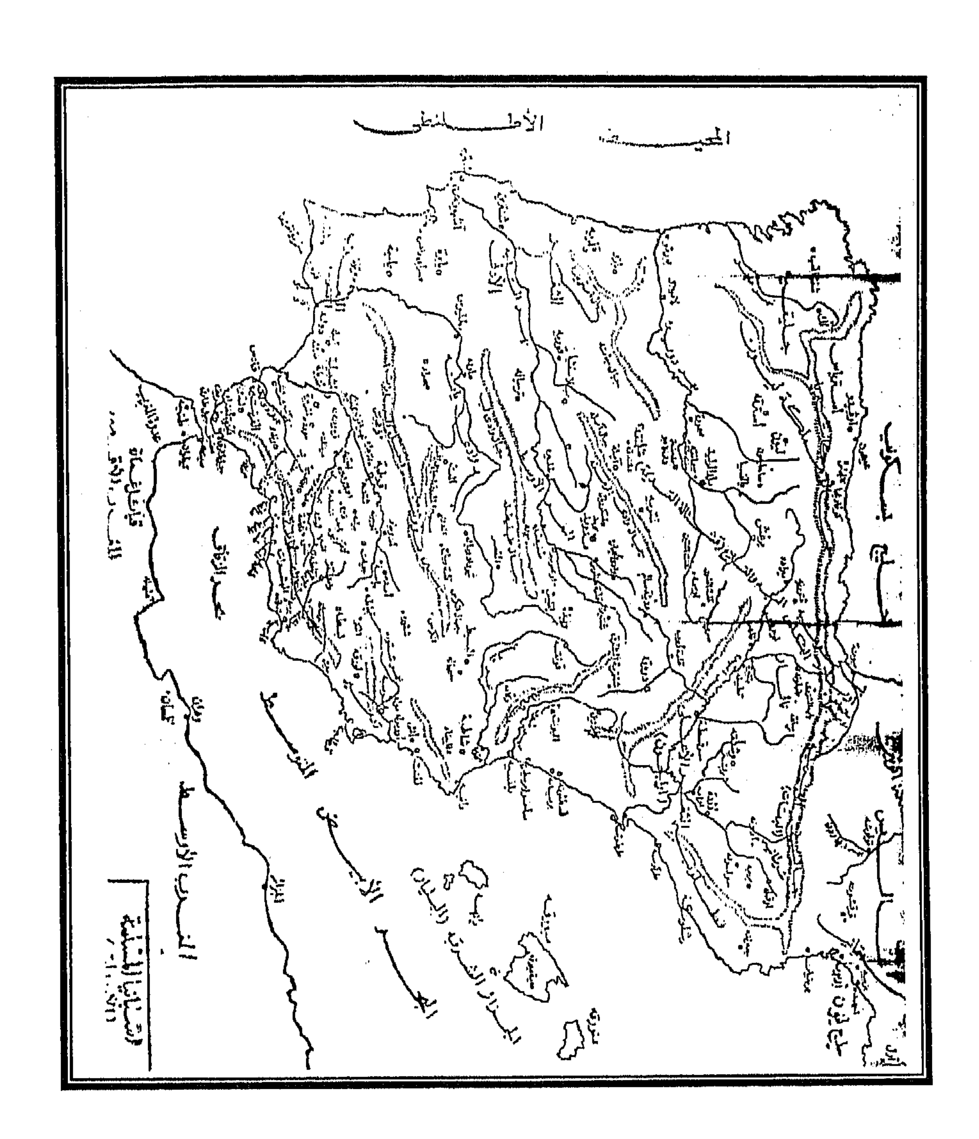
ب- المراجع الأجنبية :

- Conde , Jose Antonio , Historia de la Domincion de les Arabes Espana, Paris , 1840.
- Dozy. R, Historire des Musulmans d Espagne Traduction Espagnole Parmagdlena Fuentes Barcelona, 1954.
- Giggon , The decline and fall of the Roman empire
- Levi , Provencal , Histoire de L Espangne musulmane, Paris, 1970
- Levi , Provencal , Garica. Gomez , Une cronica anonime de Abdel Rahman III , Al Nasir , Madrid , 1958.
- Levi , Provencal , La politica africana de Abd al Rahman III , Al Andalus, Voi x1 Fasc , 2, 1946.
- Reinaud , Invasions des Sarrazins en France.
- Voir , A. Julien , Histoire de L; Afrique du Nord .

الملاحق



فتوح المغرب الأقصى والأندلس



ولاة الأندلس(*)

من عهد الفتح

الاسم	السنة الهجرية
طارق بن زياد	92
موسى بن نصير	94
عبدالعزيز بن موسى بن نصير	95
أيوب بن حبيب اللخمي	97
الحرّ بن عبدالرحمن الثقفي	98
السَّمح بن مالك الخولاني	100
عبدالرحمن الغافقي	102
عنبسة الكلبي	105
عذرة الفهري	107
يحيى بن سلمة الكلبي	107
حذيفة بن الأحوص	110
عثمان بن أبي نسعة الخثعمي	110
الهيثم بن عبيد الكناني	111
محمد بن عبدالملك الأشجعي	112
عبدالرحمن الغافقي (ثانياً)	112
عبدالملك بن قطن	114
عقبة بن الحجاج	116
عبدالملك بن قطن (ثانياً)	122

(*) مقتبس من "معجم الأنساب والأسرات الحاكمة" تأليف المستشرق زانباور.

الأمويون

الاسم	السنة الهجرية
عبدالرحمن الداخل	138
هشام الأول بن عبدالرحمن	172
الحكم بن هشام	180
عبدالرحمن الثاني بن الحكم	206
محمد الأول بن عبدالرحمن	238
المنذر بن محمد	273
عبدالله بن محمد	275
عبدالرحمن الناصر بن محمد	300
الحكم الثاني بن عبدالرحمن الملقب بالمستنصر	350
هشام الثاني بن عبدالحكم الملقب بالمؤيد	366
محمد الثاني بن هشام	399
سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين	400
محمد الثاني (ثانياً)	400
هشام الثاني (ثانياً)	400
سليمان الثاني (ثانياً)	407
علي الناصر بن حمود	407
عبدالرحمن الرابع بن محمد الملقب بالمرتضى	408
القاسم المأمون بن حمود	408
يحيي المعتل بن علي بن حمود	412
القاسم (ثانياً)	413

الفهرس

الفصل الأول

الفتح العربي لبلاد الأندلس

الفصل الثاني

عصر الولاة

الفصل الثالث

قيام الدولة الأموية في الأندلس ووصول عبدالرحمن الداخل إلى الحكم

الفصل الرابع

أمراء بني أمية في الأندلس بعد عبدالرحمن الداخل

الفصل الخامس

عصر الخلافة الأموية في الأندلس

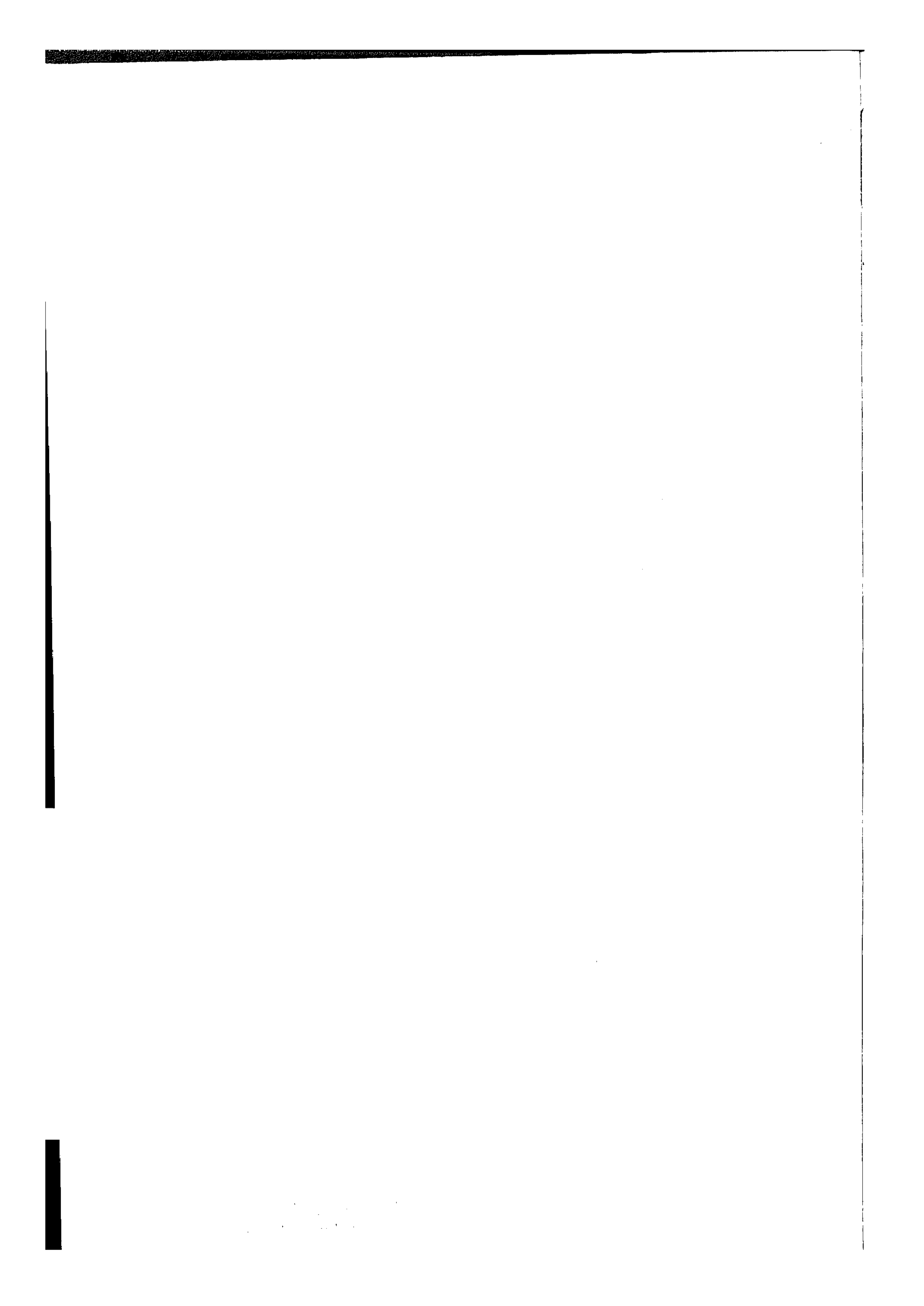
صدر للمؤلف

1- كتاب الطبيب والمترجم والناقل ثابت بن قرة الحراني، منشورات جامعة قاريونس 1990 ف.

2- كتاب تاريخ الجراحة في الطب العربي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري/ منشورات جامعة قار يونس ، 1999ف

3- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية 2001ف. دار قباء (القاهرة) ، 2001ف.

4- نهاية الوجود العربي في الأندلس منشورات دار قباء (القاهرة) 2001ف.





دكتور علي حسين الشطشاط

- ولد بمدينة مصراته ليبيا سنة 1948 ف.
- اشـــتغل فـــي مجال التعليم العام، كمدرساً ثم موجهاً خلال الفترة من سنة 1973 إلي سنة 1988 ف.
- أنـــتقل إلي التعلـــيم العالي كعضو هيئة تدريس منذ 1988 إلي الوقت الحاضر.
- حصـــل على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة قاريونس بنغازي عام 1986ف.
- حصـــل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الإ من جامعة محمد الخامس بالرباط/ المملكة الـ عام 1997 ف.
- أسـتاذ الــتاريخ الإسـلامي المســاعد والـ الإسلامية بجامعة قاريونس.

